الطيب صالح

سيرة وشهادات من محطات العمر

الكتاب : الطيب صالح .. سيرة وشهادات من محطات العمر

الكاتب : د.خالد محمد غازي

الطبعة : ٢٠١٥

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com **E-mail: news@apatop.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

غازي، محمد ، خالد .. الطيب صالح .. سيرة وشهادات من محطات العمر

خالد محمد غازي – الجيزة : وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٥

تدمك : ٥ – ١٧٦ – ٤٤٦– ٩٧٧ –٩٧٨

١٦ ص ، ١٨ سم .

أ. العنوان ٩٢٨,١ رقم الإيداع / ٨٠٠٨ / ٢٠١٥

الطيب صالح

سيرة وشهادات من محطات العمر

د. خالد محمد غازي





مقدمة :

"يا مريود" أنت لا شيء.. أنت لا أحد يا مريود.. إنَّكَ اخترت جَدَّك يا مريود، وجَدُّك اختارك لأنكما أرجحُ في موازين أهل الدنيا.. وأبوك أرجح مِنك ومِن جدِّك في موازين أهل العدل.. لقد أحبَّ بلا كلل، وأعطى بلا أمل، وأقام على عجل وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على سفر، وفارق على عجل.. حَلُمَ أحلام الضعفاء، وتزوَّدَ مِن زاد الفقراء، وراودته نفسه على المجدِ فزجرها.. ولما نادته الحياة.. "قلتُ نعم.. قلتُ نعم.. قلتُ نعم.. لكنَّ طريقَ العودةِ كان أشقّ لأنني كنت قد مشيت..".

مِن رواية "مريود"

(١)

الموت حدث اعتيادي يحدث كل يوم حولنا.. لكن في كل مرة عندما يدنو منا، ويخطف عزيزا لدينا نفاجــأ.. ونعــيش حالــة مــن الصدمة.. ربما لأن الموت يأتي على غفلة منا.. كان مصدر مفاجأتي أن

فصول هذا الكتاب اطلع عليها الطيب صالح قبل شهور من رحيله.. وعلق عليها قائلا: "يا أخي والله إنت شاغل بالك بي في جمع حوارات وشهادات.. هناك من هو أهم مني، وأشمخ قامة لتبذل هذا الجهد".. وكان إصراري كبيرا على صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى وعنوانه (الطيب صالح.. أوراق من محطات العمر)، وعندما تسلمت النسخة الأولى بادرت بإرسالها له.. بعد أيام عادت النسخة إلى في نفس مظروف البريد الذي أرسلته.. مكتوبا عليها (لم يسلم لمن أرسل إليه).. نعم: لم يسلم لمن أرسل إليه، لأن الموت زاره قبل أن يزوره كتابي.

(٢)

الطيب رحل وترك لنا شيئين.. ذكرى إنسانية طيبة – مستمدة من اسمه فهو "طيب" و"صالح" – لا يختلف عليها اثنان وهذا أمر عجيب، فلم أر في حياتي رجلا لا يختلف عليه اثنان إلا هذا الرجل.. جمع بين أدب الحرف وأدب النفْس.. وهما أدبانِ ما اجتمعا لكثيرٍ مِن أدباء الحرف أو أدباء النفس على مرِّ الأزمان.

الشيء الآخر الذي تركه هو ما أبدعه قلمه من سرد يحمل عذوبة ماء النيل.. تنبع غرائبيته وفرادته من بساطته المشحونة بدلالات عميقة لم يترك موضع إبرة، على حد تعبير أحد النقاد، من جسده الروائي لم تغرز فيه دراسة نقدية أو بحث.

إنه روائي غريب سجل اسمه كأحد قامات الرواية العربية العظام وأحد رواة العالم في بضع روايات.. لم يثرثر كثيرا.. كان صموتا كثيرا، لكنه كان متأملاً وصوفياً في سلوكه وإبداعه؟

– أحقا رحلت أيها الفارس النبيل.

أسمعك تجيبني:

– وماذا أريد من عالمكم بعد أن بلغت الثمانين.. لقد قلت لكم ما أريد وكان علَي الرحيل.

– أسمع أبطال رواياتك ينادونك.. وأنت تصر على أن تتركهم بيننا وترحل.. ألا تسمع صوت مصطفى سعيد والزين ومحيميد وبندرشاه ومريود ومحجوب وسيف الدين والطريفي ولد بكري وود الريس وبنت مجذوب وعبد الحفيظ وود البصير والطاهر وود الرواسي وسعيد البوم وشيخ عبد الصمد وفطومة وإبراهيم ود. طه وشيخ على؟

(٣)

والله لأشهد أنك رجل بحجم وطن، كل الوطن بجنوبه وشماله شرقه وغربه تخطيت بـ"سودانيتك"، لترتحل بها إلى أقاصي الأرض وتحولها لنزعة إنسانية عميقة، هكذا يكون الكبار بصدقهم وأدبهم، بسيرتهم وعطائهم عشت حياة المفكرين والمبدعين الحقيقيين، زاهدا كريما ومتسامحا منفتحا على الآخر. نقي السريرة.. عميقا في تأملك وتواضعك وقناعتك.

لقد كان للبيئة السودانية الريفية موقع الصدارة في أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها في معظم المواقف، شكلا وموضوعا.

ولعل ذلك يعود – كما يقول د.حسن أبشر الطيب – إلى ثلاثة أسباب رئيسة:

أولها: تلك الذكريات الدافئة الحميمة التي التصقت بذاكرة الطيب عن سنوات طفولته وصباه الباكر التي نعم فيها بالحياة في قريته تلك الوادعة الهانئة بين أحبائه وأترابه. قرية تماثل "ود حامد" في الشكل والجوهر.

وثانيها: أن غربته لسنوات طوال قد عمقت في ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكشفت اعتزازه بها، لانتمائه الصادق لها، ولما رأى من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه في بيئات أخرى.

وثالثها: أن غربته قد منحته الفرصة للنظر من بعد بغية استقراء واستجلاء دقائق الحياة في بيئته، تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين لواحد من هذه الأسباب، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة، ظل الطيب صالح حفيا ولصيقا ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية على شاطئ النيل، وهو يتمثلها في الكثير من المواقف في كل أعماله الروائية. شاعرية موحية وكان نبعا ثرياً لإيحاءات بكر، وتشبيهات مبدعة، وتصوير بارع مفعم بالشفافية والقدرة على تجسيد الاستعارة، والاستعارة، كما قال أرسطو هي "دليل العبقرية".

إن العديد من الشخصيات في روايات "الطيب" قد أصبح لها وجود حي ماثل في نفوس الكثير من القراء، وما كان ذلك إلا لقدرته المبدعة على رسمها رسما مشبعا بالحياة والحركة.. يقول الطيب: "الرواية عالم من تصوري، وأنا المسئول عنه، أما التفاصيل فربما يكون بعضها حقيقيا اعتمدت فيه على واقع استلهمته من ذكريات بعيدة للمكان الذي نشأت فيه".. وتلك سمة تميزت بها الكثير من الأعمال الروائية والإبداعية العربية والعالمية الناجحة.. فتحضرك شخصية هاملت في مسرحية شكسبير، والسيد أحمد عبد الجواد وأمينة في ثلاثية نجيب محفوظ، وعبد الهادي في الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي، وعزيزة في الحرام ليوسف إدريس..

شخصيات "الطيب" الروائية، ليست بالضرورة شخصيات حقيقية في الواقع المعاش. إنها شخصيات روائية – وبتعبير د.حسن أبشر الطيب – هي بمثابة نماذج لها أصل وشبيه في الحياة، لكنها في الرواية غير هذا الأصل الحياتي الواقعي، فالروائي المبدع يعيد خلقها في الرواية ويرسمها فنا مبدعا يأخذ من صورة الواقع بطرف ومن رؤية الفنان وخياله بطرف آخر.

ورغم إقامته في أوروبا لسنوات ليست قليلة، فإنه كان يعتز بعروبته، ولا ينسى أبداً أنه مولود لعائلة أساسها من المزارعين ومعلمي الدين الإسلامي، بإقليم "مروي" شمال السودان، وتحديداً بـ"كَرْمَكوْل" القريبة من قرية "دبة الفقراء" إحدى قري قبيلة

"الركابية" المعروفة.. وكانت سيرة حياته وتجاربه ومعايشته لتجارب الآخرين، هي مصادر إلهامه الرئيسية في كتابة رواياته، ثم كان تنقله بين عدة مواقع مهنية، مصدراً لاتساع خبرته بواقع العرب وآلامهم وآمالهم. فهو في تنقل دائم بين المحيط والخليج، بين المشرق والمغرب، ولم يجعله كل ذلك الشرق وكل ذلك الغرب ينسى أنه ابن جنوب الأرض، التي هاجر إلي شمالها بحثا عن الحياة الأفضل.

(٤)

ويعتبر "الطيب" واحداً من أكثر الروائيين العرب الذين نالت أعمالهم اهتماماً عالمياً وعربياً واسعاً، سواء عبر الترجمة للغات أخرى، أو تناولها في دراسات أدبية متعددة، فأعماله بعيدة كل البعد عن روتينية الصنعة الروائية، ربما لأن في إبداعاته انبعاثات للأحداث، فهي تؤدي مهمة تتجاوز الحدث، مستلهمة من الواقع مونولوجاتها الداخلية، إنه يسترسل بحرفية عالية معتمداً على روعة أسلوبه السردي، متماشياً مع أسلوب السوداني البسيط المتصوف المشبع بعبق النيل والأرض المضمخة بعرق أبنائها، وذلك كله في محاولة خالصة منه لتشخيص مرض وإيجاد علاج، من خلال أسلوب أدبي رفيع، وعبارات ومعانٍ تميل إلي الرمز حيناً، وإلى الواقعية أحياناً أخرى، مستدرجاً مشاعر القارئ وفكره للتماهي مع كتابته.. يروض لغة نصه فيجعلها عذبة عذوبة النيل، ويدقق عند اختيارها تجد في كتاباته تصوفاً خجولاً،

ووصفاً ناطقاً، وصمتاً ذا ضجيج، وألماً لذيذاً، وحكايـــات تدغـــدغ الأفكار قبل المشاعر، حيث إنها اصطبغت بعبق الصوفية، وامتزجـــت بوهج الحضارة الغربية الصاخبة وصمت التراث السوداني الملهم، كحنة عروس في ليلة زفافها، حيث رائحة الطلح تعبق أجواء الخباء.

فالألفة هي كلمة السر – حسب رأي محمد الربيع محمد صالح – في اللوحة البيانية لمشروعه الثقافي والجمالي ولعلاقتـــه مـــع الوجـــود، وأعماله الروائية والقصصية "موسم الهجرة إلى الشمال وعرس الزين، ويندر شاه بجزءيها ضو البيت ومريود، ودومة ود حامـــد"، تـــشكل أرشيفاً للوجود الحميم وللألفة المهددة بالتمزق والشرور، فإلى جانب العذوبة الواضحة والحميمية الغامرة للتفاصيل الإنسانية فيها، يعتمـــد الطيب صالح تكنيكاً جمالياً يستمد عمقه من بـــساطة أســـرة في بنـــاء المشاهد، أشبه ما تكون بعملية توثيق تلقائيـــة للحظـــات مركزيـــة في الوجود الحميم للمجتمع السوداني، ممثلا في جلسات الأنس والـــسمر والتعاضد الاجتماعي في المسرات والأحزان والنُّصرة في الملمات.

قال لي الطيب صالح – والكلام على لسان محمد الربيع صالح – حين سألته عن سر جماليات هذا البناء: "إنه نوع من الإصغاء لنداءات الحنان التي يبثها هذا العالم، الذي اعتبر نفسي مجرد وسيط وناقلا له".

والحوار مع الطيب الصالح لا يأخذ مداه في الأريحية والجمال إلا حين يقبس من هذه العوالم ناره، لأنه لا ينظر إلى التفاصـــيل في هـــذه الحياة بوصفها جزراً معزولة عن بعضها البعض، بل يكونهـــا أرخبـــيلاً

اجتماعياً وثقافياً مفتوح الأبواب والنوافذ والممرات في وحدة وجود إنسانية على قاعدة الأُلفة، وهو يراه مثل كوم "القمح الذي تنطوي كل حبة منه على سر عظيم"، مشيراً إلى مشهد زواج ضو البيت "في رواية بندر شاه" الذي كان حفلا أمّه جميع الناس بمختلف مناشئهم العرقية ومواقعهم الطبقية، وصورة المرأة التي زغردت تحت وقع هذا الإحساس الجماعي بالألفة، والتي كانت زغرودها تعبيراً عن كونها جزءاً من هذا الجسم، لا يتحقق انتماؤها إليه إلا عندما يدخل صوتها مع بقية الأصوات.

كل شيء في حياة الطيب صالح هو تنويع على لحن الإلفة حياته الوظيفية علاقاته الإنسانية، تأملاته النقدية، وإبداعه الروائي، فهي الناظم الوجودي لهذا الارخبيل يأخذك "الطيب" عبر مذاق لغته ونسيج إبداعه، إلى دنيا معطياها غير تلك التي نعيشها كل يوم، وإلى أطلال تصدح بأسماء من كانوا ساكنيها، وربما يكون ذلك كله نتاجاً لدقة الوصف المحير عنده (مصدر الإبداع والتفرد).. هذه الدقة التي لم تؤت لأحد قبله، إنها القدرة التي نراها بدأت تنتج أثرها في كتابات بعض الأدباء العرب مؤخراً وهذا تأثر متوقع، له مقدماته.

(٥)

"موسم الهجرة إلى الشمال" تعد من أشهر أعماله الروائية، بل كان هذا العمل سبب شهرته التي فاقت العنان. ونشرت لأول مرة في

أواخر الستينيات من القرن الماضي في "بيروت"، وعدت من قبل مؤسسات ثقافية عالمية كبرى واحدة من أفضل مائة رواية في العالم خلال القرن العشرين.

المدهش حقاً أن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" تحولت بالنسبة لصاحبها من عمل عظيم إلى عبء ثقيل، فطارت به إلى سماء الشهرة، ولم تفلح أعماله الأخرى في أن تطول هذه السماء أو تتجاوز حجبها، ربما ينظر البعض إليه على أنه ذو حظ عظيم، إلا أن هذا الحظ جعله سجين رواية واحدة.

إن دينيس جونسون مترجم كل أعمال الطيب صالح وصديقه في الوقت نفسه كشف في كتابه "حياتي في الترجمة" أسراراً مثيرة للدهشة، ومنها أن الطيب صالح تم استبعاده من الفوز بجائزة نوبل بسبب "موسم الهجرة إلى الشمال" لتذهب إلى نجيب محفوظ، وأن أول أعماله نشرت بمباركة المخابرات المركزية الأمريكية **C.I.A** بسبب أن الرواية بها ظاهرة "الرواية التي صنعت الكاتب"، أوبمعنى "كاتب الرواية الواحدة"، فهي ليست مقتصرة على الطيب صالح وحده، رغم إنجازه أعمالاً مهمة مثل روايته (بندر شاه) بجزءيها "ضو البيت" و"مريود"، إلا أنه سيبقى "كاتب الرواية الواحدة"، ولعل ظاهرة كاتب الرواية الواحدة" ليست مقتصرة على "الطيب" وحده إلا أنه سيبقى كاتب الرواية الواحدة، مثله في ذلك مثل الكاتبة الأمريكية المعاصرة هاربرلي التي تحولت إلى علامة من علامات الأدب العالمي بإصدارها روايتها

الوحيدة "قتل طائر مغرد" عام ١٩٦٠، والتي سرعان ما اعتلت قوائم أفضل المبيعات، ثم أعد عنها فيلما سينمائيا بنفس العنوان قام ببطولته النجم الأمريكي جويجوري بيك، ليحصد ثلاثاً من جوائز الأوسكار، وساهم في شهرة الرواية حتى بيع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.

والسؤال: لماذا اكتسبت هذه الرواية كل هذه الأهمية، علماً بأنها لم تكن عمل الطيب صالح الأول؟

وكيف صارت هي هوية كاتبها، فبات الناس يعرفونه بها وينسبون أعماله اللاحقة، وحتى السابقة إلى صاحب "موسم الهجرة إلى الشمال" ؟ الحقيقة ـــ في رأي د. جورج طراد ـــ أن هناك عوامل متعددة، فنية وحضارية وسياسية، أعطت الرواية المذكورة كل هذه المكانة العالية، منها أنها سودانية الفضاء، والسودان، على أهميته ووزنه الديمغرافي والحضاري، يكاد يكون مجهولاً من معظم العرب، ومنها أيضاً أنها غرقت في محلية الملامح والمشاهد والأوصاف، فجاءت لغتها شعبية إلى حد ما ومسرحها قروياً سودانياً بامتياز، ومن العوامل أيضاً أنها قدمت أجوبة خاصة عن تساؤلات قديمة، متجددة باستمرار، على العلاقة بين الشرق والغرب: شرق الرضوخ وغرب الاستعمار، لكن ما كان مسكوتاً عنه، أدبياً على الأقل ، قبل "موسم الهجرة إلى الشمال" صار مصرحاً به علناً بعدها، لذلك فإن أحد أبرز عوامل تفوقها هو أنها كانت حق رواية قضية.

طبعاً هناك روايات قضية غيرها، ولعل "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ هي واحدة من أبرزها، لكن وجه الاختلاف في عمل الطيب صالح هذا، هو أن القضية كانت بين عالمين، شرق وغرب، في حين أنها عند محفوظ بين طبقتين داخل عالم واحد، لا بل داخل مدينة واحدة!

ورغم أن معظم روايات "الطيب" تعالج حالات سودانية وأشخاصاً سودانيين، فإن قراء "الطيب" هم من المحيط إلى الخليج، فهو نموذج للكاتب الذي يجمع في شخصيته بين الوطنية السودانية والعروبة الثقافية والإسلام الحضاري وعالمية الإنسان الحر، لم تحجب عنه هموم السودان هموم أمته العربية التي منها جاءت ثقافته ولغته، ولم يبهره تقدم الشمال الأوروبي، فينسى أنه ابن جنوب هذه الأرض، وما في الجنوب من فقر وتخلف وآلام لم ير في مجتمع الغرب العصا السحرية لمشاكل العرب، بل ساحة ومنبراً لإبداع الفكر العربي المستنير، إنه الطيب صالح الذي جمع، في شخصيته وكتابته، بين الكلمة الطيبة والعمل الصالح.

وعلى المستوى الفني أرخت له روايته الثانية "موسم الهجرة إلى الشمال" التأريخ الفني الحقيقي، وكانت سبباً مباشراً في التعريف به وجعله في متناول القارئ العربي في كل مكان، ويمكن أن نرى فن الطيب صالح ككل من خلال هذه الرواية خاصة، بوصفها أخصب مناطق إبداعه، حيث تمتاز بتجسيد ثنائية التقاليد الشرقية والغربية واعتماد صورة البطل الإشكالي الملتبس على خلاف صورته الواضحة،

سلبًا أو إيجابًا، الشائعة في أعمال روائية كثيرة قبله وبناءً عليه يمتاز الفن الروائي للطيب صالح بالالتصاق بالأجواء والمشاهد المحلية والانتقال بها إلى العالمية من خلال لغة تلامس الواقع خالية من الرتوش والاستعارات، منجزًا في هذا إسهاماً جاداً في تطوير بناء الرواية العربية ودفعها إلى آفاق جديدة، ويستطيع أن يلاحظ القارئ الذواقة كيف تأتي ذكريات مواسم الطيب صالح شفافة في معانيها وسلسة في أسلوبها ومتبدلة في سردها وعميقة في أبعادها للطيب صالح قدرة خارقة على الرؤية والتبصر، والنفاذ إلى أدق الأمور، وهذه ملكة الفنان فيه وهو إلى جانب عمله هذا لم يعتمد في سائر أعماله الأدبية على هذه الموهبة وحسب، بل شحذها شحذاً حاداً بالثقافة العربية فتزود منها بكل ما وسعته القدرة على التزود، فقرأ المعاصرون وهضم أعمالهم وغاص في التراث فاستلهم روحه وتسلح بمعرفة شواهقه، وعايش الثقافة الغربية فكراً مكتوباً، فقرأ أعمال الكلاسيكيين والمعاصرين الأوربيين، وعاش الحضارة الأوربية أنماط سلوك وطريقة حياة ومنهج تفكير، بالإضافة إلى ذلك.

نرى الطبيب في أعماله ابنا للتمازج الحضاري والعرقي العربي الإفريقي السوداني، وأعماله إنما هي مزيج هذه النفحات، وشخوصها هم الرجال والنساء والأطفال الذين يحفل بهم السودان وهم على أية حال لا يختلفون كثيراً عن نماذج بقية الناس، حينما ننظر إلى الجوهر

الإنساني العالمي لا المظهر المحلي في كل شخصياته بما يمور في أعماقهــا من مشاعر وأحاسيس إنسانية هي ذاتها في كل زمان ومكان.

من أبرز أعماله التي قد ترجمت إلى عدة لغات: روايته الأشــهر "موسم الهجرة إلى الشمال" و"عرس الزين"، الــتي حولهــا المخــرج الكويتي خالد صديق في أواخر السبعينيات إلى فيلم سينمائي فاز عنــه بجائزة مهرجان "كان". كذلك من رواياته "بندر شاة" بجزأين هما "ضو البيت" و"مريود" و"نخلة على الجدول" و"منسي"، وحصل على العديد من الجوائز العربية والعالمية تقديرا لفنه الرفيع.. الذي يمثل لبنة حقيقية في صرح الرواية العربية.

(٦)

تطرق عبقري الرواية العربيــة في كتاباتــه بــصورة عامــة إلى السياسة، وإلى موضوعات أخرى متعلقة بالاستعمار، والجنس والمجتمع العربي. كذلك تتطرق إلى الاختلافات بين الحضارتين الغربية والشرقية، فهو معروف كأحد أشهر الكتاب في يومنا هذا، لا سيما بسبب قصصه القصيرة، التي تقف في صف واحد مع نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وطه حسين، ومقالاته التي داوم على نشرها بشكل أســبوعي بمجلــة "المجلة اللندنية" لمدة تزيد على الخمسة عشر عاماً.

ترنم في كتابه "وطني السودان" بنشيد الفقد الحزين "أن تنتمي إلى هذا الوطن البعيد المنال، ذلك أمر عسير، أن تكون سمعــت زغاريــد

النساء في الأعراس، ورأيت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب، وأن تتذكر مذاق تمر "القنديل" أول الموسم، ولبن البقر الغريض، ورغوته معقودة عليه في "الحلابات"، وذلك أمر عسير".

ويحرر "الطيب" السودان من أي خطاب سياسي أو اقتصادي ليظل الوطن لديه سؤال وجود وهوية، يتبرعم في النفس وفي العقل والروح، وهي تقرأ الملصق الإعلاني – السياحي – الذي يدعوك كسوداني – ويدعو غيرك إلى التعرف على جمال السودان وتنوعه وغناه.. يقول الطيب صالح: "تجلس في هذا المطار، الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات إلا لماما، وإذا نزلت فلا تقوم إلا بشق الأنفس، في هذه الصالة التي تسلخت حيطانها، وتشققت جدرانها تنظر إلى الصور التي أخذها مصورو وزارة الإعلام، منذ كم ألف عام أخذت هذه الصورة، فكأنك تنظر إليها من وراء سحاب أو من تحت ماء عكر مجموعة من رجال "الهدندوة" بشعورهم الكثة، وسراويلهم الطويلة، وصديرياتهم القصيرة يرقصون بالسيوف، نساء "الرشايدة" الجميلات في عيونهن بقية من بريق رغم تقادم العهد بالصورة، قافلة من "البقارة" ربما في نواحي "بابنوسة" رجل ضرير تلعب أصابعه بأوتار الطنبور، ذلكم النعام آدم، العازف الموهوب، إنه من ديار قريبة من ديارك، ويغني ألحانا قريبة إلى قلبك، رجال من جبال النوبة، على رؤوسهم قرون الثيران، وفي أذرعهم الخرز، وفي أرجلهم الخشاخيش، يرقصون رقصة "الكمبلا"

نساء "الدينكا" الفارعات، صدورهن نصف عارية، ونصف مغطـــاة، غابة نخل في "نوري" هاماتها تنوء بأحمال السبيط، وساقية الله أعلم أين، لقد انقرضت السواقى، وصمت غناؤها للنيل منذ سنين، وحيد القرن وفرس النهر، ووعل في "الدندر" وقطيع أفيال عند خط الاســتواء، آه أي وطن رائع يمكن أن يكون هذا الوطن، لو صدق العــزم وطابــت النفوس وقل الكلام وزاد العمل، هكذا يكمل الطيب قراءته للملصق الإعلاني، وفي حقيقة الأمر فإن هذا الملصق يمثل لحظة مفصلية، وجزءا حيويا وعضويا من مسرح الشجن، في صالة المغادين، فهــذا الــسرد التفصيلي والتوثيق الدقيق لعطايا الله للسودان بشرا وطبيعة وموارد، في الملصق الإعلاني، وفي القراءة المقابلة يمثلان الخط الفاصل بين حياة هذا العالم من قبل، واللحظة التي يمكن أن نطلق عليها دون تردد جرنيكــا السودان المعاصر الذي لخصه الطيب صالح بقوله:

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقا، وغربا، شمالا وجنوبا، تقطعت حبلا بعد حبل، وقفت سفن النيل، وقطارات السكة الحديــد، والطائرات إلا القليل، وآل هذا المطار كأنه محطة خلويــة في صــعيد مهجور،لم تبق إلا قوافل الإبل، كما كنا منذ قرون، وحافلات هالكــة تسبر طرقا غير معبدة، تنوء وتقوم.

في مقال له بعنوان "من أين جاء هؤلاء؟" عام ١٩٩٠،كشف فيه لأول مرة عن موقفه النقدي من حكم الإسلاميين، نقدا إبان تــشظي القيم والثقافة باسم الدين و"الانقاد الوطني". أما "موسم الهجــرة إلى

الشمال" بمشاهدها الأيروسية ولغتها الصادمة للعام والسائد فقد منعت في الحال، إلا أن ذلك لم ينل منها كعمل تكرس تماما بأصالته الفنية والإبداعية.

في واحدة من أروع قصصه "حفنة تمر"، نجد شابا اكتشف لتوه اضطراب وتوتر العالم من حوله دون أن يعي ذلك الأمر، واكتشف لأول مرة أن أحب الناس إليه (جده) من كان وراء دلك هنا جوهر المسالة، حيث السؤال الأخلاقي الذي رسمه الطيب صالح بدقة فائقة، بل وكرسه ككاتب عالمي سوف يتردد صدى أسئلته لأجيال قادمة.

(جمال محجوب – صحيفة الجارديان ـــ لندن ـــ ٢٠ فبراير ٢٠٠٩)

(٧)

وإذا أردنا أن نركز سيرة حياة عبقري الرواية العربية في نقاط قبل أن تأخذنا هذه النافذة السحرية إلى عالمه، فيمكن تتبعها كما يلي:

ولد الطيب محمد صالح أحمد في كرمكول قرب الدبة عام **١٩٢٩**، تلقى تعليمه الأولي في "كتاب" قريته البسيطة.. وشارك والده حياة الفلاحين من رعي الأغنام والزراعة وجمع التمر.. وتخرج في المدرسة الثانوية الوحيد في منطقته.. وجاء إلى الخرطوم، ليلتحق بكلية جردون التدكارية (الزراعة) – لاحقا جامعة الخرطوم – لكنه لم يكمل الدراسة بها لأنها لم تناسب ميوله، وانصرف إلى العمل مدرسا في صفوف المرحلة المتوسطة (الإعدادية)، سافر إلي لندن عام **١٩٥٢**، نال

شهادة في الشئون الدولية في إنجلترا.. أي قبل استقلال السودان عـــام ١٩٥٦.. تلك اللحظة في لقاء الغرب ظلت تسم حياتـــه و إبداعـــه الروائي، على الرغم من أن تصويره للقرية في شمال السودان ظل تيمته الأثيرة في معظم أعماله السردية من خلال ترجمة سردية، واقعية أحيانا وتقرب من لا معقول في أحيان أخرى، وهذا الفعل تحول بـــه ذلـــك المكان بالغ التواضع إلى مكان كوني.

ظل بعيدا عن وطنه معظم حياته عمل في هيئة الإذاعة البريطانية أكثر من عشرين سنة حتي صار رئيسا لقسم الدراما، وفي عام ١٩٧٤ قدم استقالته من تلك الإذاعة التي كانت أكثر الإذاعات انتـــشارا في العالم العربي.. سافر بعدها لدولة قطر.. وشغل منصبا رفيعـــا بـــوزارة الإعلام والثقافة القطرية.. ثم عمل ممثلاً لليونـــسكو لمنطقـــة الخلـــيج العربي، وعمل أيضا مديراً إقليمياً في منظمة اليونـــسكو في بـــاريس.. وكانت لندن هي محطته التي يعود إليها دوما التي تـــزوج فيهـــا مـــن الأسكتلندية جوليا ماكلين عام ١٩٦٥، وأنجب ثلاث بنات هن زينب وسارة وسميرة ، وحياته مثلما هي كتاباته، لم تكن سوى محاولة لـــردم تلك الهوة فيما بين شرق وغرب.

(٨)

بين دفتي هذه الأوراق ومضات من سيرة ومسيرة "الطيب" ذكرياته وأفكاره ورؤاه استخلصناها من استفسارات وأسئلة كانت حصيلة لقاءات

عديدة في أكثر من مكان، وأكثر من زمان عبر رحلة حياتــه الكاملــة في محطاقما المختلفة، ومن هنا كان تجوالنا المبحر معه.. حول تجليه واعترافاتــه وآرائه في قضايا كثيرة قمم الأدب والمجتمع العربي كمــا قمــم الــسياسي والإبداعي قد تكون وافية وإجمالية لإشكاليات المجتمع من حوله، يسرد فيها وجهة نظره من خلال خبرة تراكمية ومعرفية جمة اكتسبها من اطلاعاتــه الواسعة على الأشياء، وعلى الخريطة الإبداعية للعــالم العــربي وانــشغاله بقضايا إنسان العالم الثالث، الذي آمن به وعبر عن همومه وآلامه وأفراحه وإحباطاته.

كذلك عندما غيبه الموت عن عالمنا (١٨ فبراير ٢٠٠٩) وسافر معه إلى عالم آخر قدم أصدقاء "صالح" شهادات إنسانية عن قــرب منــه لمــن عاصروه في طفولته وصباه وشبابه وكهولتــه ومحطاتــه الإنــسانية ورؤاه وفلسفته في الحياة والكتابة.. اخترناها بعناية وانتقاء حتى نقــدم الطيــب بحقيقته كما هو وكما أراد أن يكون ويعيش.

مَنْ من عشاق الفن الروائي لا يعرف الطيب صالح؟ ذلــك النبــت الأصيل الذي خرج من حوض النيل، مثلما جاء مع محجوب الــزعيم وود الرواس وعشا البايتات والإمام والدومة والجد الذي لا يشيخ.

(٩)

"شغلتني الأصوات المبهمة التي تنبع من النهر (النيل)، لأنني أسمعهــا من مسافة ألف ميل، فيها أصداء الأودية البعيدة والشلالات، وأذعنــت زمناً للغط الموجات الصغيرة تعدو بلا كلل من شاطئ إلى شاطئ، ومن آن

لآن كان النهر، هنالك في القلب عند ملتقى التيارات، يعوي عواءه القديم، وبينما أنا كذلك إذ بصوت إنسان إلى يميني كأنه يخاطب النـــهر والفجـــر الذي قرب يطلع: الإنسان يا محيمد الحياة يا محيمد ما فيها غـــير حـــاجتين اثنين الصداقة والمحبة، ما تقولي حسب ولا نسب، لا جاه ولا مال ابن آدم إذا كان ترك الدنيا وعنده ثقة إنسان واحد، يكون كسبان".

خالد غازي



بوابة أولى

أوراق في محطات الزمن

(١)

أصابتني لعنة الهجرة إلى الشمال

- الكاتب مثل البهلوان.. بطل في تحريك الشخصيات.
- الرغبة في التعبير هي الحافز الرئيسي للكتابة.
- تحولات عميقة تحدث في المجتمع ولا نستطيع أن نفهم مراميها.

عرفت النيل منذ ولادتي، عشت على ضفافه في القاهرة، ولم تمنحني ظروفي فرصة الرحيل إلى منابعه في الحبشة "إثيوبيا"، فتمنيت أن أشهد قوامه بعد اندفاعه المتشظي..

تمنيت أن أذهب إلى "عطبرة" في جنوب السودان لأشهد الصدام الأبدي بين النيل الأزرق والنيل الأبيض.. الصدام الذي أراه عناقاً، لا يحطم ولا يتجاوز.. لكنه يتحد ليشكل نسقاً مستقراً، قوامه الحب والعطاء، يعيش على ضفافه الملايين من البشر..

ومنذ كنت صبياً أرى أن هذه الأمنية ما هي إلا أسطورة لا يحققها سوى كائن أسطوري أيضاً.. وقبل أن أصير كهلاً تحولت الأسطورة إلى واقع عندما قابلت الكائن الأسطوري على الورق ثم التقيته في الواقع.

كان اسمه "الطيب صالح" يحمل طمي النيل، ورائحته تشبه رائحة الأرض العطشى عندما يزورها النيل.. وشيئاً فشيئاً، وبعد شعوري بأنني أمسكت بالواقع - الذي يشبهني وتمنيت أن أراه - عادت صورة الأسطوري تطغى على المكان والزمان، لكنني هذه المرة لم أترك الأمنية تذهب بعيداً فثمة وشيجة.. أو لعلها وشائج أسعفتني لأنقذ حماسي من

بضعة ترددات سرعان ما توارت تحت شروق ساطع لمشروعية الرحلة مع وإلى الطيب صالح.. رحلة يتصدر زادي وزوّادي فيها الإعجاب لمن أرتحل إليه ومعه.

وهناك الكثير الذي سنستضيفه أو يستضيفنا في محطات العمـــر، في هذه المحطات التي ســوف تـــترل عنـــدها حقائـــب الـــضيف وأوراق المستضيف.. وأنا بوسعي أن أقول الكثير عن الطيب صالح.. بمقدوري أن أمضي لأشيد عالمه من جديد.. أرتب سنوات حياته يوماً يوماً.. ســاعة ساعة.. برؤية ناقد.. ومشاعر متذوق لفصول وسطور قصصه ورواياته.. يمكنني أن أنهل من شخصياته سفراً آخر أرتب فيه بيتاً جديداً، أبني صرحهُ بمقام يليق بحياته الغنية بالتفاعلات والمعطيات، وعديد من الاســتلابات، ليس ذلك أمراً عسيراً.. أو ليس هنالك من كتب عن شوامخ مـــن غـــير زمنهم دون أن يلتقوا بهم فكانت وشائج المعرفة بين الجانبين قد تنامـــت بفضل ما أنجزه وتركه أولئك الشوامخ من كتابات ورؤى.

فكيف هو الحال حينما يكون الطيب صالح من أبنـــاء عـــصرنا؟ وكيف ستكون إعادة الكتابة عنه ومعي مزيد زاخر من حواراتـــه الـــتي تؤسس من جديد بإعادة اكتشاف كتاباته والتجوال نحو آفـــاق وزوايـــا دنياه الإبداعية وسيرته الحياتية؟ إذن فنقاط اللقاء – دعوني أطلق عليهـــا الوشائج مرة أخرى – إنما هي كثيرة.. فهو أديب عربي تـــربطني معـــه ارتشافة ماء شربناها من مياه أهم حضارتين إنسانيتين.. واحدة مع النيل وأخرى مع الفرات ودجلة.. تربطني معه الغربة والبعد عن قريتي هناك من

أجل البحث عن كينونة هذا الإنسان العربي الذي نزف دماً.. واستلب زمناً تحت قيد استعمار إنجليزي واحد.

قلت أجل.. لابد أن هنالك روابط، وهي روابط فاعلة، غير مفتعلة، وهي مواسم دائمة لا مؤقتة، ومن هنا تكون شدة وحرارة الكتابة.. هل قلت الكتابة..؟ لا، وإنما الإبحار.. والتجذر.. والغوص نحو عمق عالم يعيش في ذاكرة هذا الروائي، عالم منح بعضاً منه في روايات جعلت اسمه يقف هنالك، في أعالي طود الرواية العربية، بمجرد أن نشر روايته الأولى التي لن تذبل (موسم الهجرة إلى الشمال).. فكان سباقاً في الكشف والتفتيش – الذي مازال مستمراً ويتفاقم – عن هوية العربي أوالإنسان الجنوبي، وهو الضائع في الشطر الشمالي من أرض المعمورة.. وتلك هي المعضلة، والعصب المستفز، والإشكالية الفكرية، التي تمثل اليوم تأسيساً قديماً وحاضراً ومستقبلياً في أول لوحٍ من بانوراما الصراع الجيبولتيكي والديمغرافي والعرقي بين دول الشمال الصناعية وبلدان العالم الثالث أو النامي في الجنوب.. وبعد، فإنها المعضلة التي تؤرق بديمومتها التي لابد أن تحد في ذاكرة المبدع في أقل طموح وتقدير.

وإذا كانت الذائقة الإبداعية للطيب صالحة وفية ومخلصة ومفتونة إلى أقصى حد في جعل أحداث رواياته تقضي وتتشكل كيفما هو الواقع دون أن يتسلط عليها بقمعية تفقدها خصوصياتها.. فإن ذلك يعني بكل وضوح ودقة أن تلك الأعمال امتلكت سر تميزها، لأنها جاءت أصيلة دون تلاعب أو إضافات زخرفية يمكن أن تغتال على حين فجأة نكهة

عفويتها من حيث الأحداث وجعل الزمان والمكان هما اللذان يحضران في قرية منسية في أقاصي السودان، أوفي أحد شوارع أوروبـــا.. وإذا كـــان الشمال لا يحضر إلا كحتمية في موسم الهجرة إلي الشمال.. فإن الأمكنة الهامشية القصّية التي تمثلها بعض أبنية الطين والخيام في الجنوب ســتكون دائماً المنبع.. هذا هو ما يتأكد في تلك الرواية ويتسع مداه ويزداد عمقه مع رواية (عرس الزين) ورواية (مريود) ورواية (بندر شاه).

أو لم يقل أحد الروائيين أن العالمية تبدأ وتنطلق من قريتي.. !بيد أن عالم الطيب صالح لم يتوقف عند ملامح وطقوس وعادات وزقاق القريـــة السودانية التي تتشابه كثيراً مع قرى وأرياف مازالت منتـــشرة في بقـــاع أخرى من خريطة الوطن العربي، إذ أضاف هذا الروائي عالماً آخر يفتقـــر إلى العفوية التي تفيض بها تلك الينابيع.. القرى.. إنـــه عـــالم يفكـــر في افتراسها وقلعها من الجذور.. لذلك، وأنا أطوف في العالم الشمالي الذي رمتني فيه سطور الطيب صالح كنت أتحسس موقع قريتي الـــساكنة مـــع وجيف وخلايا قلبي.. ومن المحتم أنه ذات الوجيف وذات الحرص والعشق الذي عاش ويعيش مع الطيب صالح حينما كان يكتب في فترة زمن ماضٍ عن الإنسان الجنوبي التائه في ذلك العالم الشمالي. أليست تلك وشـــيجة كبرى.. وبعد.. ألم يحن الوقت للشروع في الرحلة.. رحلة في، ومع عالم الطيب صالح.. حيث كان هنالك.. في لهيب وسخونة الجنوب وزمهرير شتاء الشمال.. أظن أنه حان الوقت تماماً.

المطالبة بالشروط

يقول "الطيب" عن هذا الصراع: "الصراع ما بين الشمال والجنوب لايزال مستمراً وإن تغيرت أشكاله، فالتحدي الآن هو بين الجنوب المتخلف تكنولوجيا والشمال المتقدم، هو تحدٍ اقتصادي وثقافي وإعلامي.. وبين الاثنين فجوة كبيرة تصل إلى مئات السنين وهي تحول الجنوب إلى سوق استهلاكية لا إرادة لها ولاوعي.. والجنوب مطالب بشروط عديدة لخلق توازن في هذا الصراع الأبدي، منها أحداث مؤسسات ديمقراطية حقيقية تديره، ووضع مشاريع تنموية، لابد أن يلتزم هذا القرار الذي يهدف إلى تحقيق تنمية اقتصادية ويبتعد عن القرار السياسي الذي يكون خاطئاً في أغلب الأحيان.. والصراع بين الشمال والجنوب ليس على مستوى الدول وإنما على مستوى الأشخاص، فهو يبرز وجود عقليتين مختلفتين في كل شيء، الجنوبي الرومانسي الذي يفتقد الثقة بالنفس، والشمالي العقلاني المعتد بنفسه والصريح جداً.. والعلاقة بين الرجل والمرأة تكشف أبعاد هاتين العقليتين".

- قلت للطيب صالح: هل يمكن العودة لرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) لنحدد وفقها تلك العلاقة..؟

قال: لو رجعت إلى (موسم الهجرة إلى الشمال) وهي "رواية قضية" بمعنى ما.. وليست رواية أفكار، نجدها تطرح مسألة الصلة بالغرب على نحو شديد من الالتباس، يبدو في لحظات من الرواية وكأن هذه العلاقة حدها الوحيد هو الصراع الدموي.. إذا راجعنا سيرة (مصطفى سعيد) في

لندن نجد أن إغواء مصطفى سعيد للغربيين والغربيات إغواء لا يرتوي إلا بالقتل.. فثمة شهوة حتى الموت، ثم هنالك عودة هذا الرجل، وانطـواؤه على نفسه، بحيث يبدو هذا كله وكأنه إشعار أو أساس دعـوة انبعاثيـة للعودة إلى الذات.. وإن يكن هذا – لحسن الحظ – ليس قطعيـاً علـى الإطلاق، فوجود مصطفى سعيد واختفاؤه وغيابه يترك الأمر مفتوحاً على عدد كبير من الاحتمالات، هل القصة تحمل معنى من المعـاني فلـسفة قومية.. أو محاولة لفلسفة قومية.. خاصة أن هذا الأمر في ذاك الوقت كان شاغلاً للمثقفين العرب.

– هل كان يعني ذلك أن هنالك رؤيا قومية أفرزت نفسها على الـسطح بعد إنجاز تلك الرواية..؟

يقول الطيب: لا أحب أن أزعم أنني صاحب فلسفة قومية.. ولكن من حياتي في لندن، ومراقبتي للأوربيين وحكم الإنجليز لنا حوالي سـتين عاماً، ثم التغلغل في الحضارة الأوربية والفكر الأوروبي، وجدت أن هنالك مشكلة في علاقتنا فيما يسمى الحضارة الأوربية، الـتي هـي الحـضارة الأوربية الغربية في واقع الأمر.. وإن كنت لا أستثني الروس أيـضاً مـن هذا.. إذ أتضح أخيراً أن الروس هم مما يسمي العالة الأوروبية.

من هذه النتائج والتجارب وصلت إلي نتيجة وافتراض بأن علاقتنا بالغرب ليست علاقة رومانسية، وكان هذا الشائع في روايات (عـصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(الحي اللاتيني) للأسـتاذ سـهيل إدريـس وغيرها، وهي روايات جميلة، لكن الصراع لم يكـن موجـوداً بـالمعنى

الحضاري، فكتبت (موسم الهجرة) وأذكر ذات مرة أني سألت – جـــاك بيرك: "أنتم مهتمون بكل شعوب الأرض، مهتمون بالـــصينيين والهنـــود وإفريقيا السوداء.. فما مشكلتكم مع العرب.. فقال لي إن العرب قريبون جداً منا ومختلفون جداً عنا، هنالك العلاقة المتنازعة، وأنا شخصياً لا أؤيد أن ينتهي ذلك بالحرب والدماء.

– لكن قبول الآخر وروح التسامح ألا يمكن أن ينهيا للأبد مرحلة الحرب والدماء..؟

الحرب والدماء موجودان في تاريخ الصراع مع القوي الأوربية على امتداد العالم العربي.. وكنا نتمنى أن يكون هذا قد انتهى.. ولكن الأمـــر تعقد بوجود إسرائيل طبعاً، وأصبحت احتمالات الصراع قائمة إلى أجل غير معلوم.. وطبعاً هذه الأيام يتحدث الناس كثيراً عن الآخر.. وقبـــول الآخر.. الحضارة الأوروبية بالتأكيد في أوج الاستعمار – كمـــا يحـــدثنا التاريخ – لم تكن تطيق الآخر، معروف أن الاســـتعمار الأوروبي أبـــاد شعوباً بأسرها، الإنجليز مثلاً أبادوا سكان تزمانيا وكادوا يبيدون ســـكان أستراليا (الأبوليجين) ثم هناك قصة الهنود الحمر في أمريكا.. هنالـــك إذن عدم القدرة على التعايش مع إناس ينظرون إلى الكون بشكل آخر.

– قلت: تتفق آراء نقدية بأن" "موسم الهجرة إلى الشمال" هي من أفضل ما كتبه الطيب صالح..

قال:كل كاتب تصيبه لعنة رواية واحدة تلتصق به وتبقى دائماً في ذاكرة القارئ وكأنه لم ينتج أو يقدم غيرها.. حيث يحدث نـــوع مـــن

الشهرة للعمل الواحد، وتبقى هذه الشهرة ساطعة طوال حياة المؤلف وحتى بعد مماته.. وبالنسبة لي تجاوزت موسم الهجرة إلى الشمال وأصبحت في مرحلة أخرى قد تكون أكثر بعداً وتعمقاً في مجال الرواية.. لقد كتبت بعد موسم الهجرة (ضو البيت) و(مريود) وهنالك قصة اسمها (يوم مبارك على شاطئ أم باب) وغيرها من الكتابات.. إذن أنا موجود وسأبقى أكتب وعندي الكثير من الأفكار التي يجب أن أكتبها ولكن في الوقت الملائم والظروف المناسبة.. وأعتقد أن لكل عمل جوه الخاص به، فالذي ظهر في وقت معين من تاريخ الأمة العربية واكتسب نوعاً معيناً من القبول وأصبح له صدى واسعاً كانت له أسباب.. فحينما نشرت (موسم الهجرة إلى الشمال) في عام ١٩٦٦ ثم حدثت النكسة والهزيمة الكبرى عام ١٩٦٧ جاء انتباه الناس إلى هذه الرواية ضمن روايات أخرى، والحق يقال أني لستُ الوحيد الذي برز في ذلك الوقت لأجل ذلك السبب.. مع أن هذا السبب لا يزال موجوداً بدرجات تقل وتكثر حسب الظروف، ولكني حالياً لا أظن أن هذا العمل هو أهم ما كتبته.

- قلت: هذه الرواية استفزت القارئ والناقد العربي.. ما الذي استفزك من ردود أفعال حولها..؟

قال: هذه الرواية مرت بمراحل كثيرة.. فقد منعت في بعض البلاد ثم أفرج عنها ثم منعت، والغريب في الأمر مثلاً في بعض البلاد، يقولون إن طالبات في جامعة من الجامعات شكون بأن الرواية إباحية.. وهن طالبات في قسم اللغة الفرنسية أو الإنجليزية.. حسناً أذا حدث ذلك في الأدب

الفرنسي وهو زاخر.. فكيف أفهم من شخص مثلاً لا يريد لابنته التعرف على ما هو موجود في الأدب الفرنسي ويلحقها بقسم اللغة الفرنسية.. هذه أمور كلها محيرة.. ولا منطق لها.. وهي أعراض تحولات عميقة تحدث في المجتمعات.. انتقالات حضارية لا نستطيع أن نقيمها أو نفهم مراميها.

- وقيل إن الرواية انتقامية - أي أنها تريد أن ينتقم الإفريقي من الغرب من خلال غزوه لنسائهم..

هذا ما تزعمه الشخصية الرئيسية وما يزعمه بطل الرواية.. وقضية الاستعمار وارتباطه بالجنس قصة طويلة كتب فيها كثيرون ومنهم (فرانز فانون) وهو كاتب أسود، كان طبيباً نفسياً من جزر المارتنيك، واشتغل في الجزائر أيام الصراع مع الاستعمار الفرنسي.. وانحاز للثورة الجزائرية.. وأصبح فليسوفاً لها، والجزائريون يقدسونه ويحترمونه، وكتبه نالت شهرة عالية ومنها كتابه (معذبو الأرض) الذي شرح فيه ما يفعله الاستعمار في الأمة المستعمرة فيقول.. "كل أمة لها فحولة وإذا سيطرت عليها قوة أخرى تكون كأنما انتزعت فحولتها أي أخصيت الأمة، والاستعمار هو إخصاء للأمة".. وأنا فهمت هذه النظرية وقرأت فيها كتباً كثيرة.. الجنس في موسم الهجرة موظف بهذا المعنى.. وليس بمعنى الانتقام من الغرب بالجنس.

ومن الطبيعي أن يكون الكاتب موجودا في أعماله.. وبالنسبة لهذه الرواية فهنالك شبه ظاهري بيني وبين الشخصية الرئيسية (مصطفى

سعيد)، لكني لا أشبهه بتكويني الأساسي.. أحداث الرواية عالم وهمي لكني في الرواية أرّختُ لجيل كامل من السودانيين ذهبوا إلى إنجلترا ودخلوا في صدامات.. ولعله جيل كامل من العرب.

- وبالنسبة للشخصية السودانية في السودان حينما عالجتها في ذات الرواية بعد عودة بطل الرواية للوطن..

لقد عشت طفولتي في البيئة التي عاد إليها مصطفى سعيد.. وهي منطقة في شمال السودان.. بيئة زراعية وبلاد نخيل.. في هذه البيئة كل واحد شيء خاص قائم في ذاته.. ولقد قلت مرة أن مشروعي الكتابي مستقبلاً أن أحوّل هذه الشخوص من هذه البيئة التي يسمونها فلاحين إلى شخوص أسطورية، مثلما فعل هوميروس في الإلياذة.. هذا طموح كبير جداً.. شخص يكتسب حجما أكبر من حجمه.. ولكن لو أخذنا شكسبير وأخذنا من شخوصه (الملك لير) أو (ماكبث) فهما شبيهان بمشايخ العرب عندنا.. الملك لير لم يكن أكثر من شيخ عشيرة لدينا في السودان.. أو في صعيد مصر.. شكسبير أخذ هذه الشخوص وأعطاها امتداداً في الزمان والمكان بحيث أصبحت قابلة للاستمرار في المخيلة، ويبدو أنني لم أكن بحجم هذا الطموح، مثل من يحمل رسالة لكنه ناء بحملها.. لكن فيما بقي من العمر ربما أفعل شيئاً.. وأظن أنني فعلت شيئاً من هذه المحاولة الأسطورية في روايتي (ضو البيت) و(مريود).

– قلت له: بما تمتلك من مخزون التجارب الحياتية ومخزون القراءات.. هل تكتب نفس الرواية التي كتبتها، منذ ثلاثين عاماً، وهل تكتبها بنفس المنطق ونفس الطريقة؟

لا أظن، بالمناسبة يمكن أنا أُسأل كثيرا.. لماذا لم أكتب رواية منذ زمن؟ ولعلك الآن أعطتيني فكرة ما خطرت في بالي، زمان وأنا أرد على هذا السؤال لعلى الآن استدعى الكثير من الأفكار بسبب التجارب الحياتية وفي روايات كثيرة دارت في بالي ثم أهملتها لأنها لا تستحق أن تكتب.

– أهملتها بحكم مشاغل الحياة أم بحكم الصحافة التي تأخذ جزءاً كبيراً من وقتك؟

أنا لست صحافياً، وكتابة صفحة في مجلة، ليست صحافة، أنا لا أستطيع أن أتبرع بالوقت، عندي وقت لكن أعتقد أنك تستدعي أشياء كثيرة أفكر أن أكتبها ولكن لا أرى لها أي قيمة، بمعنى أني أمارس وظيفة الناقد وهذا خطأ في الكتابة، الكاتب إذا كان لنفسه ناقد فهذا صعب جدا، المفروض أن تكون هناك تلقائية في الكتابة، لكني أنا أفكر دائما في أبعاد المسألة.

– هل تعتقد أن كاتبا جيدا لم يأخذ حقه على المستوى النقدي سوف يأتي من ينفض التراب عنه في يوم من الأيام؟

بدون شك لأنه لا يوجد في الدنيا شيء له قيمة ويظل مقبورا باستمرار فمثلا أبو العلاء المعري "شاعر العظماء" في تاريخ الشعر

العالمي، نجد أناسا يقولون إن أبي العلاء فيلسوف، وفيلسوف معناه أنهم لا يريدون أن يواجهوا شاعريته، الآن نعلم أن أبي العلاء شاعر كبير جدا.

- قلت له: الأوضاع السياسية في الوطن العربي وما يعانيه الكتاب ما أثره على مسيرة الأدب.. هل تعتقد أنه مبرر قوي لأوضاع يمكن أن تكون أفضل حالاً؟

قال لي: أنا أجيبك كفرد عادي وليس كشخص له حكمة خاصة، بالتأكيد لو أن بلادنا كانت حالتها أحسن ربما تكون أوضاع الأدباء أفضل، لكن أيضا من ناحية أخرى أحيانا ينتج أدب عظيم في حالات القهر وحالات الكبت من الناحية الإنسانية، ونتنمى أن تكون أحوالنا أحسن مما هي عليه الآن، ولكن صلة ذلك بالأدب قابلة للجدل!

- وجودك خارج السودان أو خارج إفريقيا.. إلى أي مدى أثر على شخصيتك الأدبية؟

بالتأكيد حدث تأثير فالإنسان المغترب ينظر إلى وطنه من بعيد والذي ينظر من بعيد يختلف عن الشخص الذي يعيش الحياة اليومية من حيث رؤيته للمزايا والمساوئ.

- قلت: هل الشخصية تستمر في الرواية بنفس الشيء الذي توقعته لها؟

قال: الكتابة هي مزيج ضد التخطيط، وأشياء ليست في الحسبان، والشخصيات نادراً ما تسير على خط رسمه الكاتب لها، ولعل هذا أحسن ما في الكتابة حيث إن الشيء يأتي دون أن تحسب له حساباً.

- هل تعتقد أن أدبك طرح أسئلة دون الوصول إلي إجابات؟

في نهاية الأمر، الأدب لا يقدم أي إجابات، لأن الأدب يثير القضايا ويحث الناس على التفكير فالقصيدة أو اللوحة الفنية أو الرواية لا يكون لها أي قيمة إلا إذا تفاعلت مع خيال الرائي والسامع والقارئ، ومفكر مثل جان جاك روسو كتاباته كانت هي السبب في قيام الثورة الفرنسية ولا أعتقد أن هذا صحيح، لأن الشاعر عندما يكتب قصيدة قد تحدث"انقلاباً"، ولكن في تراكم على مدى السنوات وليس لحظة وقتية.

وقد بدأ بعض الناس يفهمون الجانب الثوري في شعر المتنبي ويحسون بالجانب الساخر في أدب الجاحظ، إذن فالأدب خطر على المدى البعيد، خطر على الناس الذين يريدون أن يعموا أبصارهم عن الحقيقة لكن لا يوجد أدب يحدث ثورات بطريقة وقتية.

- قلت: ما اليقين الذي ما زلت تبحث عنه؟

قال: هذا السؤال صعب جدا!

- تحركت بالسؤال خطوة وقلت: عندما كتبت هل كنت تبحث عن يقين ما؟

أبدا، ما أظن أن الكتابة هي الحافز الأساسي، ولكن الرغبة في التعبير والمشاركة في الحوار، فالرغبة في التعبير هي الحافز الرئيسي.

- قلت: وماذا جنيت من وراء الكتابة؟

قال: هل تعرف البيت الشهير للمتنبي الذي يقول: "ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني.. بما أنا باكٍ منه محسود".. وهو هنا يقصد عناء الشعر،

لأن المتنبي عبقرية فذة فكان يحسده الناس على شيء هـــو يعـــاني منـــه ويتعذب منه، المتنبي كان يتعذب من أنه متفرج وأن عنده هذه الموهبة التي لا تجعله يقبل الأشياء كما هي، وكان لابد أن يفكر فيها ويرى إذا كانت تسير صح أم خطأ.

- هل الشهرة مزعجة بالنسبة لك؟

كوني اشتهرت فهذا يسعدني بدون شك وإن كان فيهـــا بعـــض المنغصات ولكن المرأ يقبلها كجزأ من طبيعية الأشياء.

- ما رؤيتك بالنسبة لانتاج الأعمال الأدبية سينمائيا؟

الكاتب يقدم الكتاب وهو بين دفتيه ويأتي مخرج سينمائي ويحولها إلي سينما،وهو بذلك دخل في منطق آخر ووسيلة تعبير أخري، ومعروف أن هناك مخرجين أقدر على فهم نوايا العمل ومقاصـــده والتعـــبير عنـــه سينمائيا، وهناك البعض الآخر ليسوا بمثل هذه الجودة، وأنـــا أظـــن أن الكاتب غير مسؤول عن ذلك ويجب ألا يلاحق ويضمن فقط أن المخرج قد فهم العمل على أي حال وبعد ذلك يصبح المخرج حراً فيما يفعل.

- قلت: إلى أي مدي أثر التصوف على أعمالك؟

قال: في شمال السودان توجد الصوفية.. وحدث في مرحلة التطور المدني اختلاف بين مصر وشمال السودان.. فأصبحتم أكثر تمدنا، وليس معـــنى هذا أنكم أصبحتم أفضل منا، ولكنكم أصبحتم في العيش أكثر تمـــدنا، وبعدتم قليلا عن المنابع الصوفية والقبلية، أما نحن فما تزال لـــدينا قبائـــل

وطرق صوفية، والتصوف هو تركيبتنا، الدين الإسلامي نفسه دخل عن طريق مشايخ الطرق الصوفية.

فالإسلام لم يدخل عن طريق الحرب كما في مصر وبلاد الشام، وإنما على مدى سنوات عن طريق المشايخ.. فأنا لا أتعمد توظيف التراث كما يقال، وإنما أنا أنظر إلى الناس لأنني أكتب عن الناس وعن بلدي وعن القرية وسلوك أهلها ونظرتهم للحياة.. فمثلا الناس تعتقد في الأولياء.. أنا ككاتب لا أتدخل وأقول هذا خطأ، ومن بداية عملي مثلا كتبت قصة قصيرة اسمها "جهمية واد حامد" عام ١٩٦٠تم "عرس الزين".

- قلت له:كيف ترى العلاقة الفعلية بين أبطال رواياتك أهي علاقة ندية أم حب.. وهل تختلف العلاقة أثناء العمل وبعد الانتهاء من العمل؟

قال: لاشك أن الكاتب موجود في أعماله، لأن الكاتب هذا منبعه، ولكنه ليس موجودا بمعنى أنك تضع أصبعك على الشخصية وتقول مثلا إن نجيب محفوظ هو محمد عبد الجواد.. هو مذكور في أعماله،كلها نظرته وفلسفته، الشخصيات في بيئة معينة، وبعد ذلك تفاعلات الشخصية مع البيئة تكون لها منطق يختلف مع ما يريده الكاتب.. فيصبح هنا دور الكاتب إلى حد كبير موضوعياً.. إنه بطل يحرك هذه الخيوط مثل البهلوان، فالعلاقة هنا علاقة معقدة ومركبة ولكنها ليست كما يتصور الناس.. فإذا أخذنا مثلا شاعر مثل "أبو نواس" فأنا أشك أن الهفوات التي زعم أنه فعلها قد فعلها في الحقيقة، وإنما هذا فن، وهو أوصل للناس أنه يعمل فناً كذلك المتنبي.. في الأرض الفن له منطق خاص، ومن هنا

جاءت دعوة بعض الناس أن الفن للفن، وهم في الحقيقة لا يقصدون أن أول من قالها، "أوسكار وايلد" وهو ما قصد أن الفن الأدبي يبعد عن الحياة.

- قلت: القصة القصيرة..هل تكون على علم من البداية أنها قصة قصيرة؟

نعم، فهناك فرق أنك ستبني بيتا من عشرة غرف وبيتا من غرفة واحدة..وأنا فعلت ذلك في قصص قصيرة اسمها "مقدمات"، وكتبتها في فترة مبكرة باللغة الإنجليزية.. وتعمدت أن أبعد اللحم كله وأترك الهيكل العظمي، والقصة تكون أقل من صفحة.. وبعد ذلك هناك نظريات حديثة في الفراغات بين النص، قصدت أن أكتب الهيكل العظمي فقط للقصة وبعد ذلك ترجمتها للعربية.

- الرواية العربية هل تعتبر رواية أصيلة أم أنها امتداد ومجاراة للرواية الأوربية؟

من آثار الشكل الروائي هم الإنجليز على وجه التحديد، وعندنا في أدبنا، جانب من المحلية وهذا شيء ليس بغريب على العرب، ولكن توظيف الرواية، بمعنى أنها أصبحت وسيلة للتعبير من أفكار معقدة عوضه الأوروبيون بحكم الدرجة التي وصلوا إليها من التطور الحضاري، نحن عندنا في أدبنا أشياء متقدمة جدا.. ويحيرني العقل العربي المعاصر، فدائما نحاول أن ننسب الأشياء إلى أناس آخرين، ولا نريد أن نصدق أنه ممكن أن يأتي واحد سوداني، أو مصري بشيء متقدم، أنا أقصد، إذا لم نحسن كتابة روايات فماذا نحسن، فهذه الأمور موجودة عندنا، وما نسميه

التراث الآن واسع جدا، الشعراء أنفسهم يقللون من شـأنه، وقـالوا إن الشعر الجاهلي "من القصيدة العمودية" ليس متقدماً، قلت لماذا؟ قـالوا لا توجد وحدة عضوية، أظن والله أعلم أن هذا ناتج عن عدم ثقتنا بأنفسنا.

– قلت: بالنسبة للأدب الإفريقي.. ما رأيك في أثر الاسـتعمار عليـه.. وهل استفاد الناس من فترة ما قبل الاستعمار.. وهل حصل نـوع مـن التكامل بين الأدب العربي والإفريقي؟

قال: الاستعمار عموما كان نعمة ونقمة لأن فيه فوائد ومـصائب، فوجود عنصر أجنبي في بلد ما يولد طاقات لمحاولة التخلص منه، الأمـر الذي يجعل الأمة متحركة، تعلمنا لغات أجنبية، والأخوة في إفريقيا تعلموا فرنساوي وإنجليزي، البعض منهم أصبحت اللغات الأجنبية بالنسبة لهـم هي الأم، ولم تعد عندهم لغات متطورة للتعبير عن الأدب والفن، وهـذه مشكلة كبيرة أن واحداً من إفريقيا يكتب اللغة الفرنسية إلى أي حد هو إفريقي أو إلى أي حد هو فرنسي، وأنا أظن أن هذا يعتمد علـى نزاهـة الكاتب نفسه، هو لا يكتب لمجرد أن يصبح شـهيرا في فرنـسا، لكـن الإنسان يعبر عن أشياء حقيقية من بيئة باللغة الأوروبية، فنحن دخلنـا في أزمات خصوصا على المستوى السياسي، وأظن أنه سيظل الأثر سلبي لمدة طويلة إلى أن تستقر الأمور، ونحن نقبل اللغات هذه كأدوات الآن، الآن في السودان هناك رد فعل ضد اللغة الإنجليزية، إنهم يقولون إن هذه اللغة هي لغة الاستعمار، الاستعمار قد انتهى منذ خمسين عاما تقريبا، وهـذه اللغات مجرد وسيلة أو أداة يمكن الاستفادة منها شأن الكثير من الـدول

الأخرى، فأنا لست من الذين يقولون "لازم نتخلص من اللغات الأجنبية" بالعكس.

- سألت الطيب: الرمزية في الكتابة، وأفكار الصراع بين القديم والحديث.. ما رأيك فيها ؟

أجاب قائلاً، الرمزية أسلوب في الكتابة، فهناك أناس يكتبون بطريقة رمزية، وهناك أناس يكتبون بطريقة مباشرة، ولو أن بعض الناس يقولون إن الأدب كله مجاز، وطالما هو مجاز إذن لماذا دخلت في موضوع الرمز، أنا منذ بدأت أكتب وأنا أميل إلى الرمزية.

(٢)

أنا عابر سبيل حياتي كلها صدفة

– ألغاء الزمن فتتحول الأشياء إلى أسطورة!

– في "أصيلة".. المكان ينمو وتكون له صيرورة.

– لبنان والسودان وجهان لعملة واحدة.

– أعترف بأن كتاباتي تعاني من الانفصام.

الحوار مع الطيب صالح لا يحتاج إلى سؤال وإجابة، إنما مداخلات ليست سهلة، فعالم "الطيب" ثري جداً، رغم أن إنتاجه نادر جداً، وفي هذه المحطة يتداخل الزمان والمكان..

تتداخل الكلمات، نحن نتحدث عن كاتب حقق ذاته، ووصل إلى درجة من الإيمان بحياته.. درجة ليست هي اليقين التام، لكنها - من وجهة نظرنا - حلقة من حلقات الصوفية الكاملة..

وبقدر ما تثيره روايات الطيب صالح من جدل حول الذاتي واللاذاتي.. الخاص والعام، نحاول أن ندفعه إلى جزء من حياته الخاصة.. تلك الحياة التي يراها هو عكس ما نراها نحن.. يراها لا تستحق التدوين، ونراها حافلة بالمنافع وتستحق التدريس وليس التدوين فقط.

في هذه المحطة من أوراق الزمن.. نبحر معه للكشف عن الجذور.. جذور القلب والرحلة.. جذور البذور.. أو بذرة البداية التي نمت إلى أن صارت نخلة.. نعم نخلة.. "نخلة على الجدول".. و(نخلة على الجدول) كان عنواناً لأول قصة ينشرها الطيب صالح عام ١٩٥٣ وهو العام نفسه الذي وصل فيه هذا الروائي إلى لندن، حيث ستبدأ في هذه العاصمة الانقلابة الجذرية لحياته كلها.. تلك الحياة التي جعلت الماضي أطلالاً فخمة يحن

إليها لينهل منها أبدع صور رواياته وقصصه.. حيث يلقي المستقبل الجديد بظله على ماضٍ عتيد لا يسكن في الذاكرة.. وهكذا يكون الفارق بليغاً وشاسعاً بين رؤيا الكاتب لمفردات الحياة السودانية البسيطة حينما لم يغادره.. وبين ذلك الشاب الأسمر الذي عاش بين سحب وشتاءات لندن حيث يأتي استذكار الوطن عن بعد جغرافي كنوع آخر من الكتابة.

ولعل العودة إلى قصة (نخلة على الجدول) ستميط اللثام عن خبايا كثيرة، خاصة فيما يتعلق بنقاء الأجواء من تلوث العواصم الصناعية الأوروبية.. مكاناً.. وشخوصاً.. ودوافع.. ففي أول قصة كان قد نشرها الطيب صالح.. وهي موضوع كلامنا يأتي كل شيء سودانياً صرفاً.. ففي القصة تتجلى الأحداث في هيئة حوار بين صاحب النخلة التي على الجدول وهو الشيخ (محجوب) وبين التاجر (حسين) الذي أراد أن يدفع عشرين جنيهاً ثمناً لهذه النخلة.. وهذا المبلغ كان مغرياً بالنسبة للشيخ، خاصة وهو يحتاج لشراء أثواب لابنته وزوجته وتسديد دين عليه.. وكانت الحيرة بين أمرين بالنسبة للشيخ هل يبيع النخلة التي أثمرت بعد أن زرعها منذ خمسة وعشرين عاماً.. أم يبقى عليها..؟ لنقتطف مقطعاً من القصة يدلل على شيء من الأسلوب الذي كان يكتبه الطيب صالح قبل ستة وأربعين عاماً.. حيث يشرح القاص بحس رومانسي ردود فعل سعف النخلة التي ترفض أن تباع.. "هكذا أخذ يوشوش، ويتعارك ويتلاطم، كغريق يطلب النجاة، وبدت النخلة لمحجوب في وقفتها تلك رائعة وأجمل من أي شيء في الوجود".. وعند ذاك تكون النخلة ليست مجرد نخلة طالما

أن لها قولاً.. وموقفاً.. إذ عند هذا المعنى الذي يقف عنده القاص تكون للنخلة أبعاد أهم.. وأبلغ.. وبالطريقة التوفيقية الجاهزية التي كانت تعــم أساليب كتابة القصة القصيرة في الأربعينات والخمسينات تكـــون نهايـــة القصة.. إذ يأتي الحل من الابن (حسن) الذي يبعث لأبيه مبلغـــاً نقـــدياً وحقيبة ملابس للأسرة، حيث كان الأب يعمل في مصر.. وتقفل القصة بعبارة ختامية – يفتح الله.

"العلامة الأولي" : تلك القصة القصيرة الأولى له.. هل قررت منذ البداية أن الرمز هو علامة أولى في كتابات الطيب صالح.. هذا بعد ما قـــدم في أعمالٍ لاحقة صورة أخرى للرمز.. ليس هنالك بمقدوره أن يجيب علـــى ذلك وبدقة.. إلا الكاتب نفسه.. حيث يقول: "لاشك أن الرمز يوجـــد بنسب مختلفة، وذلك حسب الظروف والتناول، لكني أرفض أية تفسيرات حول إنتاجي بخصوص أنها ترمز لشيء ما أو شيء محدد، الرمز عنـــدي شيء مدفون مكنون غير ظاهر بالمرة.. شيء يشع إشـــعاعات غامـــضة متضاربة، بحيث لا أربك القارئ أو أجعله مشتتاً أو يعيش في غمـــوض.. بل العكس.. أجعله يغوص معي ويعيش بسلاسة وخفة ويتحرك كيـــف يشاء، ويقدر ويتصور العمل بحرية، ومهمتي هي أن أخدم العمل بكـــل أدواتي الفنية والأدبية وأجعله مقنعاً كي يتناوله القارئ ليعيش فيه.. وهناك نظرية نقدية حديثة تقول إن القارئ يعيد صياغة العمل الروائي".

غير أن الرمز بقي حاضراً ولم ينفك عن أغلب روايات الكاتـــب.. وصولاً إلي روايته الأخيرة (ضو البيت).. التي أخذ الرمز فيها تأصيلاً آخر

مستنداً على تكثيف فكري أكثر عمقاً وبعـداً ومعـنى.. ولم يتوقـف الاستناد الرمزي عند بوابة الميثولوجيا والأديان والعـادات بـل مـضى ليستخلص إيحاءاته من نظريات الجدال الفكري والسياسي الحديث.

فالتراث الديني أخذ يعكس نفسه بوضوح لو اخترنا فصول روايـة (مريود).. إذ تحمل بعض رموز هذه القصة على مستوى الشخـصيات دلائل دينية واضحة برؤيا معاصرة.. فالرواية يتوافر فيها شبه مع قصة النبي يوسف من وجهة نظر حكائية.. أما الشخوص فإن التبادل واضح بينهم وبين شخصيات الرواية الدينية.. ولو شئنا أن نلمح إلى ذلـك الترميـز فلسوف يكون على النحو التالي.. مريود هو يوسف الأب بندر شاه، هو الأب يعقوب.. الاثنا عشر ابناً لبندرشاه أحد عشر ابنا للأب يعقـوب.. الابن يوسف والابن مريود.. الأول مستهدف بالقتل.. والثاني كـذلك، الفاعل الإخوة.. الفاعل الأبناء.. وفي (ضو البيت) يكون النهر في الرواية شكلاً أساسياً للرمز.. الذي يعني هنا الخصوبة.. ويحمل معنى (ضو البيت) ذاته رمز التجديد في كل شيء وهو اسم أطلق على شخص عادي دخل القرية بشكل غريب ومفاجئ وعاش فيها وتزوج منها ومـرت حياتـه بمراحل يشكل نهر القرية حلقاتها المغلقة.. حتى شعر الجميع بـأن (ضـو البيت) هو اسم كان موجوداً منذ الأزل.

تلك هي إيحاءات الرمز التي سرعان ما يكـشف عنـها الكاتـب بمباشرة واضحة.. وهكذا (لم يكن وجوده عبثاً فقد جاء به موج النيـل ليكون بشيراً بالخير والبركة ولقد حمل للأرض الخصوبة).. ذلك هو المعنى

الذي يحتويه الرمز.. وهو في واقع الأمر معنى يتكرر مع أعمال الكاتب ليأخذ الصورة والوصف نفسه.. الخصوبة.. الأرض.. العطاء.. فمنذ (النخلة) التي استعاض بها الكاتب كبديل موضوعي أو رمزي للأرض.. للعطاء.. بقي حوار الروح الإبداعي يعيد ذكره بين عقلية الكاتب وبين الأرض التي غادرها و لم تغادره.. ويبدو مؤكداً أن لغة الحنين لا تكفي لتكون هنا واقعية صرفة.. إذ إن الرمز يمنح حرية وفضاء واسعين لقول ما يشاء أن يقوله الكاتب.. ليس خوفاً من سلطة أو خشية من شروط.. وإنما ليحمل المعشوق – وطن، ذكري، مُثل – إلي حالة شبيهة بالتقديس، وهذا التقديس لابد أن يليق به الرمز.. أو أن الرمز هو الحالة المعبرة شمولياً وبأقصى دقة للمقدس.

ولكن السؤال.. هل بقي الرمز بالنسبة للطيب صالح مستمداً من الثقافة السودانية دون أن يعبر أو يتجاوز أو يتكأ على رموز من ثقافات أخرى؟.. وهل الدين هو الجانب الوحيد الذي راح الروائي يضع المرآة لحروفه مستذكرا إياه بين السطور.. مؤكداً على الهوية السودانية.

وعن ذلك يشير الطيب صالح في إحدي الحوارات التي أجريت معه.. "الآن يكثر الكلام عن الهوية، نحن في السودان لم نطرح قط هذا السؤال بل لم نكن نفهم الكلمة نفسها، الآن هنالك كلام كثير في السودان عن الهوية، لأننا نحس – على أي حال – أن الشيء الذي كنا عليه بدون أن نعرف ما هو بدأ يضيع من بين أيدينا لا أنكر نحن السودانيين في وضع خاص، نحن عرب، وربما سحناتنا وسماتنا لا تدل على

ذلك لكننا من الناحية الوجدانية ومن ناحية اللغة من أعرب العرب.. وأنا أكتب واقعاً موازياً للواقع آخذ جغرافيا المكان لكنه ليس المكان نفسه حتي يتاح لي الكتابة في زمن مبهم وأترك الأمور مفتوحة لفضاءات التأويل.. فعندما ألغي الزمن تتحول الأشياء إلى أسطورة، أو تسعى لخلق أسطورتها الخاصة، ففي رأيي أننا لسنا في حاجة لكتابة الواقع بحذافيره، وهذه ليست طريقة جديدة لكنني كتبتها بشكل يميزني عن غيري.

والموروث الشعبيي السوداني والخرافات التي ماتزال موجودة فيه مع وجود الكثيرين من المؤمنين بها إنما هي كلها جزء من الواقع الاجتماعي.. وكان من الضروري توظيف مثل هذه الموروثات والرموز.. فأنا ولدت في هذه البيئة وتشربت بها.. وأثر الدماء الإفريقية كان واضحاً لدى في كتابة رواية (نار الزغاريد) فجزء من عالم الكتابة عندي يأتي من انبهاري بالمدن التي أعيش فيها".

وإذا كانت أعمال هذا الروائي التي كتبها في أولى سنوات عمره الإبداعي، تتسم بشفافية رمزية واضحة.. فإن الغموض الذي أغرقت فيه رواية (ضو البيت) تبقى في حاجة إلى الوقوف عندها كثيراً.. فحيرة الكاتب.. وحيرة الشخصيات لا تنتهي إلا مع حيرة القارئ وهو ينتهي منها حاملاً معه عالماً يكتنفه الغموض المعبأ بالرمز.. سوى أن الكاتب لا يرى المسألة بهذا الشكل.. وهو يعبر عن هذا الغموض برؤية أخرى.

"هذه رواية ليس لها بداية ولا نهاية هي عبارة عن مشاهد ومواقف ولم تنته، ليس مثل رواية (موسم الهجرة إلى الشمال).. ضو البيت رواية

مفتوحة و لم تنته من نفسها، الموضوع طويل وأنا لم أفرغ منه بعد.. فأنا كتبت منها جزأين الأول اسمه (ضو البيت) والجزء الثاني (مريود).. ونلاحظ أن نهر (النيل) في الرواية هو عنصر أساسي.. وأنا وغيري من كتاب وادي النيل نستخدم هذا النهر كرمز".

هذا عن المكان.. ولكن على مستوى الشخصيات هل يكرر الأديب نفسه، ويشظي رموزه التي يرغبها هنا وهناك بين أبطال روايته.. ليوفر توازناً متكافئاً مع نفسه ومع شخصية معينة ما تكون دلالة.. أورمزاً له.. عن ذلك يقول الروائي.. "البحث عن التوازن الرمزي بين الكاتب كبشر عادي يعيش بين الناس، كونه بين واسطة للتعبير عن أشياء لعلها ليست متفقة مع سلوكه هو شخصياً هي بالفعل مشكلة.. لأن القارئ عادة يخلط بين الكاتب وبين شخصياته، وأنا أعاني منذ سنوات من هذا الأمر.. فالبعض يسألني ما علاقتي بهذه الشخصية أو تلك.. وقد قيل إن الفن يأتي من مكان غامض.. فلا نستطيع أن نعرف لماذا الشاعر قال هذا في القصيدة ولماذا خرجت هذه الصور.

ومن وجهة نظري أن المتنبي مثلاً لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي يعبر عنه في شعره ولا أبو العلاء ولا أبو نواس، حتى بعض النقاد يقعون في هذا الخطأ.. إنهم يأخذون النتاج الفني كوثيقة لشخصية الشاعر أو الكاتب، وهنالك مقولة شهيرة للكاتب الروائي الفرنسي الكبير – بروست – يدافع فيها عن بودلير، لأن بودلير قيل عنه إنه شاعر الشر نسبه

لديوانه (أزهار الشر)، حيث قال البعض إن هذه البذاءة ناتجة عنه فهو بذيء.. لكن بروست اختلف معهم وقال إن الشعر والفن يأتيان من شخص آخر، بمعنى أنني حين أجلس وأكتب رواية تأتي الرواية من شخص آخر.. فهو واسطة فقط".

بدايات الروائي الطيب صالح مع الشعر لم تستمر طويلاً.. مع أن له تجارب شعرية في مقتبل حياته الأدبية.. وتلك التجارب كان لها أثر كبير في تكثيف الصورة الوصفية في الشكل الفني للرواية.. ولقد كتب الروائي ثلاث مجموعات شعرية فاضت القصائد فيها بالرمز.. ولقد استخدمت مقطوعات شعرية مكتوبة بالعامية السودانية خلال النسيج الروائي لبعض كتاباته من أجل إضافة شكل متميز ومختلف عن كتابات غيره.. هل جاءت تلك القصائد لتعبر عن دلالات موحية لرموز معينة.. يقول عن هذا الافتراض:

"هذه المقطوعات الشعرية تدخل في نسيج السرد وتكمل الحكي الموجود قبلاً ولا يصح أن تتجزأ من هذا السياق، وهي مقطوعات دون شك حملت بالمعاني والرموز.. وفيها نوع من التجديد الذي يكسر حدة السرد العام.. هذه المقاطع أشبه بالجوقة في المأساة الإغريقية التي كانت في ذهني.. وأنا في مرحلة كتابتها كنت أكتبها بطريقتي الخاصة.. فأنا تجريبي في المقام الأول، أجرب جميع الأشكال والطرق وحتي الآن لم أصل للنص الذي أريد".

- أهو النص الذي يحوي على رموز وتكنيك كتابي مغاير..؟

يواصل قائلاً: "بعض النقاد الذين كتبوا عن رواية - سماء بلون الياقوت - عابوا استخدام هذه المقاطع الشعرية على النحو الذي وردت به وبعضهم أشاد بها.. وبالنسبة لي فهي نوع من التكنيك الكتابي المغاير، المكتوب على المنوال الشعبي.. الذي فيه من الإيحاء الكثير.. من كل ذلك قصدت أن تحاكي الرواية الموروث الشعبي خاصة بالنسبة للجزء الغائب منها.. أكتب واقعاً موازياً للواقع.. آخذ جغرافيا المكان، لكنه ليس المكان نفسه، حتي يتاح لي الكتابة من زمن مبهم وأترك الأمور مفتوحة لفضاءات (التأويل).. أنا أستمتع بهذه الكتابة ولا أعرف لماذا.. إلا أنها تخدمني بصورة ما.. فعندما ألغي الزمن تتحول الأشياء إلى أسطورة.. أوتسعى لخلق أسطورها الخاصة .. ففي رأيي أننا لسنا في حاجة لكتابة الواقع بحذافيره.. حياتي عادية، ليس فيها ما يثير إطلاقا، واستعراضها لا يفيد أحدا، ولا يؤثر في أدبي.. ومن أراد أن يتعرف على الطيب صالح - الكاتب فإن إنتاجي معروف وفي متناول الجميع.. أما الطيب صالح الإنسان فهو موظف يجاهد من أجل الحياة الكريمة".. ذلك جزء من حديث قاله الطيب صالح لجمهور من الأدباء في تونس عام ١٩٩٦ حينما تزاحمت عليه أسئلة كلها تهدف لمعرفة المزيد عن الحياة الخاصة لهذا الأديب.

وإذا كان هذا الروائي قد أكد في مناسبات عديدة بأن حياته الخاصة لا تشكل أية علاقة مع ما يكتبه وليس فيها ما يثير.. فإنه في الواقع

لم يكن دقيقا في هذا الجانب.. إذ إن الكتابات الأولى خاصة استمدت الكثير من حياة هذا الروائي في نسيج بنائها الدرامي وحضورها المكاني والزماني.. ومهما حاول - مثلا - هذا الروائي أن يتنصل من روايته الشهيرة الأولى - موسم الهجرة إلى الشمال - كونها لاتمت أحداثها بصلة مع حياته الخاصة.. فإن (زمكانية) الرواية وشخوصها هما أهم الشواهد الراسخة والقوية التي عكست ملامح قريبة للغاية لتفاصيل الحياة الخاصة.. بيد أن الطيب صالح يرفض جملة وتفصيلا ذلك القرب.. بل ويعلن كرهه لها.. حيث يقول: "أنا لا أحب هذه الرواية كثيرا، رغم أنها كانت بداية شهرتي".

ويضيف الروائي كلاما آخر حول موسم الهجرة إلى الشمال.. "ما هذا الاهتمام برواية موسم الهجرة إلى الشمال، وقد أخذت ما تستحقه من الدراسة والتحليل".. والإجابة نقولها نحن.. هذا لأن الرواية أصبحت تمثل بالنسبة للقارئ والروائي حالة شبيهة بالسيرة الذاتية لمواطن سوداني مهاجر يتفق مع مواطن سوداني مهاجر آخر يدعى الطيب صالح.. والشبه بين بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال (مصطفى سعيد) و(الطيب صالح) يتفق كثيرا من حيث التفاصيل.. وهذه سطور من حياة الكاتب مقتبسة، توضح الأيام، اللحظات الأولى من تجربة الهجرة التي تمثل أهم قفزة ومرحلة في حياته..

من القرية إلى لندن

"الآن سيقتلع الطيب صالح نفسه اقتلاعا، ليركب الطائرة من مدينة أم درمان إلى لندن.. كانت الأشياء قد اختلطت في ذهن هذا الشاب

الذي يبلغ من العمر آنذاك ٤٢ عاما فقط.. "فقد عاش أربع سنوات قلقة وهو نفسه يصف تلك الفترة بأنها كانت فترة (اللخبطة).. لقد ترك وراءه سنوات الصبا.. والأهل ودفء العشيرة، بحثا عن مجهول لم يكن يرغب فيه ولعل تلك هي إحدى المفارقات في حياة الطيب صالح.. لكن هذه النقطة في الزمان والمكان هي التي ستصنع عالمه الروائي..".

وعن تلك اللحظات التي ستشيدّ فيما بعد تناقضات شتى وأفكارا وانطباعات يصوغها في رواية (موسم الهجرة للشمال) يقول الطيب صالح: "وصلت إلى لندن في شتاء ١٩٥٣، عند وصولي لسعني البرد، وأحسست بزمهرير داخلي فاجأني هذا الطقس، فقد جئت من منطقة حارة، وهأنذا أصل إلى منطقة باردة جدا.. كانت هنالك سحابة من دخان أسود فوق سماء لندن.. هذه السحابة نتيجة اختلاط دخان الفحم الحجري من الضباب، وهو ما يطلق عليه الإنجليز كلمة "إنيغ"، ونظرا للاستعمال الكثيف للفحم الحجري في تدفئة المنازل خلال تلك الفترة فإن السواد كان يغطي سماء لندن باستمرار.. جئت للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية و لم يكن لدي سابق معرفة بالعمل الإذاعي وأحسست أنني وقعت في ورطة حقيقية.. فقد جئت إلى بلد لم أكن أرغب فيه، لأعمل عملا هو كذلك ليس لي رغبة فيه..".. ومن القرية السودانية إلى لندن لم تكن هجرة الشاب آنذاك سهلة.. حيث نقل في مخيلته واحتفظ بذاكرته كل ما يربطه بحياته سواء التي قضاها في القرية حيث النخيل ودفء العشيرة.. أم في الخرطوم وأم درمان حيث النيل والدراسة.

في قرية (الدبة) بمنطقة مروى في شمال السودان وفي عـــام ١٩٢٩ الطيب صالح كان أبواه قد رزقا بمولودين ذكرين قبله لكنهما لم يكتـــب لهما العيش.. لذلك فقد رأت الأم (عائشة أحمد زكريا) أن تطلق عليـــه اسم (الطيب) فلعله يعيش ولا يلتحق بأخويه.. ومن المؤكـــد أن فرحـــة الأب (محمد صالح أحمد) لم تكن بأقل من فرحة الأم حينما رزقا بمولودهما الجديد الطيب.. هذا الطفل الذي أثر المكان وبشكل قوي وجـــذري في تشكيل الملامح الأولى لصباه.. حتى كانت القرية والعشيرة همـــا المنـــهل الذي استمد منه الكثير في تكوين أعماله فيما بعد.. ومـــن الواضـــح أن سنوات الدراسة لم تؤثر كثيرا على الطيب صالح أو لعلها لم تـــستقر في ذاكرته كما حدث بالنسبة لسنوات الطفولة، لذلك ســـنلاحظ أنـــه لم يتوقف عندها كثيرا في معظم أحاديثه وحواراته التي استرسل فيهـــا مـــع محاوريه حيما يتطرق نحو السيرة الذاتية.

لقد انتقل الكاتب من قرية (الدبة) إلى بور سودان لمتابعة دراسته في المرحلة الوسطي، وذلك في مطلع الأربعينات.. وكانت – بور سودان – تعتبر المدينة السودانية الثالثة بعد الخرطوم ومدني.. ثم تـــابع دراســـته – السنوية – في مدرسة (وادي سيدنا) بأم درمان وهي المدينة التي عاش فيها سنوات الصبا والخصُوبة الفكرية.. وبعدها التحق بكلية العلوم في العاصمة الخرطوم ليدرس الزراعة ولكن الحال لم يستمر كما كان يرغب أن يكون عليه بالنسبة للطيب صالح.. فترك الدراسة.. وعن الخرطوم يقول: "كانت تبدو لنا مدينة غريبة حين نزورها، نشاهد الدور التي يسكنها الإنجليـــز،

والحدائق، والدور الحكومية التي أصبحت فيمـــا بعـــد وزارات وقـــصر الحاكم، وكلية (غردون) التي ستتحول لاحقا إلي جامعة الخرطـــوم"، ثم يمضي الطيب صالح ليعمل مدرسا في المرحلة الوسطى في بلدة (رفاعـــه) لينتقل منها إلى معهد (بخت الرضا) الذي خرّج العديد من الشخـــصيات المشهود لها بالنبوغ والكفاءة.

نحو مستقبل آخر

في ١٩٥٢ يعلن القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية عن حاجتـــه لمذيعين ومحررين ومترجمين سودانيين.. ويدخل الكاتب امتحان القبـــول لينجح فيه.. وخلال فترة وجيزة يكمل إجراءات السفر إلى لندن.. وتبدأ الهجرة.. يقول الطيب الصالح عن تلك الأيام "إذا كانت لـــبعض النـــاس مبرراتهم في الاغتراب والهجرة، فلم يكن لدي أي حافز لأفعل ذلـــك.. هنالك أناس خرجوا من السودان لأنه لم تعجبهم بيئتهم أو لأنهم يريدون جمع الفلوس، أو من أجل الدراسة.. وبالنسبة لي لم يكن هنالك أي شيء من كل هذا.. اللهم إلا الدراسة.. ربما".. لكن المهاجر كان ينـــوي أن يهاجر جسدا ولا ينأى بعيدا عن السودان.. أو ينقطع عن جذوره.. وعن هذا التعلق الشديد بالمكان الأول.. يقول الطيب صالح .."حاولت أكثـــر من مرة العودة بكيفية نهائية للاستقرار في السودان.. وما جعلني أعدل عن هذه الفكرة، هو أنني كلما عدت وجدت أن البلد تسير نحو الأســـوأ.." ويضيف في حوار آخر معه.. "وقد يكون اندماجي في البيئة هو الـــذي

أطال إقامتي في لندن، وربما لأنني تزوجت من هذا المجتمع - يقصد المجتمع الإنجليزي".

ويحاول الطيب صالح أن يربط بصورة قد يكون فيها الكثير من المبالغة بين المناخ الاجتماعي في القرية السودانية.. ومثيله في لندن.. مع أن الاختلاف والتنافر بين المناخين واضح للغاية.. بيد أنه يذكر قائلا: "بدأت استنشق مناخ الحرية في لندن.. وهذا ما تربيت عليه.. خاصة أن السنوات التي أمضيتها مع أهلي في مجتمع القرية، كنت أحس خلالها بالحرية في أن أقول أو أفعل ما أشاء.. وفي لندن أعجبني مناخ الحرية والانفتاح.. ثم أنني عملت في هيئة الإذاعة البريطانية وهي مؤسسة منظمة جدا".

غير أن تلك المؤسسة المنظمة جدا والتي ترقى بها إلى موقع رئيس قسم وهو بعمر التاسعة والعشرين.. غادرها نحو عمل آخر ليعمل مستشارا في اليونسكو، حيث استطاع من خلال عمله هذا أن يجوب مع زوجته الإنجليزية وبناته الصغيرات آنذاك عواصم العالم العربي.. غير أنه بقي مشدودا إلى ثلاثة منها هي القاهرة وبيروت والدوحة، وعن هذا الانشداد لتلك العواصم، يقول.. "أمضيت في قطر سبع سنوات وشكلت تلك الفترة محطة مهمة في حياتي.. عملت في الدوحة مديرا لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشارا لوزير الإعلام بعد أن عينوا وكيلا قطريا للوزارة".. ثم في مكان آخر يذكر .. "استفدت كثيرا في قطر، وأعتقد أن ذهابي إليها كان بمثابة مخرج لي.. لأنه حين عرض على المنصب كنت بالفعل أحس بالملل في لندن والأمر كله - كما هي مسيرة حياتي - تم بالصدفة..".

وعن القاهرة ومصر عموما.. يقول الطيب صالح: "ليست مصر بلدا آخر، بل هي جزء من تكويننا ومزاجنا العام، وكانت لي علاقات طيبة مع كثيرين في مصر من هؤلاء يوسف إدريس الذي نشأت بيننا علاقة أخوة طيبة، وكنت حين أجيء إلى القاهرة لابد أن أبحث عنه "ويواصل الروائي ذكرياته عن القاهرة ومصر ويسترجع أسماء أدباء وفنانين مصريين وغير مصريين عرفهم فيها.. حتى نلمس مدى قوة وتوثق العلاقة بين الطيب صالح وبين مصر الأرض.. والإنسان.. والإبداع.

وزيارات الأديب صالح لبيروت عديدة وكانت أولها بعد عمله بإذاعة لندن بخمس سنوات، حيث أوفدته الاذاعة عام ١٩٥٨ إلي مكتبها في العاصمة اللبنانية.. وكانت زيارته التي يتذكرها عام ١٩٨٠ لإلقاء محاضرة في الجامعة الأمريكية ببيروت.. عن علاقته مع هذه المدينة يصفها الطيب الصالح بأنها علاقة أثرت بوضوح على مسيرته الأدبية.. أما اللبنانيون فيقول عنهم "أحببت اللبنانيين حبا خالصا.. وأعتقد أن الرأي الشائع الذي يقول إن اللبنانيين هاجسهم المصلحة المادية هو افتراض محض.. اللبنانيون يميلون إلى التجارة والعمل والسياحة.. ولكنهم يمنحون خدمة مقابل ما يأخذونه، وهذا شيء طبيعي.. ثم إن اللبناني قد يتعب النهار كله ويشقى ليكسب مالا، لكنه على استعداد أن ينفق كل ما كسبه في آخر الليل لاستضافة أحد أصدقائه أو معارفه..".

ثم في حديث آخر عندما يأتي ذكر لبنان يقول.. "المدهش أنني وجدت نقاط التقاء بين لبنان والسودان، ورغم بعدهما الجغرافي.. هنالك

أشياء كثيرة مشتركة ودون امبالغة يمكن أن أقول إن الـــسودان ولبنـــان وجهان لعملة واحدة.. لقد في الشعر العامي اللبناني أوجه شبه مع زجل وأشعار قبيلة (الشايقية) في شمال السودان".

وكما يتحدث الروائي بحميمية عن المصريين من خـــلال القـــاهرة والقطريين من خلال الدوحة واللبنانيين من خلال بيروت فإنه يتحـــدث بالحميمية نفسها عن مدن عربية أخرى.. شهدت أياما أو سنوات حاضنة له.. مثل مدينة (أصيلة) المغربية.. "عرفت المغرب منذ زمن بعيد.. وكنت أزوره على فترات متباعدة.. لكن علاقتي الحقيقية مع هذا البلد كانـــت عام ١٩٧٨ لقد سافر الطيب صالح في ذلك العام إلى المغرب ليشارك في مهرجان (أصيلة) الثقافي والتي صار فيما بعد يتردد عليها.. ومـــن بـــين ذكرياته عن المغرب يقول: "رغم بعد المسافة بيننا وبين المغرب لاحظـــت أن هنالك أوجه شبه كثيرة مع السودان كانت الطرق الصوفية قد أوفدت إلينا من المغرب، وجاء علماء مغاربة أيام مملكة سنار في القرن الرابع عشر الميلادي.. ثم إن تركيبة المغرب السكانية، وكونه همزة وصل بين العرب وإفريقيا السوداء فإنه يشبه في ذلك كثيرا الدور الذي يفترض أن يقوم به السودان.

وقد تراكمت لدي ذكريات جميلة في أصيلة، لأن هذه البلده بدأت تخلق ميثولوجيا المكان.. فالمكان ينمو وتكون له صيرورة.. ليس فقط عن طريق الناس الذين مروا منه، وحملوا صورته في خيالهم وذهبوا بهـــا إلى جميع أنحاء العالم فقد جاء لأصيلة رسامون من اليابان وكتاب من أمريكا

وشعراء من البرازيل وأدباء من فرنسا ومبدعون من شتى بقاع العالم، هؤلاء الناس حملوا صورا للمكان ورحلوا بها ووزعوها في العالم بأسره.. ثم هنالك الذين أحبوا المكان وماتوا فيه.. الموت أيضا يعمق فكرة الميثولوجيا.. ويخلق ميثولوجيا المكان.. واليوم.. وبعد تلك الحياة الحافلة التي عاشها الطيب صالح.. والتي وصفها يوما – حياة تمت بالصدفة – هل فكر هذا الكاتب بأن يدونها يوما.. لغاية هذا الوقت ليس هنالك ما يؤكد ذلك فالطيب صالح لم يكن في الماضي مندفعا لكتابة مذاكراته.. ولعل آخر ما أعلن عنه بهذا الشأن.. "لا أحس في هذه المرحلة من العمر أن حياتي تستحق أن أؤلف عنها كتابا، فالناس الذين ينشرون "السيرة الذاتية" هم رجال السياسة، أما أنا فعابر سبيل على باب الله.. حياتي عادية ليس فيها ما يستحق..".

وراء الطيب.. امرأة

غير أن هذه الحياة كان لوجود المرأة فيها ركن أساسي.. إذ بعد فترة قليلة من وجوده بإنجلترا تزوج الأديب من امرأة أسكتلندية مازالت تشاركه حياته.. عن حياته معها يقول الأديب السوداني الكبير.. "تزوجت امرأة أسكتلندية لأنها شخصية أعجبتني وليس لأنها بيضاء.. أبدا.. فاللون المفضل عندي هو اللون العربي الأسمر.. وليس الأبيض.. أنا أحب اللون العربي الأسمر والشعر والعيون السوداء والصوت العربي الجميل.. لدي بناتي اللواتي أعتز بهن.. وأنا صديق لهن.. ابنتي الكبري أسمها زينب وأنا أبو زينب.. واخترت هذا الاسم لها لأن جدتي لأمي

كان اسمها زينب.. وأمي اسمها عائشة وأبي محمد.. واسمي الطيب وهــذا الاسم من أسماء أبناء الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو أبو القاسم، وأبو الطيب وأبو الطاهر.. وأنا سعيد بالاسم وإن كان يحملني مسئولية كبيرة فما أسهل أن يقال إنه لا طيب ولا صالح.. وسمتني والــدتي بهــذا الاسم رغم أن جدي كان يسمي كل أحفاده ولكن والــدتي أصــرت إصرارا شديدا أن تسميني الطيب، وذكرت لي فيمــا بعــد أن نــبي الله (الخضر) بشرها وهي حامل بأنها ستلد ولدا وتسميه الطيب.. وهكــذا تغلبت على الجد.. إذ كانت امرأة قوية.

وكان فارق السن بيني وبينها قليل كنا نبدو كأخوين.. وقد توفيت عام ١٩٨٨ ولم أحضر وفاتها وكانت (خفيفة الدم) للغاية ولديها ذاكرة قوية جدا وتحفظ شعرا كثيرا.. شعر شعبي وشعر مدائح.. وأكيــد أنــني تأثرت بها وتعلمت منها ولقد أهديت لها ولأبي ولأختي وأخــي كتــاب (ضو البيت).. أما بالنسبة لعلاقتي بأبي فقد كانت طيبة وبيننا صــداقة، وأدين له إيمانه بالتعليم في وقت كان لا أحد يحفل بالتعليم النظامي كانوا يعتبرونه تعليم الإنجليز، ويفسد الأخلاق، ولكني تعلمت أنا وأخي وأبناء عمي وكل أهلي وكان أبي هو الذي أصر على تعليمهم".

ومن الجلّي أن الروائي يبتعد كثيراً عن التحدث في الجــان، لكــن النساء اللواتي ظهرن خلال أحداث الرواية التي عرف بها – موسم الهجرة إلى الشمال – قد يوحين للقارئ بأنهن شخصيات عرفهن الأديب عــن قرب غير أن الطيب صالح يرفض ذلك بشدة.. "بطل الرواية مــصطفى

سعيد ليس هو أنا.. والنساء اللواتي في الرواية كلهن من وحي الخيال.. أنا لا أعرف واحدة اسمها – ايزابيلا سيمور – مثلا، لكن لعلني صادفت ناسا يشبهونها، ولو أنني أردت أن أكتب قصة حياتي لقلت "سيرة حياة".. وليس عندي رغبة أن أكتب سيرة حياة.. ربما لو امتد بي العمر لكتبت هذا..".

وقد تكتب عن حياتك العاطفية خلال حياتك الأولى في السودان "أنا أكتب محظوظا في ذلك الوقت.. إذ كنت محاطا بحب كثير جدا.. حب جداتي لأبي وأمي وعماتي وخالاتي.. كنت محاطا بدفء شديد.. والمرأة الحبيبة الأولى أو غيرها فعلت معي ما فعلته بالكتابة مع الناس.. ولكن الكاتب بعد أن ينتهي من عمله بالكتابة يتحول إلى شخص عادي.. وأنا لم أحب من طرف واحد أبدا.. ولا أحتمل أن أكون هذا المحب، وإذا لم أضمن أن الطرف الآخر يحبني أروح إلى حال سبيلي، وأسير في هذا على نهج – عمر بن أبي ربيعة – الذي قال:

"سلام عليها ما أرادت سلامنا   وإن لن ترده فالسلام على أخرى"

وأرجو ألا يحدث لي هذا على كبر، وألا تكون مصيبة.. فكل تجاربي المحدودة كان الحب من طرفين.. لكني لا أحبذ الحب على طريقة قيس وليلى لأنه في الغالب يكون فيه طرف لديه استعداد للتوهم والتعذب.. وأنا أفضل حبا بصيرا.. مأساة "عطيل" مثلا كان الحب فيها غبيا.. إذ يقول شكسبير على لسان عطيل "أنا أحببت بغباء والمحب في الحب الغبي لا يعرف موطئ أقدامه".

لكن.. كيف يتفهم الروائي هذه الناحية من خلال بناتـه زينـب وسارة وسميرة اللواتي عشن في مناخين مختلفين متناقـضين.. إنجلتـرا.. والسودان يقول الطيب صالح "أنا صديق لهن.. لكن لم تبلغ العلاقة معهن أن تحكي لي واحدة عمن تحبه.. ربما لو سألتها لقالت، ولكن أنا لا أسأل لعل في داخلي بعض شخصية من الأب العربي المسلم.

ليست هنالك إشارات واضحة تبين أن هذا الأديب أولع بالكتابـة منذ صغر سنه.. فحتي خلال فترة مراهقته وشبابه الأولى التي قـضاها في السودان ولغاية عام ١٩٥٣ لم توفر معطيات قوية تلمح لاهتماماته في فن الرواية أو الأدب بصورته الشمولية.. فيما عدا اهتمامه باللغة الإنجليزيـة التي أتقنها تماما وهو في الخرطوم.. وعلى ذلك فإن هنالك ما يؤكد بـأن قلم الطيب صالح لم يكتب السطر الأول من قصصه ورواياته إلا بعد مـا استقر بلندن.. و لم يحمل معه من الخرطوم أية قصاصة ورق تحمل قـصة كان قد كتبها.

في عام ١٩٥٣ وفي لندن.. يكون هذا الروائي قد وصـل لـسن الخامسة والعشرين.. وعند هذا السن بدأت ولادته الحقيقية ككاتـب.. وهنا لابد أن نتساءل: هل الحياة – حياته – التي تمت بالـصدفة كمـا وصفها يوما يمكن أن يتطابق هذا الوصف مع الكتابة كـذلك؟.. هـذا السؤال نجد إجابته فيما قاله الأديب يوما.. "لم أرغب أن أكون كاتبا في يوم ما.. مثلما لم تكن لدي أية رغبة في نشر ما أكتبه.. وقبل أن أغـادر

السودان إلى لندن كنت قد كتبت محاولتين في القصة القصيرة، أو شيئا من هذا القبيل ومزقتهما وانتهى الأمر عند ذلك الحد".

وعن أول قصة قصيرة عرف بها الكاتب والتي سبق أن أشرنا إليها.. حيث كتبها بعد أشهر من وصوله للندن "عندما جئت لندن في فبراير / شباط ١٩٥٣ وجدتها تعيش تحت وطأة شتاء من أفظع الشتاءات التي عرفتها إنجلترا.. كان بردا قارسا مازلت حين أتذكره تصطك أسناني.. وآنذاك بدأت ألوم نفسي لوما شديدا.. كنت أقول: لماذا جئت أصلا إلى هذا البلد.. وما هي المصيبة التي رمتني وساقتني إليه.. في تلك الفترة وتحت وطأة الحنين إلى أهلي وبلدي وعشيرتي كتبت قصة قصيرة أسميتها (نخلة على الجدول)، كان ذلك عام ١٩٥٣ ونشرت في وقت لاحق ضمن المجموعة القصصية "دومة ود حامد" إنها قصة بسيطة كتبتها ببساطة شديدة جدا.. والآن حين أعود إلى قراءتها أدرك إلى أي مدى كنت تحت تأثير حنين جارف إلى وطني.. كانت القصة تعبيرا عن حنين للبيئة ومحاولة لاستحضار تلك البيئة.. ولقد اطلع على القصة (معاوية الدرهلي) وهو أحد أصدقائي الفلسطينيين فأعجبته كثيرا، وأذاعها من إذاعة لندن، ثم نشرت في وقت لاحق.. بعض الإنجليز أعجبتهم تلك القصة وقالوا لي – أنت كاتب – ودهشت لذلك، بل إن دهشتي ازدادت حين قال لي معاوية الدرهلي إن أسلوبي فيه ملامح من أسلوب (جيمس جويس) وبدا لي أن هذا كلام كبير جدا".

إذن فإن الانتماء إلى الكتابة القصصية لدى الطيب صالح لم يكن في بادئ الأمر انتماءً محسوما وقويا وقصته القصيرة التي عرف بها لأول مـــرة بقيت وحيدة وشبه يتيمة و لم يلحقها بأي نتاج آخر بعد مرور ســـنوات عديدة.. وهذا يعني أن الاهتمام الإبداعي الأدبي بمجال القصة كان أمـــرا ثانويا في حياة الكاتب.. بل إنه لم يتحمس حتى على نـــشر كتاباتـــه في مجلات أو صحف تصدر في العالم العربي و لم يؤكد علاقاته مع أي مـــن الأدباء إلا في فترة متأخرة.

(٣)

الكتابة تصبح أصعب عندما يكون الواقع أغرب مما يتخيله الكاتب

- الشهرة زائفة والنجومية وهم!
- "نوبل" لن تفكر في أديب حياته غير مثيرة والنجومية وهم.
- المجتمعات العربية قائمة على الصراعات والتاريخ الدموي.
- أحياناً.. أشعر أن البشرية تائهة وأنا تائة معها!



العبور من محطة إلى أخرى مع الطيب صالح يصيبك بالدهشة.. هو شخص عادي – كما يصف نفسه – وولوجه إلى عالم الكتابة لم يكن بغرض الكتابة لكنها الوسيلة المثلى للتعبير..

لكن ما الذي يريد أن يعبر عنه هذا "الأسطوري" الذي يعترف بأن حياته تصنعها الصدفة، وأنه ككاتب يعاني نوعاً من الانفصام ..ها أنا قد عبرت معه من محطة البداية بعد رحلته من السودان إلى لندن، ومن الخاص إلى العام فإذا به يعود إلى محطته الأولى السودان.. وإذا بي أعود إلى صورة الصوفي الزاهد التي رسخت عنه في نفسي، فأجدني أكثر عطشاً من ذي قبل أريد أن أقف على جدوله وأنتظر تمر نخلته، فأجمع "حفنة تمر" وأضعها على مائدة أوراقي وأقول له

وماذا بعد أول قصة كتبها فيقول: بعد "نخلة على الجدول" بسبع سنوات كتبت قصة قصيرة أخرى أسميتها "حفنة تمر" ثم كتبت "دومة ود حامد"، نشرت في مجلة كانت تصدر بلندن اسمها "أصوات" يحررها المستشرق الإنجليزي دينيس جونسون ديفيس مع الصديق المصري الراحل – ادقار فرج – وبادر جونسون ديفيس إلى ترجمة – دومة ود حامد –

إلى الإنجليزية وأرسلها إلى مجلة شهيرة وكانت أكبر مجلة أدبية تصدر في بريطانيا في تلك الفترة.. ولشدة دهشتي قبلت المجلة القصة ونشرتها.

إن أي متفحص للمراحل التي مرت بها تجربة الكتابة للطيب صالح سيلمس بسهولة أن هذا الكاتب لم يكن يرسم لنفسه يوما المترلة الأدبية والإبداعية التي يتربع عليها اليوم.. إذ كانت الملامح الأولى لهذه التجربة لا تمثل بالنسبة إليه إلا هواية ولعبة أدبية استهوتها نفسه، وشجعت لها إطراءات المقربين اليه، العاملين خاصة بإذاعة لندن.. وإذا ما كان واحدا من هؤلاء الأصدقاء المقربين إليه يلح عليه بمواصلة الكتابة.. فإن جواب الطيب صالح لا يأتي إلا متعجبا للطلب.. بمواصلة الكتابة.. يعني أن أتحول إلى كاتب.. ؟ هذه مزحة.. لقد كتبت ما عندي وخلاص..! تلك كانت الإجابة التي يمكن أن تمثل بعد المسافة الفاصلة في أن تكون الكتابة همًا وانتماءً له.. أولا تكون.. ليتعامل معها كأمر ثانوي وعن بعد.

ولكن.. متى بدأ هذا الروائي يقف حقيقة عند البداية الجادة للاحتراف الأدبي؟.. وما هي العوامل التي ساعدت على أن يستمر في الكتابة ويقدم إبداعاته هنا وهناك؟.. إنها في الواقع عدة مؤثرات وعوامل، منها ما يتعلق بشخصية الكاتب نفسه.. وأخرى تتعلق بالفترة التاريخية التي ظهرت بها تلك الكتابات.

في عام ١٩٦٤ نشر روايته الأولى – عرس الزين – والتي كان قد كتبها قبل هذا التاريخ بسنوات.. ولم تحظ هذه الرواية بالاهتمام الذي حدث بالنسبة لروايته الثانية التي جلبت له كل الشهرة دفعة واحدة..

حصل هذا عام ١٩٦٦ حينما نشر رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) في مجلة حوار اللبنانية التي كان يرأس تحريرها الشاعر الفلسطيني توفيق صائغ.. في ذات الوقت كانت هذه الرواية قد صدرت في لندن مترجمة من قبل أحد زملاء الكاتب العاملين في هيئة الإذاعة البريطانية.. ومن المحتم أن هذه الإنجازات الأدبية التي حصلت ما بين عامي ١٩٦٤-١٩٦٦ قد حثت وشجعت الأديب للمضي في التجربة، هذا بعد أن لاقت الرواية الثانية صدى واسعا من قبل القراء والنقاد.. وأصبحت الأضواء تتركز على شخصية الطيب صالح.. الأديب.

ويروي الطيب واحدة من صور الاهتمام المدهشة والجديدة التي واجهها من قبل القراء والنقاد خلال تلك الأعوام "زرت جامعة أكسفورد، وكان لي منها بعض الأصدقاء، منهم الأخوان حسن بشير وكرار أحمد كرار، وهناك التقيت واحدة من علماء إحدى كليات أكسفورد اسمها سانت أنتوني إنكونتر قد نشرت في العدد نفسه الذي نشرت فيه (دومة ود حامد) قصة للكاتب الأمريكي نورمان ميلر، وهو من أشهر الكتاب في أمريكا.. وأثناء تناولنا وجبة الغذاء قال لي أحد الأساتذة.

هل تعلم أن نورمان ميلر يمكن أن يتعلم منك.. صعقت حين سمعت هذا التعليق.. وتساءلت "يتعلم مني أنا".. !.. فأجاب بالإيجاب، وراح يتحدث عن مميزات القصة.. وقال إنها قصة كلاسيكية فيها بساطة شديدة وجوانب فنية غير مطروقة" تلك واحدة من صور عديدة جعلت وساهمت

مثلما ساهم الكثير من العوامل والأسباب، لأن ينظر الطيب صالح نظرة أكثر حميمية وقربا وانتماء إلي عملية الكتابة.. ففاز بآراء نقدية جادة ومهمة.. فقبل ٥٢ عاما تقريبا صار اسم الطيب صالح ذائع الصيت في دنيا الرواية العربية.. ووصفه الناقد (رجاء النقاش) وبوقت مبكر.. الطيب صالح في الرواية شاعر كبير.. أدواته الفنية في منتهى الطاعة لرؤاه الفنية الفياضة.. وأدبه نموذجا للحوار الفصيح الذي يحمل الكثير من الروح الشعبية..".

السودان أولا

البيئة الشعبية السودانية هي العالم الوحيد الذي تدور فيه كل أجواء رواياته وقصصه القصيرة التي كتبها.. وحتي إذا ما كتبت عن مكان آخر غير السودان، فإن ذلك المكان يأتي موظفا للبيئة الأصل.. وهي واحدة من أهم العوامل التي ساعدت على صنع هذا الأديب.. فإذا ما كنا قد عرفنا تأثير البيئة السودانية على كتابات الطيب صالح فما هو تأثير الأماكن الأخرى غير السودانية على الكاتب.. يقول: "إنني لم أهتم بالكتابة عن البيئات الأخرى إلا بشكل محدد جدا، ولذلك كان اهتمامي بالبيئة السودانية.. وحتى الأفكار التي أكتبها عن بيئات أخرى أجلبها إلى هذه البيئة وأغرسها فيها.. ثم أراقب ماذا يمكن أن تفعل.. ولعل في شخصيتي الكتابية – لا شخصيتي كإنسان – نوعا من الانفصام هنالك جانب في "عرس الزين" أقرب إلى طبيعتي.. أحيانا أكتب روايات ليس فيها توتر، والعالم فيها متجانس وليس فيه صراعات عنيفة.. ثم هنالك جانب آخر

هو عالم "موسم الهجرة"، وهو العالم المكتسب من التعليم والسفر والعيش في بيئات غريبة ومعاناة الشتاء القاسي في لندن والدخول في أزمات مع النفس.. ومعايشة أقوام غرباء.. فأكتب عندها على غرار "موسم الهجرة".. ولعلى في روايتي "ضو البيت" و"مريود" خلطت بين الشخصيتين فثمة جانب عنيف تمثله أسطورة بندرشاه وعلى السطح هنالك القرية، بل هنالك أشخاص "عرس الزين" وامتدادهم محجوب وعبد الحفيظ والطيب يعيشون على السطح.. ويستطيع الواحد منا القول إننا في العالم العربي كله نعيش في مجتمعات قائمة على أعماق من الصراعات والتاريخ الدموي.

مشهد من رواية بندرشاه

بقيت الثقافة والبيئة السودانية بخصوصيتها المتوارثة من جيل لجيل هي مكان وزمان الكتابة.. حتي بدت كتابات الطيب صالح عبارة عن إعادة وحفظ لتلك الميثولوجيا.. والفلكور الاجتماعي.. مفيدا له ومستفيدا منه.. ولنلاحظ الاستفادة التي أخذت منها رواية (بندرشاه) من الفلكور السوداني، حيث جعل الأديب الشخصية التقليدية السودانية تتحرك وتعيش في روايته دون تدخل منه ودون قمعها تحت تأثير ذاتية المزاج أو لغة الكتابة.. بل إن الكتابة تأتي أحيانا باللهجة السودانية.

"قعدنا على الحالة دي أسبوع عند بندرشاه.. حكيت لهم حكاية الشطة، وقت جروحنا بردت أنا ومختار.. رجعنا للحلوة.. مختار بطل الافتراء، وأنا من يومها ما قاشطت جنس مخلوق.. ونحن الأربعة بندرشاه،

وجدك، ومختار، وأنا، بقينا أصحاب أي كأننا إخوان أشقاء ما يفرق بيننا إلا الموت"، قلت لسعيد الذي كان قبلا يلقب بسعيد البوم: "قالوا سموك سعيد عشا البايتات ضحك ضحكته البريئة التي أذكرها من أيام طفـــولتي في ود حامد وقال بلهجته البدوية.. "الولية فطومة أجـــارك الله، وقـــت العرقي يشلع في رأسها تطلع الكلام خارم بارم".

قلت له..

- وكمان فطومة غنت في عرسك

قال..

- يا محيمين أخوي.. في هادي الأيام الفلوس موتجيب الهوا من فروته..

قلت له..

- فطومة شن قالت فيك..؟

فقال فخورا وهو يبرم شاربه الصغير الذي يجلس قلقا على فمه كما تجلس العمامة المفرطة الكبرى على رأسه.

- يازول فطومة تطير عيشتها.. هو لكن غنا فصاح.

- يازول العرس الماغنت فيه فطومة أصلا ما يقولوا عليه عرس

وأعدت عليه السؤال، فقال:

- على الحرام، أخوك عرس عرسا خلي ناس ها البلـــده تنـــسي عـــرس الزين.. أسأل أيا من كان يقول بك العرس عرس سعيد وإلا بلاش".

عرس الزين كان أعجوبة.. أما أن سعيد اليوم يصبح صهرا للناظر بجلالة قدره، فهذه هي المعجزة.. وقال سعيد.. "عليك أمان الله، ما لقينا محل نحشرها.. قبايل قبايل.. كل قبيلة تساوي الشيء العـــلاني.. عملنـــا

العقد في الجامع الإمام قال للرجالة كل واحد يشوف ويسمع سعيد راجل حبابة.. ما في إنسان يقول سعيد اليوم".. تلك الشخصيات وتلك الأجواء حاضرة أبدا في روايات وقصص الطيب صالح.. ويبدو أنها دائما مُستلة من واقع اجتماعي سوداني لم تدخل إليه السياسة بعد.. و لم تجعله فيما بعد واقعا اجتماعيا قلقا كما هو عليه اليوم بفضل التناحرات السياسية أو المعاناة الاقتصادية والمعيشية التي يعاني منها الإنسان السوداني.

عن هذا الواقع المتغّير.. يقول الطيب صالح وهو يتحدث عن أجواء رواياته في حقبات ما قبل امتداد أصابع السياسة إلى لوحة المجتمع في السودان.. "حين كتبت هذه الروايات كان السودان – نسبيا – مستقرا، و لم يكن قد دخل في هذه الصراعات الدامية.. وربما هذا جزء من عرقلة الكتابة.. فهي تغدو أصعب حين يصبح الواقع أغرب مما يمكن أن يتخيله الكاتب. هذا هو الأمر عندما يتذكر المرء إعدام النميري لعبد الخالق محجوب والشفيع ثم شنقه محمود محمد طه أو يتذكر إعدام هذا النظام حوالي ثمانية وعشرين ضابطا في أواخر شهر رمضان.. وأنا وصفت في "ضو البيت" الجلد والتعذيب قبل أن يحدث ذلك في السودان.. كنت أحس ذلك خيالا.. ولكنه حدث فعلا.. بيوت أشباح وتعذيب وبلاء..هذه الأمور أحيانا تعرقل الخيال أو تعكره.. ما حدث في الجنوب مأساة كبرى جدا إذ أبيدت قرى كاملة.. أنا أنتمي إلى الشمال ولكن علينا أن نقر بأنه وقع ظلم كبير جدا على الجنوبيين في حرب أدارها زعماء سياسيون"

قبل أن يظهر اسم هذا الروائي، ليحضر بكل قوة وتفرد في الساحة الأدبية العربية منذ منتصف الستينات، لم يكن يعرف القارئ كاتبا

سودانيا كان قد حقق من قبل ما حققه الطيب صالح على مستوى العملية الإبداعية والانتشار مع أنه يعتبر كاتبا ليس غزير الإنتاج.. فما السر الذي يراه هذا الكاتب بالنسبة لاهتمام القارئ بنتاجاته..؟

"عندما أكتب شيئاً، أحب أن يكتشف فيه القارئ متعة مختلفة، يكتشف عالما جديدا"..

لكن الإقلال في الكتابة كيف يفسره؟

يقول عن ذلك "ليس عندي هذا الهوس بالكتابة كما لدى بعض الكتاب، فإذا كتبت فليكن، وإن لم أكتب فلا أظن أن الناس قد خسروا كثيراً، فأنا لا أؤمن بالكثرة في الإنتاج، إذ ليس ضروريا أن أخرج كل سنة كتابا.. بل الكتابة تأتي حين يكون الكاتب قد نضج تماما، وما عنده لا يمكن حبسه أي كما يقول العرب - بلغ السيل الزبى - وكثيرا ما أجد أناسا كتبوا أشياء رائعة في العالم فأتساءل: "ماذا بوسعي أن أضيف إلى كل هذا.. بل ما معنى أن أكتب رواية كل شهر ليس لها مضمون ذو بال.. كما أنني حقيقة، لا أحس بهذه الرغبة الحادة في الكتابة، غير أني أستمتع بأشياء أخرى ذلك أن عالم الإبداع يلتهم الحياة، فحين نقرأ سيرة الكاتب "بلزاك" مثلا، نجد أن هذا الرجل أفنى عمره ليكتب فالتهم الفن حياته.. وقد تأسف على ذلك في آخر سنوات عمره..".

هل هذا يعني الاعتراف صراحة بأن الطيب صالح آسف على ذلك الزمن الذي التهم من حياته وأنفقه على الكتابة..؟ ثم ما هي الحياة التي يتمناها ويرنو لها من بعيد ليعيشها..

يضيف الكاتب: "أريد أن أوازن بين الحياة وبين الفن حتي لا يلتهم أحدهما الآخر، ولعلى أميل إلى الحياة مني إلى هذا العالم الموهوم الذي أسمه الفن.. لذلك فإني أستمتع بالقراءة وبمقابلة الناس وبالسفر "هل هذا معناه محاولة للهروب من ضريبة الشهرة التي يجلبها الإبداع على الكاتب..؟ يجيب عن ذلك بالقول.."في الحقيقة أن الشهرة شيء زائف ووقتي والنجومية وهم.. والشيء الأهم وهو الأمر العادي الذي ينتج عن هذا الجهد الذي يبذله الكاتب العربي لا يحصل عليه.. فلو كنت كاتبا إنجليزيا لحصلت على تقدير مادي، وكتاب مثلي يعيشون في بحبوحة من العيش لدي الإنجليز والفرنسيين أما نحن العرب فمساكين لا نجد سوى بعض الحفاوة، ونحمد الله على ذلك.. والشعوب التي تهتم بالكاتب بحكم توجهها الحضاري أعطت للإبداع سواء كان كتابة أو موسيقى أو رسم، وظيفة في المجتمع، وأي مجتمع لا يمكن أن يكون متحضرا بدون الإبداع لأنه في نهاية الأمر لا يبقى سوي الفن والثقافة.. فالأمة التي تريد أن تصنع حضارة لابد أن تحتفى بالثقافة والفن، ونحن أهملنا هذا، ربما لظروف فرضت علينا لأننا ظللنا قرونا عديدة وطويلة لا ننتج شيئا".

جوابك هذا يعني أن الأديب والمبدع العربي بأقصى حاجة إلى رعاية.. ولعل تكريمه بجائزة ما عالمية سيكون لها أبلغ الأثر عليه. كما حصل مع الروائي نجيب محفوظ.. "فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل كان فوزا بينا، وهو رجل يستحق هذه الجائزة بكل المقاييس ولقد قلت ذلك قبل سنوات.. ويوجد شعراء وكتاب عرب عديدون يستحقون هذه

الجائزة، وأنا شخصيا لا أريد أن أشغل نفسي بالجوائز .. جائزة العويس.. جائزة البابطين وغيرها من الجوائز.. ولو ظل الإنسان يفكر في هذه الجوائز فلن ينتهي إلى وضع يستريح له.. والأديب يفعل ما يستطيع تحقيقا لنوازع هي أهم من الجوائز.

أما بالنسبة لجائزة نوبل فالله وحده يعلم، هل سيعطونها لعربي في المستقبل القريب..؟ لكن لابد أن نتذكر أن نوبل جائزة أوروبية.. وهم أحرار في منحها لمن يريدون.. وأرى أن الرد على السخط العربي بأن كتابنا مهمشون من قبل جائزة نوبل هو إنشاء جائزة عربية تعطي على غرار جائزة نوبل.. ونحن كعرب لا ينقصنا المال.. إلى درجة أن لدينا أثرياء عرب يستطيع الواحد منهم إنشاء مثل جائزة نوبل.. فنحن نسمع أحيانا أن (فلان) لديه كذا مليار دولار "طيب يعمل إيه في هذه المليارات"، فلو خصص منها على سبيل المثال ٥٠٠ مليون دولار، وتمنح هذه الجائزة لمن يكتب أحسن بحث عن جزئية معينة من الحضارة العربية والثقافة العربية.

وبهذا نكون مساهمين في الحوار الدائر ولسنا متعلقين.. فنحن دائما مستهلكون، نقف متفرجين إلى أن تأتينا السلعة الأجنبية من الخارج.. فجائزة نوبل أنشأها فاعل خير سويدي اسمه "نوبل" صنع الديناميت والقنابل، وتحت أحساس وخز الضمير قال: "نخصص جائزة للعلوم والآداب تمنح للمتفوقين سنويا في العالم، ولكن موقفنا من هذه الجائزة سلبي.. ولابد إذن من إنشاء جائزة عربية كبرى بديلة لها وعلى الإعلام

العربي أن يتولى الدعوة لها.. ومع أن الطيب صالح تحدث عن جائزة نوبل بشيء من التهكم.. إلا أن هنالك أقوالاً ترددت حول سعيه لنيل هـــذه الجائزة.. وبهدوئه وتواضعه المعتاد يرد الروائي السوداني على تلك الأقوال.

"لم أسع إلى جائزة نوبل، ولم أفكر فيها على الإطلاق.. وأنا أولاً لا أملك الإنتاج الأدبي الكافي لتأهيلي إلى نيل هذه الجائزة ثم أني لا أعتبرها شيئا متغيرا في تاريخ الأدب ولا شيئا قادرا على تضخم الكاتب الـــذي يحصل عليها سوى في الأيام الأولى للإعلان عن الفوز بها.. ثم ينتهي كل شيء وتدور عجلة الحياة.. وعموما الجوائز لا تصنع أديبا، ثم إن جـــائزة نوبل ليست كل شيء في حياة الأدباء الـــذين يحبـــون الأدب والحيـــاة والجمال.. هذه الجائزة كمن سعي إلى السراب لا لأنها ليست مهمة، بل لأنها تسند لأسماء قد لا يتوقعها أحد ولأسباب كثيرة.. ثم إن جائزة نوبل لن تفكر في الطيب صالح لأن حياته غير مثيرة وكتبه غير كثيرة".

المتعة والإمتاع

- قلت: طالما أن المتعة الحقيقية لكاتب مثل الطيب صالح تأتي في التعـــبير عما به، ولا يبغي الشهرة ولكنه مندهش من الواقع عندما يصبح أغـــرب من الخيال، فيا ترى ما الذي يمتع الطيب صالح وهو يبدع؟

يقول: أحب صوت فيروز وأنا أكتب، ولا أعرف لماذا، أم كلثوم يحتـــاج صوتها إلى تهيؤ واستعداد، لكن صوت فيروز يثير في أشياء كثيرة، أحـــب المقام العراقي المليء بالشجن، وأحب كثيراً من الغناء السوداني الخـــصب، ويحضرني أحمد المصطفى، وعبد الكريم الكابلي، وحسن عطية، وعثمـــان

حسين، هؤلاء أحملهم معي من الوطن، هذه هدايا منقولة مـــن الـــوطن، عندنا مطربة اسمها حنان النيل، صوتها جميل، وهادية طلسم، وعندنا شاعر من منطقتنا اسمه عبد الله محمد أحمد، وشاعرنا السوداني المعروف ســـيدي أحمد الحردك. وأسمع موسيقى عالمية، أحب الجاز، وأحب أناشيد المديح، مديح الرسول في شمال السودان، وأحببت موســـيقي البيتلـــز في غنـــاء الأوروبيين.

- قلت: تشربت بالثقافة من هنا وهناك حتى أنك تـــرى أن الكتابـــة في بعض جوانبها تماثل عمل علماء الانتربولوجيا والآثار.. فكيـــف يكـــون ذلك؟..

قال: هؤلاء يحفرون طبقات الأرض فيجدون أحيانـــاً بعـــض التحـــف أوالصخور الدالة على حضارة معينة، وأحياناً بعض الحلي، وهم في ذلك مثل الروائيين والمؤرخين، لأن ما يقولونه لا أحد يستطيع إثباته لأنه دخل في بحر الزمان، وأنا شخصياً لا أشعر بأنني غريباً عن هؤلاء الناس، علـــى الرغم من أنهم قد يستعملون عبارات تبدو محددة، لكنهم بالضبط مثـــل الروائيين.

وفي اعتقادي أن الكاتب أو الروائي "أركيلوجي" بشكل مختلف.. الكاتب ينظر إلى ما يسمى بالواقع، ولكن حين نفكر فيه بعمق لا يوجد واقع، من الناحية الفلسفية لا يوجد واقع، هناك حلـــم، كمـــا يقـــول شكسبير، إذا نظرت إليه من الناحية التاريخية، وهو لـــيس ثابتـــاً، حـــتى الأشياء التي تحدث قبل أسبوع نجد الناس ينظرون إليها بشكل مختلـــف،

ويحكونها بكيفية مختلفة، وكل واحد يعيد صياغتها بنفسه، وأنا شخصياً لم أسع مطلقاً أن أصنع واقعاً، لأني لا أعرف ما هو هذا الواقع.. وأقول في السياق نفسه: إن الذاكرة تلعب كثيراً بالإنسان، وبالنسبة لي حيث أتذكر واقعة ما، فإنني لا أعرف على وجه الدقة هل ما تذكرتــه يناســبني في الكتابة؟.. لذلك تجدني دائماً أقول إنـــني أعتمـــد أنـــصاف الحقـــائق، والأحداث التي يكون جزءا منها صحيحاً والآخر مبهماً، وهذا يلائمـــني تماماً، بمعنى آخر قد تكفيني جملة سمعتها عرضاً في الشارع لأستوحي منها فكرة للكتابة، وليس بالضرورة أن أجلس مع صاحب الجملة لأستمع إلى قصته كاملة، هذا لا يهمني ولكن يكفيني جملة واحدة أسمعها في الطريـــق فتثير في نفسي أصداء لا حدود لها قد لا يفهم القارئ أبعاد مـــا تكتبـــه خصوصاً حين تكيف ما تسمعه لكي يتناسب وطريقتك في الكتابة، لذلك أعتقد أن كثيرين استوعبوا وفهموا ما كتبت، وفي المقابل ربمـــا هنـــاك كثيرون لم يفهموا ما كتبت، وهذا شيء طبيعي، ومجمل القول إن كـــل صناعة لها آفات، والأدب كذلك، الحداد مثلاً على رغم أنه يتعامل مـــع النار صباح مساءً قد تطير شرارة صغيرة وتحرقه، الزراعة لها آفات لذلك يستعمل المزارعون لفظ "آفة"، حيث يتحدثون عـــن أمـــراض القمـــح أوالقطن، والكتابة خصوصاً فى هذا العصر وفي عالمنا العربي مليئة بالآفات، والذي يطرح أفكاره على الناس علناً عليه أن يتحمل تبعات ذلك، لذا لا يزعجني أحياناً حين يسألني بعض الناس هل مصطفى السعيد يشكل جزءاً من سيرتي الذاتية؟ وهو ما يذكرني بالواقعة التي تقول إن أبو تمام عنـــدما استهل إحدى قصائده المشهورة بالضمير، واستعمل كلمة "هـــن" في أول

البيت، قال له أحدهم "لماذا لا تقول ما يفهم" فرد أبو تمام "ولماذا لا تفهم ما يقال"؟.. والأمثلة متعددة.. إذن الناس أحرار فيما يسمعون ويقرأون، وحدث أكثر من مرة أن ألتقي أناساً يتحدثون عن رواية وهم لا يعرفون حتى عنوانها.. لكنهم أحرار، ويبدو لي أحياناً أن البشرية تائهة، وأنا تائه معها.. لذلك لا أطالب الناس أن تفهمني كما أريد.. الكاتب نفسه أحيانا لايعرف ماذا يقول وماذا يكتب.

سيرة ذاتية

- قلت للطيب صالح: صرحت مراراً بأن ليس في حياتك ما يمكن كتابته أوطرحه كسيرة ذاتية.. فلماذا غيرت رأيك وتحدثت لتخرج سيرتك الذاتية في كتاب؟

قال: ولآخر قطرة من حياتي أقول: "ليس لدي ما أقوله"، وما حدث في السيرة الذاتية التي نقلها عني الأديب "طلحة جبريل" هو قراءة لسيرة إنسان.. وأنا أفهم الآن ما يسمى بتواصل الإنسان مع بيئته ومع الناس، فقد عشت في بيئة صنعها أجدادنا، شرب جدي من لبن البقرة وشربت أنا من سلالتها من بعد، وحتى الحمير كنا نعرف من أين جاءت كأنها بني آدم، كنا نعرف تاريخ كل نخلة على حدة، كل شيء كان متصلاً ومتناسقاً، كان هناك "هارموني" بين الإنسان وبيئته، وحين يتحدث علماء البيئة حالياً عن المدن الحديثة، أدرك تماماً ما يقصدونه، لأن الإنسان في هذه المدن عبارة عن خلية أخذت من بيئة أخرى، وزرعت في هذه المدن، وعندما تركت قريتي وسافرت إلى لندن ساورني طويلاً هذا

الإحساس، الإحساس بأنني خلية زرعت في مدينة كبيرة زراعة اصطناعية، لذلك لم أحس إطلاقاً بالراحة النفسية التي كنت أحس بها في قريتي.

وهذا الحنين الجارف إلى الجذور يتكرر في أكثر من موضع من سيرة الطيب صالح، وهذا الحنين وحده كان دافعه إلى الإبداع، وهو لم يعتبر نفسه أبداً مبدعاً على مستوى الاحتراف، وإلى ما قبل مغادرته السودان إلى لندن في عام١٩٥٣م، لم يكن كتب سوى محاولتين قصصيتين، مزقهما، وأنتهى الأمر عند هذا الحد.

يقول الطيب صالح إنه لا يعتبر نفسه جزءاً من الحركة الأدبية، ولديه رغبة حقيقية في عدم الالتزام بالأدب ويقول: لا أقترب أبداً مما يسمى بالصالونات الأدبية أو اتحادات الأدباء.. أنا شخص على الهامش، وهذا الوضع يريحني كثيراً.

والذين يعرفون الطيب صالح يلمسون عزوفه عن الشهرة، ونفوره من التنظير والادعاء، ورغم أنه كان من الممكن أن يستغل شهرته ويقبل على إنتاج أعمال كثيرة يفوز من ورائها بشهرة أكبر وربح مادي أوفر، إلا أنه رغم تقدمه فى العمر ورغم تجربته الموسوعية في الحياة يرى أن الشهرة شيء زائف والنجومية وهم ويقول أيضاً: لم أكثر يوماً من الإنتاج.. أنا مقل لأني أشتغل في عمل أكسب منه، ولكن الناس ينسون أحياناً أن الكاتب يعيش في الدنيا أيضاً، أنا أختلف في هذه الجهة عن ميخائيل نعيمة الذي كان يعيش في أعالي "بسكنتا" في جبل "حنين" والذي كان خالياً من أية مسئوليات عائلية.. زرته يوماً في مترله، وقلت

له "ليتني كنت في وضعك، وليس عندي عائلة والتزامـــات".. الكتابـــة ليست هي كل حياتي، وقد ذكرت مرة أنني أراوغ في عملية العلاقة مـــع الفن لأن الفن يلتهم الحياة.. يأكلها.. هناك من يقبل هـــذا المـــصير، ولا يفعل شيئاً سوى الرسم أوالكتابة أو نظم الشعر.. "أنا مش عاوز المـــصير ده".. وأرجو بالطبع ألا يكون النبع قد جف عندي، ولكن ما ينقصني هو توفر الوقت، فالوقت في الحياة قصير جداً.

- قلت للطيب الصالح أليست الكتابة عملاً يومياً؟

قال: لا لأن الأفكار تدور في ذهني.. ونوع الكتابة التي أقدمها تستلزم أن تتفاعل مع العمل وتبقى في المخيلة مدة طويلة.

- يثار جدل حول مسألة زمن القصة القصيرة وزمن الشعر وهي أســئلة مستهلكة وأنت كالعادة تقرأ كل ما هو مستهلك وكل ما هو معلـــق.. لكن هل تعتقد أن رواية واحدة جيدة في هذا الزمن تستطيع أن تـــصنع كاتباً؟

نعم.. في تاريخ الأدب، توجد أعمال منفردة صنعت كتاباً، وحين نستعرض الشعر العربي مثلاً نجد شاعراً لم يقل إلا بيتين، ولكـــن هـــذين البيتين بقيا يترددان، على مر العصور، إذن فالكثرة ليست محاكـــاً، وإذا كانت كثرة مع جودة فهذا يكون شيئا جيدا.. لكن نادراً مـــا تكـــون الكثرة فيها جودة.. وهناك كتاب مقلون وكتبوا أشياءً عظيمة مازالـــت موجودة حتى اليوم.

– عندما صدرت مجموعة يوسف إدريس مثلاً "أرخص ليـــالي" أثـــارت ضجة، وفي الطبعة الثانية كتب لها المقدمة د. طه حسين .. وسط الانتشار الإعلامي ووسائل الاتصال ورغم ذلك إلا أنه مـــن الـــصعب جـــداً أن مجموعة قصصية أو عمل واحد تستطيع أن تقدم كاتباً؟

هذه القضية، قضية مفتعلة كلها، لأن القارئ لا يقرأ كل شـــيء – حتى ولو كان قليلاً لأي كاتب، وهناك روائع عندنا قد نكرها الناس، من قبل، وكأنهم يريدون توجيه اللوم للكاتب دائماً، وأنا أنظر للأشياء دائماً على أنها مترابطة، فغير مهم أن يكون الكاتب كبيراً ولكن المهم أن تخلق مجموعة من الأصوات تتفاعل في جيل أو جيلين لتخلـــق شـــيئاً جديـــداً وجيداً، ولو لم يكتب يوسف إدريس إلا "أرخص ليالي" لكان من الممكن أن يشهد الناس لعمله هذا بأنه عمل جيد، ولكن من حسن الحـــظ أنـــه كتب أكثر من ذلك، فالضغط على الكاتب بأن ينتج باســـتمرار لـــيس مهماً، ويمكن الاستمرار في الكتابة في حالة واحدة فقط وهي إذا كانـــت حياته مرتبطة بالكتابة فمثلاً، تشارلز ديكنز عند الإنجليز أو بالذات كـــان يكتب كثيراً لأنه يريد أن يكسب، وكان يقدم الرواية مسلسلة للصحيفة ليكسب منها لأنه إذا لم يفعل ذلك فقد يموت من الجوع، وهذا هو المبرر الوحيد، وغير ذلك لا يوجد أي مبرر للضغط على الكاتب كي ينـــتج، فإذا قارنت بين إبراهيم عبد القادر المازني وبين طه حسين ســـتجد أن د. طه حسين أنتج عدداً من الأعمال ذات مستوى عالٍ جداً، ولكن المازني على قلة ماكتب ترك أدباً على مستوى عالٍ.

- إذن فليست المسألة مسألة نجومية؟

هناك أناس يحبون النجومية، ولكن هذا ليس له صلة بعملية الإبداع.

(٤)

السياسة "مفسدة" تقتل الإبداع

- في "بندر شاه" تتضامن السياسة مع الإبداع من أجل الإنسان!
- أكتب مثل عالم أثري يرسم خريطة فنية للمكان.
- الإنسان العربي يعيش على أنقاض المدن الحضارية القديمة!.

كلّما أوغلت في الحوار معه.. انسحبت الأسئلة، واتسعت الإجابات، وفي نفس الوقت الذي ينسحب فيه الطيب صالح من الحوار وتتقلص كلماته لتصبح مجرد إشعاع نوراني أو"حضرة صوفية" تختزل العالم.. في هذا الوقت تبرق الدلالة وتزداد الاحتمالات فتصير الإجابات غير شافية، ويصبح المحاور في شوق شديد إلى الارتواء لكن الصوفي الزاهد يخشى على المحب فلا يمنحه سوى قطرة..

إنه يذكرنا دائماً برواياته التي تأخذنا من السطح إلى العمق.. من الواقع إلى الميتافيزيقا.. ثم تتركنا هنا.. أو هناك.. معلقين بين السماء والأرض.. بين الأرض والناس.. الناس تتشبث بالحلم.. والحلم هو أقرب لحظات اللاوعي وأكثرها صدقاً.. والصدق – للأسف الشديد – تفسده السياسة.

يقول الطيب صالح: "في قناعتي أن الإبداع الروائي أشمل وأعمق من السياسة.. إنه يحتوي السياسة حتى لو لم يرد الكاتب ذلك.. والسياسيون سواء أكانوا شخوصا أم رموزا هم دلالات على أوضاع ما في المجتمع ، لكن السياسة لا تتناول الفن الروائي ولا تتدخل في الإبداع الروائي، لأنها

تفسد الصدق الفني فلا يكون إبداعا.. والروائـــي لا يـــصدر أحكامـــا سياسية أو يدعو إلى توجهات بعينها، لأن الأصل في الروايـــة أن يـــشعر القارئ بحريته وأن يمتلك القدرة على الخيال ورســـم صـــوره لحاضـــره ومستقبله".

إن الطيب صالح حينما يقول رأيا مثل هذا جمع فيه حرية الكاتب وحرية القارئ بعيداً عن تأثيرات السياسة إنما هو يتحدث في الواقع عن كاتب لا يعيش دائما في جغرافيا العالم العربي.. فكم من أدباء وروائـــيين ذهبت بهم أعمالهم إلى نهايات مأساوية.. وكم من قـــارئ حـــرم مـــن كتابات هذا الأديب أوذاك.. والطيب صالح نفسه يقول في ذات الوقـــت الذي قال فيه الفقرة السابقة حديثا يؤكد استلاب الكاتب العربي خاصة.. "النص الروائي يتعرض لعقبات وضغوط وقيود تأتي جميعاً من خارجـــه، فهنالك رقابة مكثفة، وهنالك تهديدات دائمة بالسجن والنفي، وهو مـــا يؤدي إلى إشكالية لدى الكاتب فيقدم في نـــصوصه تجربـــة مواجهتـــها ومحاولات الخلاص والتحرر منها، وهو مـــا أدى إلى ظهـــور اتجاهـــات تصنيف في الرواية مثل رواية (السجن) وراوية (المنفى).

ومع أن كاتبنا قضي ما يقارب من ثلثي عمـــره خـــارج وطنـــه السودان وعاش بعيداً عن السلطة المباشرة لهذا البلد غير أنه هـــو الآخـــر تعرض لانتهاكات سياسية لما كان قد كتبه.. فلسنوات عديدة كانـــت روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) تدرس في أقسام وكليات الآداب في الجامعات.. ولمجرد أن أبدي هذا الأديب آراء حادة وانتقادية للـــسلطة في

السودان ولو من بعيد وخارج الحدود، حتى صدر بعد ذلك - وبوقت ليس مباشرا - قرار حكومي بمنع تدريس هذه الرواية في تلك الجامعات.. ويكشف صاحب الرواية أوراقا أخرى لم يكن يعرفها القارئ كانت سببا مضافا في أن تمنع الحكومة السودانية تلك الرواية من جامعاتها، وتعتبر الطيب صالح بكل صراحة واحدا من أنداد السلطة.

إن الطيب الصالح الذي يعيش بعدا بعيداً عن وطنه جعله ذلك يتحصن من مضايقات واستفزازات عديدة كان ومازال الأدباء العرب يعانون منها.. سواء من قبل السلطات الحاكمة أو من قبل أحزاب وقوى المعارضة، فالأديب والمبدع إذا لم يكن مع السلطة فإنها تنظر له بعين القلق والشك في أن يكون مع المعارضة.. ولو كان الأديب مع السلطة فلن يسلم من اتهامات شتى تكيلها له قوى المعارضة.

وغير أن الأمر ولسنوات طويلة اختلف تماما مع الطيب صالح، فهو، وهو بعيد قدم إبداعاته على سنوات غربته المتلاحقة والمستمرة وإلى اليوم لم يحصل له مع السلطة أي تشاحنات أو أزمات إلا في فترة مجيء حكومة البشير.. كما بقيت علاقته مع قوى المعارضة متوافقة وطيبة.. وقبل أن ننتقل إلى الاهتمامات السياسية وتأثيراتها في روايات وأعمال الطيب صالح.. نسمع منه ردود أفعاله حول قرار منع روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) في أن تدرس في الجامعات السودانية.

يقول الطيب صالح: كل ما أستطيع أن أقوله هو الإحساس بالدهشة ثم الحزن.. الدهشة سببها أن هذا العمل له الآن أكثر من ثلاثين عاما منذ أن نشر

باللغة العربية وترجم نحو عشرين لغة عالمية، بما فيها جميع اللغات الكـــبرى في العالم.. وكتبت عنه دراسات، فما السبب الذي جعل هؤلاء الأخوة فجـــأة يجدونه غير لائق لأن يدرس في الجامعات، والحزن سببه أن هـــذا يعـــني أن المسئولين في السودان الآن لا يتخذون قرارات منطقية عاقلة فيها أية حكمة.. وهذا يعني أن الذين اتخذوا هذا القرار، وأنا لا أعلم من هم هل وزير التعلـــيم العالي هل هو وزير الإعلام - هؤلاء يتصرفون بطريقة هـــستيرية، تؤكـــد الصورة المنفرة في العالم عن السودان الآن، فهي دولة لم تعد تتصرف بحسب الأصول والقواعد التي تتصرف بها الدول العاقلة.. وأنا أرى أن هذا العمل - منع الكتب وإحراق الكتب - ضمن أعمال لا معنى لها، تؤكـــد صـــورة في أذهان العالم بأن هذه النظم نظم هشة وليست واثقة من نفسها وتذكر الناس بالفترة النازية حين منعوا الكتب وأحرقوا وأرهبوا المفكرين والكتاب".

وهكذا فإن الضرر حينما كان حاداً على هذا الأديب جـــاء رد فعلـــه بنفس الحدة، وكان لابد أن يدخل الأديب شاء أو أبى في معركة الـــسياسة.. وأن يقول كلمته الفصل.. ولكن هل كان هذا الحال هو نفسه مع الطيـــب الصالح في زمن ماضٍ ما..؟.. لا بطبيعة الحال، فالطيب الصالح لم ينـــضم إلى أي حزب سياسي مع أنه كان يتمتع بعلاقات واسعة وقويـــة مـــع أغلـــب السياسيين السودانيين.. وبقي كما يقول المثل "يمسك بالعصا من الوســـط"، فمع السياسيين اليساريين المتطرفين منهم له علاقات حميمة، وهذه العلاقات له مثلها مع سياسيين وقوى وطنية في أقصى اليمين.. ولكن كيف يمكن أن نفهم علاقة الطيب صالح بالسياسة قبل أن نعود معه مرة أخرى إلى بدايات حياته لنلقي الضوء على هذا الجانب.

بعيدا عن السياسة

يذكر صاحب "موسم الهجرة إلى الشمال"، "الواقع أنـــني ومنـــذ المرحلة الثانوية ابتعدت عن التحزب، رغم أن ذلك لم يكن في تلك الفترة أمراً سهلاً فعندما كنا ندرس في مدرسة (وادي سيدنا) الثانويـــة كـــان الصراع ينحصر على أشده بين الشيوعيين والإسلاميين كنت آنذاك أقوم بأداء الفرائض، وأحافظ على الدين، لكني لست متدينا بالمعنى الـــسياسي والأيدلوجي للكلمة كنت أحضر اجتماعات الإسلاميين والـــشيوعيين، وأميل إلى الحديث في الجمعيات الأدبية، وفي الوقت نفـــسه أنفـــر مـــن المناظرات السياسية والانطباع السائد لدى أقراني من الطلاب أنني "طالب شاطر، له اهتمامات أدبية".

ويذكر الطيب الصالح من خلال أحاديث كثيرة وهـــو يعـــود إلى مرحلة الشباب بأنه والسياسة لم يكونا متوافقين.. ولم يكن متحمساً لها، ففي السودان وخلال أيام الجامعة حينما كان يلتقي مع مجموعات مـــن الطلاب السياسيين من باب الاطلاع لا الانتماء فإنه لا يستمر في سمـــاع نقاشاتهم:

"كنا نفترش الأرض في ميادين الجامعة نتذاكر حول أشياء عديدة.. ونتبادل الرؤى والأفكار.. وبعد فترة لم أعد أجالسهم، فقـــد تركتـــهم ومضيت إلى حال سبيلي".

ويبدو أن هجرته إلى بريطانيا ساعدت كثيراً أن ينسلخ مـــن أيـــة تأثيرات سياسية مباشرة وأخذ يعيش فضاءً واسعا من الحرية التي لم يكن

يتوقعها أو يحلم بها.. غبر أنه بقي وفيا وحميمياً مع بلـــده: "أنـــا أحـــب السودان حباً شديداً بطبيعة الحال .. وولائي كما أقول دائما للأمـــة في صيرورتها الدائمة المستديمة.. وهـــذا التـــزام أبـــدي، وواضـــح أن آراء السياسيين تتبدل تبعا للظروف والتقلبات السياسية وهم يريـــدون مـــن المفكر أن يتبدل معهم، وهذه مسألة متعبة، وأقرب مثال جعفر النميري، فقد كان اشتراكيا فأراد أن يكون الجميع اشتراكيين مثله.. ثم تحـــول إلى ليبرالي وأراد الجميع على شاكلته، وفجأة تحول إلى مسلم متشدد، وطلب ممن معه أن يتأسلموا.. لذلك أدخل من عمل معه في تناقضات شديدة.. وأعتقد أنه كان من الأفضل لفئة المثقفين الذين عملوا معه البقاء بعيدا عن هذه التقلبات المزاجية والأهواء المتناقضة".

والحال كذلك فإن الطيب صالح يدري أو لا يدري فإنه يوقع نفسه في مأزق آخر عندما يبقى يصرح حتى نهاية الأمر بأنه ليس سياســـيا.. في حين أنه في الوقت ذاته عندما يتحدث عن أعماله وروايته فإن الجانـــب السياسي هو أول ما يحضر في أحاديثه، وهنا تكون لبنة التناقض لديـــه.. خاصة وهو قد أصبح بعمر لابد أن يقول كلمته ويوضح رؤيته وموقفـــه الأيدلوجي في زمن صار فيه وطنه السودان يعج بالتحركات والأحـــزاب والأنشطة السياسية التي تبحث كل منها على دور وموقع ســـواء أكـــان تاريخيا أو سياسيا أو صولجان الحكم.. وليس يكفي مثلا أن ينـــوه هـــذا الأديب عن اعتزازه بهذه الحركة السياسية أو تلك، ويوقع بياناً مع أخرى كما حصل مثلا في (إعلان قرطاج) عام ١٩٩٤أو غيره من البيانات التي تصدرها قوى سياسية مختلفة.

ولعل هذا الأمر يبدو طبيعيا بالنسبة للأدباء والكتاب في أوروبا والغرب.. بيد أن التشكيل السياسي العربي لا يتوافق مع أديب له نزعة توفيقية يلائمها مع غالبية الأحزاب والاتجاهات حتى لوجاء ذلك مع زاوية الإعلان والدعاية.. في الغرب مثلاً يحضر أديب أو كاتب يساري تجمعاً تقيمه منظمات يمينية.. والعكس يحصل في أحايين أخرى.. ولابد أن نقيم بأن الهجرة والعيش بعيدا عن الوطن والارتباط الاجتماعي مع تشكيل اجتماعي آخر لسنوات ليست قليلة سوف تلقى كلها بظلالها على تركيبة الأدب العربي، وتجعل هذا الأديب المهاجر والذي يحمل مواصفات الطيب صالح تحديدا يمارس حياته بجرأة واضحة.. ولا يخضع للقيود التي يخضع لها الكاتب في داخل السودان.

أجل.. لقد ساعدت السنوات الطويلة من العيش والعمل والارتباط الاجتماعي في بريطانيا أو فرنسا أو بلدان عربية أخرى بالنسبة للطيب صالح أن يعتبر نفسه يعيش في عالم مختلف أعطاه نتائج مختلفة.. هذا لأنه تعرض ومنذ سنوات شبابه الأولى إلى مؤثرات فكرية متنوعة أعطته فرصاً حقيقية لمناقشة كل القضايا التي عانى منها وطنه وبكل حرية.. غير أنه – الكاتب – بقي نائياً عن أي التزام سياسي.. وهكذا ومثلما تعددت واختلطت رؤاه السياسية فقد تعددت تلك الصفات التي خلعت عليه من قبل نقاد وأدباء عديدين.. فالبعض اعتبره كاتباً سودانياً قطرياً لم يخرج من ثوب الشخصية السودانية أبدا مع أنه جال كثيرا في بلاد الله، وعاش سنوات في الغرب وآخرون قالوا إنه سيبقى رغم كل ما قيل ويقال كاتباً

عربياً.. وبعض آخر وصفوه بأنه كاتب إفريقي وتلك معضلة لن نـصل إلى حلها إلا من خلال ما يقوله الطيب صـالح، "لا أنكـر أننـا نحـن السودانيين في وضع خاص، نحن عرب، وربما سحنتنا وسماتنا لا تدل على ذلك.. ولكننا من الناحية الوجدانية ومن ناحية اللغة من أعرب العرب.. السوداني العربي كأنما هو باستمرار مضطر إلى أن يثبت عروبته وبعـضنا يمل هذا والبعض الآخر يقول "في ستين داهية"، ولكن أنا أؤمـن بـأن العروبة لا تأتي من قول أحدهم لك أنت عربي أو اعترافه بعروبتـك.. أنت تشعر بعروبتك وكفى.. وفي هذه الأيام إذا كانت العروبة نادياً فهي ليست نادياً جذاباً.. ولكن لدينا مصادر أخرى، التراث القديم في النوبة مثلاً، وفي عرب السودان أناس أقرب إلي غرب إفريقيا.. وفي الجنـوب جماعات أقرب إلى أواسط غرب إفريقيا.. فالـسودان ملتقـى تيـارات وتفاعلات كثيرة جداً.. ولعلنا بين العرب لا نشبه أحدا "فهل كانـت الرؤية الأيدلوجية التي تعيش في عقلية الطيب صالح متوافقة تماما مع مـا قاله هو عن بلده.. أي رؤية فسيفسائية، تتجمع عندها ملتقى التيـارات والتفاعلات..؟

مما جعل بالتالي جميع رواياته وكتاباته يستقبلها عموم السودانيين دون فرق بين شمالي وجنوبي، بين يساري ويميني .. وهل يكـون هـذا الأديب قد استطاع بحق أن يقلب المعادلة القائلـة (الـسياسة تحتـوي الإبداع).. ليكون الإبداع محتوياً للسياسة ليقدم حلا وسطا هو العـودة للجذور لكن مع استقبال الجديد القادم من الشمال.. تطـابق مفهـوم

الإبداع مع السياسة ولكن أين اجتمعت تماما وتطابقت عند الطيب صالح قضية الإبداع مع قضية السياسة: "قد يكون ذلك قد حصل.. هذا لأنني عندما كتبت "موسم الهجرة" والتي ظهرت قبيل حرب ١٩٦٧سبت هذه الرواية – زخما – ما بعد الهزيمة، حينما كان الصراع حاداً بين الشرق والغرب.. وذاعت الرواية أيضا في العالم، ولا أدري إن كانت تعبر عن حالة وجودية تتعدى الظروف الموجودة في العالم العربي.. لكن فيها بالتأكيد عنصر الإثارة، وهي من هذا المنحى أقرب منالاً للقارئ سواء فهم ما أريد قوله أم لم يفهم.. المهم أنه يقرأ الرواية وفيها أحداث مشوقة وقتل ومحاكمات"٠

ويقول الطيب الصالح: رواية "عرس الزين" كتبتها في لندن وكنت أريد أن أحتفي فيها بالعالم الذي فقدته وهو عالم القرية السودانية.. ووقتها كنت مثل المغني الذي لم يعرف بعد .. فهو يغني في الحفلات الخاصة، لذا فإني كتبت هذه الرواية لا لغرض الشهرة ولا لأي شيء آخر، بل لمجرد أن يصل صوتي إلى الناس الذين أحبهم.. في (ضو البيت) و(مريود) بدأت أغوص أعمق في تركيبة المجتمع السوداني وتاريخه وأصل إلى داخله.. وأرجو ألا أكون مدعياً منذ البداية، ومنذ أن كتبت قصة قصيرة اسمها (نومة حالمة) أحببت أن أخلق عالماً ملحمياً ميثولوجياً.. وأظن أن الكتابة الملحمية الميثولوجية لم تكن في تلك الأيام محبوبة، فقد كان الظرف حافلاً بمشاكل سياسية وصراعات، والناس يريدون أدباً مباشراً.. أحببت أن أحول أهل هذه القرية إلى شخصيات ملحمية.. وأنا

دائماً أقول إن شخصيات "الإلياذة" هي كشخصيات المزارعين الموجودين في الشمال السوداني أو في أي مكان من العالم العربي.

وأنا أقول أحيانا إن عندنا قضيتين رئيسيتين هما المدينة والسلطة.. هذا واضح في رواية (ضو البيت) حيث الصراع الاجتماعي والسياسي للأجيال.. حتى (بندرشاه) يمثل المدينة والملك.. فبندر هي المدينة وشاه هو الملك، فالإشكالية هي كيف نبني مدنا بالمعنى الحضاري.. كيف نبني الإنسان.. هي إشكالية سياسية.. هنا تطابق عندي مفهوم الإبداع مع السياسة.. من يحتوي من.. في الماضي كانت لدينا مدن حضارية مثل بغداد ودمشق والقاهرة ومراكش وغيرها.. أما اليوم فما هو عندنا عبارة عن مخيمات بالمعنى الحضاري، أناس يسكنون في مكان ما.. أناس يعيشون على أنقاض هذه المدن الحضارية.. عندنا أيضا مشكلة السلطان – الملك الذي نريده لأنفسنا من هو – هارون الرشيد الذي نريده.. المأمون.. المعتصم.. هذه الجدلية هي أساس العمل، وأنا أحب دائما أن أدخل العمل بافتراض قد يقره العمل أو يرفضه أو يتركه مفتوحا.. في (ضو البيت) و(مريود) تجد هذا الإحساس بصراع الأجيال.

أضف أن تاريخنا العربي الإسلامي في السودان بدأ مع ما نسميه بدولة (الفنج) ويسمونها أحيانا – السلطنة الزرقاء – التي نشأت تقريبا في الفترة التي خرج فيها العرب من الأندلس.. إذ وجد بعض المؤرخين قيام دولة عربية إسلامية كبيرة في هذه الأرض الشاسعة نوعا من العزاء عن

ضياع الأندلس، وكان حكام هذه الدولة مستنيرين يحيطون أنفسهم بالعلماء.. لذلك جاء لها علماء من بلاد الشام ومصر والمغرب وبغداد.

استمرت هذه الدولة في السودان إلى أن جاء الحكم العثماني.. ثم جاء الإنجليز.. وبعده الحكم الوطني.. هذه التنوعات.. إلى جانب تنوع البلد واتساع رقعته، شكلت مادة لعمل ما، لكني أحيانا أشعر بأنني لا أملك القدرة على تحمل العبء الذي يجب أن يحمله أناس عديدون يخطر لي أيضا أن أكتب كعالم أثري، فهنالك طبقات متراكمة وعليك أن تحضر لتعثر على إناء خزفي هنا وقصعة هناك .. وغير ذلك وتحاول أن ترسم صورة في محاولة لرسم خريطة فنية للمكان.

التحدي والكتابة

وعن التحدي الذي يواجهه كمبدع يقول: "أكثر تحدٍ أواجهه يتمثل في الصفحات البيضاء، أشعر أنها تخرج لي لسانها وتقول: "لو كنت رجلاً اكتبني"، وأنا في الغالب أرى أن الذي يدفعني للكتابة غير البحث عن الراحة والدفء هو اختمار تجربة ما داخلي فهذا يستفزني للكتابة ويرهقني حتي أفرغه على الورق، وهذا حدث في قصة "الرجل القبرصي" ورواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، فقد كانتا تعبيراً عن اختمار تجربة، ودائماً ما أحدد بداية الرواية، وبعد ذلك أبدأ في تفاصيلها من دون التقيد بخطوط خاصة بالشخصيات والتي أترك لها الحرية في صنع مسارها، وبعض الأعمال تحتاج إلى قراءات عميقة، والغوص في تفاصيل شعبية وأسطورية مثل "عُرس الزين".

وللطيب صالح رأي مدهش أيضاً في مسألة الكتابة.. يقول: الكتابة عمل أكرهه بشدة، فالكتابة ليست كل شيء في الحياة، هناك القراءة والسفر، وأشياء كثيرة ممتعة، أما الكتابة فهي عملية عذاب متصلة، وماذا يمكن أن تفعل الكتابة في الحياة؟، لقد جاء "تولستوي" و"ريتوفسكي" وغيرهما ثم ذهبوا ولا زالت الدنيا كما هي".

والمتابع لكلام الطيب وسخريته يلمح أن الكتابة تقع تحت ضغوط يعاني منها الكاتب والرواية.. يقول الطيب: "النص الروائي يتعرض لعقبات وضغوط وقيود تأتي جميعاً من خارجه، فهناك - كما قلنا - رقابة مكثفة، وهناك تهديدات دائمة بالسجن والنفي، وهو ما يؤدي إلى إشكالية لدى الكاتب فيقدم في نصوصه تجربة مواجهتها ومحاولات الخلاص والتحرر منها، وهو ما أدى إلى ظهور اتجاهات تصنيف في الرواية مثل رواية السجن ورواية المنفى وغيرهما.

- قلت: وما تقييمك للرواية العربية الآن؟

قال: الرواية العربية الآن أصبحت أكثر وضوحاً من ناحية هويتها، خلافاً للفترات السابقة، فهناك بحث عن خصوصية في المكان والتاريخ والناس والاحتكاك والمأزق العربي الراهن، وأظن أن الرواية قادرة أكثر من أي جنس أدبي آخر على رسم خصوصية الهوية العربية، إنها تستمد هويتها من تناولها للناس المنسيين، وأنا من ضمن الناس الذين يؤمنون بإقامة علاقات وثيقة جداً بوسائل التعبير المختلفة من أجل إثراء التجربة الروائية، فكلما أمكن ينبغي الاهتمام بالفن التشكيلي وبالسينما والشعر أيضاً.

أما النقد فلا يزال متلعثما في قسمه الأكبر من وجهة نظر الطيب: "يجوز نظرياً أنه من خلال احتكاك الناقد بالنظريات التي تنتج في الغرب قد اكتسب مفاهيم وأساليب معينة لقراءة العمل، لكن للأسف لم يستطع النقد أن يبلور لنفسه معاييره الخاصة، ولم يقم ببناء نظريته الخاصة، وبالتالي نرى أحياناً ناقداً ينتهج مدرسة نقدية معينة، يختار الأعمال التي تناسب منهجه النقدي، أكثر منه إقبالاً على العمل بنفس مفتوحة، وبرغبة الاكتشاف والتفوق والتعامل الذي يتيح له إمكانية إقامة الأسس الخاصة من خلال العمل ذاته، لذلك أتمنى للمشهد النقدي الخاص بالرواية أن يكتمل ويكون المرشد الحقيقي للقارئ".

السياسة كفكرة

وإذا كان الطيب صالح يرى أن السياسة تفسد الإبداع فإن ذلك لا يعني أنه غير معني بالسياسة أو بالقراءات السياسية لكنه يقرأ السياسة بصفتها فكرة، ويقول: "أحب قراءة السياسة ليس على المستوى اليومي، لكن أقرأ في السياسة بصفتها فكرة، هناك كتاب عندما أقرأ لهم أشعر أنهم يكتبون بطريقة المؤرخين، ويحفرون مثل علماء الآثار، يحفرون طبقات ربما يجدون طوبة أو قطعة رخام فيتخيلون البناء كله، ويحضرني منهم الكاتب الإنجليزي روبرت سيتفنر الذي كتب أحسن كتاب عن عبد الناصر، كتاب "ناصر"، والكاتب الإنجليزي "ليبمان" والأمريكي "جورج كنان" وكان سفيراً أيام كندي، و"فرينتان يروديل" أيضاً.

ومن الكتاب العرب محمد حسنين هيكل.. قرأت له كل ما كتب بالإنجليزي والعربي، هيكل أصبح مؤرخاً، قرأت له كتابا عن علاقة مصر بالاتحاد السوفيتي.. يشرح فيه كيف ورّط عبد الناصر السوفيت في علاقة مع مصر إلى أن أصبحت شريكاً لمصر.

- قلت للطيب صالح: الموت له حضور طاغ في أعمالك الأدبية فما دلالة هذا على المستوى الإبداعي والشخصي؟

قال: على المستوى الإبداعي فهذا ما تناوله النقاد، وهم أكثر مني قدرة على الحديث في هذا الموضوع، والدكتور عبد الرحمن الخانجي تناول دلالة الموت في عملين لي هما "بندر شاه"، و"موسم الهجرة إلى الشمال"، وعالج الموت من خلال محورين: محور موت الأنثى وهو موت آثم يرتبط في أكثر معانيه بغريزة الجنس، ولا يخلو من عنف أو خطيئة.. ومحور موت الرجل، وهو موت نبيل يرتبط بالكبرياء والسمو، ولا يخلو من تضحية ونكران الذات.

- قلت: هل هناك دلالة ما أو مدخل آخر لأعمالك الأدبية بعد كل الأطروحات التي وضعها النقاد عنك؟

قال: لست أدري بعدما يودّع المرء هذه الدنيا، يكون الناس أحراراً في أن يقولوا ما يريدون في هذا الشيء القليل الذي فعلته، إن كانوا يرونه ذا قيمة أو لا، وأنا بالطبع لا أهتم بما سيحدث لاحقاً، ربما كان ذلك أحسن ما عندي، ولدي رغبة شديدة في التعرف والاستطلاع، أريد أن أفهم ما يدور حولي.. هذه العقول العظيمة في مكتبتي أحب أن أتعرف عليها..

أحياناً أنظر إلى مكتبتي في بيتي وأقول إن كل كتاب فيها عبارة عن عقل حديث وشخصية بين الدفتين، وشيء مما عاشه ابن آدم وفكر به.. أريـــد أن أعرف وأستطلع، وإذا ما وجدت لنفسي حيزاً صغيراً وسط العقـــول العظيمة فهذا جيد جداً، وإن لم أجد فلا يعنيني ذلك.

قال الطيب صالح على لسان أبطال رواياته:

"ولماذا يا أخي تبعد عني هذا البعاد؟ أما كفاك وكفـــاني؟ ترفـــق بنفسك يا حبيبي فإنك قد تبوأت رتبة قلّ من وصل إليها مـــن المحـــبين الخاشعين، وإنني أركض فلا أكاد ألحق بغبارك"؟

رواية مريود ص٨٥

"رحم الله ضوالبيت، دفع بروحه ثمن العصيدة التي أكلها معنا أول يوم، مضى كالحلم وكأنه ما كان، لولا ابنه عيسى الذي ولد بعد موتـــه بثلاثة أشهر ننظر إلى وجهه فلا نرى ضوالبيت وننظر إلى عينيه، فإذا هو ضوالبيت الخالق الناطق"

بندر شاه ص ١٠٤

"ويلهج لسان الزين بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كـــان فـــلا تلبث الآذان أن ترهف وما تلبث العيون أن تنتبه وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد، وتأخذ يد الفتاة وحين يقام العرس تفتش عن الزين فتجده إما مسخرا يملأ القلل والأزيار بالماء أو واقفا في نصف الـــساحة عـــاري الصدر في يده فأس يكسر به الحطب، أو بين النساء في المطبخ يعـــابثهن

ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه مـــا يفتـــأ يـــضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار وتبدأ قصة حب أخرى".

عرس الزين ص ٣١

"أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في إفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنـــك تخرج من الغابة لأول مرة.

موسم الهجرة للشمال

ما رأيت حبا مثل حب تلك الأم، وما شفت حنانا مثل حنان تلك الأم، ملأت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب، ويوم الحـــساب، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال، شايلين صلاتهم وزكـــاتهم وحجهم وصيامهم، وهجودهم وسجودهم، سوف أقول: يـــا صـــاحب الجلال والجبروت، عبدك المسكين، الطاهر ولد بلال، ولد حـــواء بنـــت العريبي، يقف بين يديك خالي الجراب، مقطع الأسباب، ما عنده شـــيء يضعه في ميزان عدلك سوي المحبة".

مريود ص ٦٦

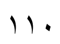
"يا مريود أنت لا شيء، أنت لا أحد يا مريود أنك اخترت جدك وجدك اختار جدك وجدك اختارك لأنكما أرجح في موازين أهل الدنيا، وأبوك أرجح منك ومن جدك في ميزان العدل، لقد أحب بـــلا ملـــل، وأعطي بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على سفر، وفارق على

عجل، حلم أحلام الضعفاء، وتزود من زاد الفقراء ، وراودته نفسه على المجد فزجرها، ولما نادته الحياة.. لما نادته الحياة".

مريود ص٨٨

"ذباب البقر أكل رقبتي والملاريا حرقت جلـــدي والدوســـونتاريا غرست أسنانها في أحشائي - أقيلوا عثرتي يرحمكم الله هـــؤلاء قـــوم لا حاجة لهم بي ولا بواعظ غيري".

الواعظ في "دومة ود حامد" ص ٣٦



البوابة الثانية

شهادات إنسانية عن قرب



الصديق الكاتب:
نبع الصفا والمودة والحكمة

إبراهيم الصلحي

يقول الطيب صالح، على لسان الطاهر ود الرواسي أحد أشخاصه في قصة "مريود"، للراوي محيميد "الإنسان يا محيميد.. الحياة يا محيميد ما فيها غير حاجتين اثنتين: الصداقة والمحبة.. ما تقول لي لا حسب ولا نسب ولا مال.. ابن آدم إذ كان ترك الدنيا، وعنده ثقة إنسان واحد يكون كسبان، وأنا المولى عز وجل أكرمني بالحيل، أنعم عبي بدل النعمة نعمتين: صداقة محجوب وحب فاطمة بت جبر الدار".

المحبة كلمة طيبة جامعة، كثيرًا ما سمعتها تتردد على فم الطيب صالح، وهي كلمة كبرى لا يلقيها في كلامه جزافًا، إذ هي ديدن حياته، وفي اعتقادي أنها المدخل الحقيقي النافذ مباشرة إلى لب شخصه وأدبه عبر

عنها كثيرًا في كل ما كتب كلمة أصلها ثابت في الأرض وفرعها يعـــانق الهواء والإنسان والسماء.

والطيب قد أحب الأرض والناس عن معرفة أكيدة بحالهم وأحوالهم فكانت له المحبة في القلوب. يقول بهذا الصدد أخوه مولانا/ بشير محمـــد صالح، قاضي المحكمة العليا في السودان، والمستشار القانوني حاليًا لمنظمة الخليج للاستشارات الصناعية في دولة قطر: "كنا حين يعود الطيب مـــن سفر له، وتلمحه جارة لنا قادمًا من مرفأ الباخرة، علـــى ظهـــر حمـــار كالعادة، تسبق مقدمه مهرولة إلى بيتنا قائلة لوالدتنا: "البشارة.. البشارة يا عائشة.. ولدك جاء"، ويضيف مولانا بشر ضاحكًا: "وبينما كنت آتي أنا لزيارة الأهل في القرية، وقد كنت كثير التردد عليهم بين حين وآخر، خصوصًا أيام الإجازات، وأقوم بحل مشكلة من كانت لديـــه مـــشكلة، علاوة على كتابة الرسائل لمن كان لا يفك الخط منهم، لكن كما تعلم بشيء من التحقق بما يتطلبه الوضع، ولربما كان بشيء من الدقة والخشونة التي تعهدها في" ويضيف: " حين تلمحني تلك الجارة و"تتوكدني" وقـــد كادت أن تهرول لنيل حق البشارة من والدتنا، رحمة الله عليها، على ظن أن القادم على ظهر الحمار من مرفأ الباخرة هو أخي الطيـــب، تكتفـــي بقولها: "هي بس .. ده بشير، مولانا الطيب".

ومولانا: بشير الشقيق الأصغر للطيب صالح، رجل شهم وشـــاعر ملهم عالم بالله، لازمته سنوات عدة بالدوحة، ولا أكاد أفارق مجلـــسه، وداره العامرة ملتقي أهل العلم والتقوي ما انفردنا إلا ودار الحديث بيننا

عن ذكريات البلد وأحواله في ماضيه وحاضره وما انفض مجلسنا إلا وذكرنا أخاه الطيب، ودعونا له بالخير.

وبهذا وقفت على كثير من تفاصيل أحوال بلدهم التي نشأ في ربوعها وظروف الحياة فيها، بين نهر وزرع وضرع وقصص وأشعار وأهازيج يرويها مولانا بشير، وقد حوت ذاكرته الكثير والعديد منها، حتي تكونت لدي حصيلة وصورة واضحة المعالم لبلدهم في شمال السودان، بما فيها من أناس أهل بلد، ووافدين عليهم من عرب صحاري شمال دارفور وكردفان، وأولاد ريف نزحوا من صعيد مصر، وغيرهم من بقايا عهد اقتصادي قديم تحرروا منه منذ زمن، وما اكتنف حياهم من قول وعمل.

التقيت الطيب لأول مرة أثناء فترة الدراسة في المرحلة الثانوية بأم درمان قبل انتقال مدرستنا إلي وادي سيدنا في نهاية عام ١٩٤٥، أيام كان التعليم في تلك المرحلة في السودان يقوم على أساس نمط بريطاني بحت، تأهيلاً للتشرب بنمط حياة المستعمر وخدمة لأغراضه، إذ كانت وتيرة الحياة المدرسية على غير ما ألفناه في المرحلتين السابقتين الابتدائية والمتوسطة، فكانت جميع العلوم تدرس باللغة الإنجليزية ما عدا الدين واللغة العربية، ولو كانوا قد وجدوا إليهما سبيلاً لما أبقوا على تدريسهما لنا بلغتنا العربية الأم. والهدف في الغالب الأعم كان لخلق الجيل المسخ الذي يعمل وفق: إرادهم بقدر محدود من العلم بما يفي بالغرض ولعل هذا الوضع الذي دأبوا على اتباعه، هو الذي أدى إلى تباين في الأخذ والعطاء.

نشأت عنه بطبيعة الحال روح التمرد مع نمو وتزايد الشعور الوطني الطاغي ضد المستعمر، وضد ثقافته الاستعمارية الدخيلة.

وتوثقت عري الصداقة بيني والطيب صالح خلال السنة الرابعة عام ١٩٤٨، حين كنا ضمن فريق ضمنا نحن الاثنين في رحلة مدرسية إلى جنوب السودان، شملت أقاصي حدود المديرية الاستوائية ومناطق تماسها مع كل من الكونغو وأوغندا.

ومنذ تلك الفترة، ولأكثر من نصف قرن مضى وإلى يومنا هذا، وأواصر المودة بيننا حبل متين لا ينقطع، بل ازداد مع مرور الأيام قوة ومنع ومحبة، والطيب هو الود والمحبة بذاتهما، خلوق، وفي، بشوش دائم البشر، ندر أن تلقاه عابسًا حتى في ساعات الضيق (إذا حلت)، يتجاوزها عادة برحابة صدر وابتسامة تعلو شفتيه على الدوام.

وللحقيقة أذكر أني كنت وإلى أواخر الخمسينيات خالي الذهن مما لدى الطيب من قدرات إبداعية في الكتابة، رغم علمي سلفًا بأنه كثير القراءة واسع الاطلاع كنت أجهل تمامًا أنه قاص متميز، لسرده القصصي نكهة خاصة، فريدة في نوعها، تعبق بعبير الإنسان في صدق وصفاء لا يشوبه كدر. يتحدث عن مجتمع القرية فيصف الإنسان رغم اختلاف البيئات والنشأة، بأنه الإنسان نفسه.

كنت خالي الذهن مما لدى الطيب من طاقة إبداعية لا تضارع، إلى أن وصلني كتاب من توفيق صايغ، صاحب مجلة "حوار" التي كان يصدرها من بيروت وأنا في الخرطوم طالبًا إلى تحضير رسوم لمجموعة

قصص "دومة ود حامد"، ثم تصميم كتاب "عرس الزين"، ولا أذكر أيهما كان الأسبق. وبإطلاعي على نصوص تلك المجموعة القصصية والروائية، ذهلت وتملكني العجب أكل هذا يا طيب وأنت لا تذكر عنه شيئًا؟!!

الطيب كان ولا يزال مثالاً حيًا للتواضع الجم، يؤثر ويقدم غيره على نفسه، تعود أن يعمل في صمت دون جلبه أو تباه يجلب إليه الأنظار.. صبور.. وفي هذا يقول عن أهله في "موسم الهجرة إلى الشمال" (معبرًا في حقيقة الأمر عن نفسه)، إنهم أناس "تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر"، والنهر نهر النيل، واهب الحياة عن الإله للأحياء، يجري سخاء ورخاء دون انقطاع.

والشجر النخيل المعطاء، في صمت يتحمل الحر والرياح والجفاف، صامدًا مشرعًا جريده دائم الخضرة شامخًا في إباء وشمم نحو عنان السماء رمزًا دائمًا للقناعة وقوة الشكيمة والجلد لا يفارق مخيلة الطيب، وإليه يستند جذعًا كلما عاد.

يقول في "موسم الهجرة إلي الشمال" يصف شعوره على لسان لراوي، لحظه لقائه جده في القرية كلما عاد إليها من سفر بأنه "إحساس صاف بالعجب" يقول عن جده: "حين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة، ورائحة الطفل الرضيع"، ثم يترسل مضيفًا: "نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحون فقراء، ولكني حين أعانق جدي أحس بالغنى كأنني نغمة من

دقات قلب الكون نفسه إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب، بل كـشجيرات الـسيال في صحاري السودان، سميكة اللحي حادة الأشواك تقهر المـوت لأنها لا تسرف في الحياة وهذا وجه العجب.

لله درك يا طيب من قص ثر مبدع دقيق الوصف لحـال أهلنـا في ربوع السودان حال الإنسان الذي طبع على أن يقنع من حياته، وهـو راض عنها بالقليل العظيم الكبير في معناه، أمر قد لا يتأتي فهمه وإدراكه لأهل الوفرة والرفاة.

يقول عن جده: "إنه عاش أصلاً رغم الطاغون والمجاعات والحروب وفساد الحكام. وها هو ذا يقترب من عامه المائة. أسنانه جميعًا في فمـه. عيناه صغيرتان باهتتان تحسب أنهما لا تريان، لكنه ينظر بهما في حلكـة الليل.

جسمه الضئيل ينكمش على ذاته، عظام وعروق وجلد وعضلات وليس فيه واحدة من الشحم، يقفز فوق الحمار نشيطًا، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلي الجامع".

ويبدع الطيب في استعراض القيم المجتمعية التي يتصف بها السوداني المسلم من تسامح وسعة صدر وتقبل للآخر، إيمانًا منه بالقدر والقـضاء يتحدث على لسان أهلنا في شمال السودان بلغة عربية دارجة فـصحى، محددة اللفظ والهدف وهنا تبرز ميزة الطيب في الربط الوثيق بين اللهجـة المحلية الدارجة بالعربية الفصحى، بحيث تكون لدى السامع العربي مزيجًـا

متناسقًا غير مختل التوازن يكون للمعنى فيه بعد تصويري تكاد تبصر فيه من خلال وقع الكلمات والتعابير اللفظية معالم هيئات المتحدث وتلمس فيه ملامح وجهه وتعبيره، ناهيك عما تضيفة اللهجة المحلية المتحدث بها، على النص من بلاغة وحيوية دافقة، وغنى يثري إطاره العام.

واستمع إليه حين يصف في "ضو البيت" ما دار يوم خرج إليهم من النهر غريب أبيض البشرة أزرق العينين، جريحًا فاقدًا للذاكرة تقبلوه عن طيب خاطر فرعوه، حتى شفي وأكرموا مثواه بمنحه أرضًا يفلحها.

يقول الطيب على لسان محمود للرجل الغريب أخضر العينين الذي أسموه "ضو البيت": "يا عبد الله نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديان، حياتنا كد وشطف، لكن قلوبنا عامرة بالرضا قابلين بقسمتنا التي قسمها الله لنا، نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا متحزمين ومتلزمين على نوايب الزمن وصروف القدر، الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد القليل "إل عندنا عملناه بسواعدنا"، ما تعدينا على حقوق إنسان، ولا أكلنا ربا ولا سحتًا، ناس سلام وقت السلام، وناس غضب وقت الغضب إل ما يعرفنا يظن إننا ضعاف، إذا نفخنا الهواء يرمينا، لكن في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول، وأنت يا عبد الله جيتنا من حيث لا ندري، كقضاء الله وقدره ألقاك الموج على أبوابنا، ما نعلم أنت مين وقاصد وين.. طالب خير أوطالب شر، مهما كان نحن قبلناك بين ظهرانينا زي ما نقبل الحر والبرد

والموت والحياة، تقيم معنا لك ما لنا وعليك ما علينا، وإذا كنت خير تجد عندنا كل خير، وإذا كنت شر فالله حسبنا ونعم الوكيل.

تأمل قول محجوب في موضوع الدين، وهو إقرار صريح بما هو واقع: "يا ضو البيت نحن ناس مسلمين لكن ما عندنا تشدد في موضوع الدين، كل نفس بما كسبت، والله مخير في عباده، ولو كنا نعلم لك ملة لتركناك على ملتك، أما وأنك لا تعرف أنت من أي دين، فإنه رأيك ندخلك معنا ملة الإسلام، نحن نكسب ثواب وأنت تنجو من غضب الله، ويسهل عليك التعامل مع ناس البلد إذا حبيت تستقر من ناحية الزواج والصهر".

حدث ذلك يوم طلب إليهم "ضو البيت" أن يزوجوه على سنة الله ورسوله، فاحتفلوا في تتابع سريع وفي يوم واحد ابتداء بسمايته ثم ختانه، ومن ثم تزويجه من فاطمة بت جبر الدار، إحدى فتيات القرية التي ارتضته زوجًا لها.

يشير الطيب إلى هذا الإيقاع السريع للأحداث بما يستوجبه التسامح من التزام فيقول: "اليوم سوف تتلاحم الأجزاء فيصبح كل واحد أحدًا"، وهكذا يصور تتابع الحدث في تطابق موجز، اختصارًا للزمن كما يحدث عادة في عالم الأحلام، رغم ذلك فهذا أمر غير بعيد أو بمستغرب في بلد كشمال السودان حيث يتوخي أهلونا البساطة في جميع أمور الحياة من تعامل ومعاش، وتقبل الآخر وكأنه منا ولنا، دون فرز.

وقد سبق في ماضي حياتنا حين قدم آباؤنا من الجزيرة العربية بادية عبر البحر الأحمر، بحثًا عن الماء والكلأ، ومن طريق مجرى النيل قديمًا وحديثًا، ومن البوابة الغربية أخيرًا وليس آخرًا، عبر رمال الصحراء الكبرى، رجالاً في الغالب قدموا دون نساء فارتبطوا بأهل البلد معاشًا ومصاهرة دون سؤال، كما حدث أن تقبلنا الإسلام طواعية ورضا، دون إرغام على حد سيف وهكذا جئنا مزيجًا فطريًا من التسامح والقبول يجد في ظله الغريب الوافد الناس على الدوام أهلاً، والدار على قليلها وكثيرها سهلاً.

بهذا الخصوص يقول الطيب في "ضو البيت" على لسان مختار يرويه عما سمعه من أبيه حسب الرسول يقول، حين رأى الغريب أبيض البشرة يطلع عليه جريحًا من النهر "أهلاً وسهلاً"، وقلت له: "أهلاً وألف مرحبًا، بالضيف الغريب الجايي من بلاد الله، وصلت محل عشا الضيفان، وجمة الفتران"، وكنت قد عدت كما أنا وأكثر، حسب الرسول ود مختار الخمجان، شكال الصريمة ومخلص اليتيمة، ناره ما تنطفي وضيفه ما ينكفى، ونحن يعلم الله حالتنا حال، عندنا عترة وحداة ترضع، وتور وحيد بدون بقرة، لا حمار ولا سرج، وبيتنا قطية لسع ما بنيناها طين، ومختار ابني طفل رضيع في البيت شوية دخن لا سمن ولا لحم، زارعين القمح ومنتظرين فرج الله، ميمونة أم مختار عملت عصيدة دخن بشوية لبن وكنت أنا أتباطأ في الأكل علشان يأكل الضيف. ديك الأيام ما كنا عرفنا الشاي والبن نشرب الحلبة باللبن والتمر والسمن ونحن ما عندنا لا دا، ولا دا".

ذلك غيض من فيض جعل من الطيب، بما له من قدرات. مبـــدعًا لصيق الصلة بتراث أهله وبيئته، محبًا له، ومقدرًا لقيمهم في الحياة، مدركًا وملتزمًا بأن عليه دينًا في عنقه، يوجب عليه الوفاء ردًا للجميل.

في حوار أجراه معه في تونس، كل من محيي الدين صبحي وخلدون الشمعة، ورد نصه في كتاب: "الطيب الصالح.. عبقري الرواية العربيـــة"، إصدار دار العودة في بيروت، بشأن روايته "عرس الزين"، يقول الطيب: "من حسن الحظ في هذه الرواية بالذات، وهي رواية أحبـــها وأســـتطيع شخصيًا قراءتها أحيانًا دون الإحساس بالخجل، ذلك الإحـــساس الـــذي يحسه الكاتب تجاه عمله إن مادة الرواية وشخصياتها ساعدتني على إيجاد هذا الاحتفاء بمجتمع أعرفه وعشت فيه، والشخصيات فيه هي أهلي كما عرفتهم إلى حد كبير، بيد أن في العمل طبعًا عنصر الفـــن المتعمـــد، أي الدفع بالشخصية إلى أقصى مدى ممكن، أقصى حدود تحملها".

ويقول موضحًا: "كنت أريد أن أكتب بغرض الاحتفال بمجتمع أنا عهدته وأحببته، كنت أريد أرد له الجميل بأن أحتفي به في قصة، والقصة كلها قائمة في الواقع على أساس إيجابي كامل، مع أن الشخصية الأساسية تبدو وكأن إيجابياتها محدودة ثم تنفجر أعتقد من البداية كان اتجـــاهي أن أختار عمدًا شخصية تبدو كأنها لا تستطيع القيام بدورها كما يبدو وفي نهاية العمل أحاول أن أخلق لها هذا الدور.

وفي الكتاب نفسه أعلاه يتحدث الطيب عن علاقتـــه بالـــسودان، وذلك في حوار أجرته معه الصحافية اللبنانية هدى الحـــسيني، يقـــول:

"علاقتي بالسودان علاقة انتماء داخلي عميق مع شيء من العاطفة". ثم يستطرد قائلاً: "علاقة الكاتب ببلده علاقة تقوم على الحب المسرف والضيق المسرف، والضيق سببه الحب لأن الإنسان يحب المكان والأرض والذكريات".

وعند سؤال له إن كان حزينًا، يقول الطيب: "في الداخل أجل لكنني لا أدري لماذا؟ كل ما أعرفه أن في داخل النفس، بركة واسعة من الأحزان تثير فيه كوامن الشجن"، ويضيف قائلاً: "لا أدخل في الكتابة باندفاع بل باضطرار".

وأنظر إليه حين يضطر مرغمًا للكتابة، ودافعه بلا شك ألم، مصدره حب أكيد للوطن، ولقيم مجتمعية ووجدانية فيه، يؤمن بها، وظل يذود عنها بكل ما أوتي من قوة ككاتب، وما باليد من حيلة أخرى سوى الكتابة، وقد حباه الله بالحكمة في حاله ومقاله، وبقدر وفير من مجامع الكلم.

أذكر حين أناخ على السودان انقلاب عسكري قبل عقد من الزمان، ورأى الطيب ما آلت إليه الحال، وما حاق بأهلنا من ذل وقهر وعذاب، أن قال متسائلاً في عجب: "من أين جاء هؤلاء؟!" كلمة موجزة كان لها دوي رهيب، وصدى من كل جانب والطيب لا يخشى في قول الحق لومة لائم.

وأذكر كنت أعمل تحت إدارته بالدوحة، حين كان مدير الدائرة الإعلامية في دولة قطر أن جاءنا وزير للخدمة العامة والإصلاح الإداري،

في عهد حكم النميري، يستحثنا على دفع مزيد من ضـــرائب ومكـــوس ودقنية بعد أن أرهقوا كاهلنا بالمساهمات الإلزامية، وبالتحويلات الماليـــة الإلزامية أيضًا، ناهيك عن زيادة رسوم الخدمات القنصلية وما إلى ذلـــك من لي للذراع من حيث يؤلم، تفننوا في ابتداعها كلما أفرغـــوا خرينـــة الدولة من مال عام، فحين جاء دور الطيب في الكلام قال: "يـــا أخـــي الوزير، حلونا من اللف والدوران زيدوا رسوم استخراج جواز الـــسفر لأي حد إنتوا عاوزينو، وخلصونا حتي نرتاح منكم، بدل ما تجونا ناطين علينا كل يوم والتاني" رد عليه الوزير "حيدر كبسون" وقد كان شـــابًا فاضلاً بحق: "قروشكم ح نأخدها.. ح نأخدها، لكن برضو بنجـــيكم"، وكان يضحك مقهقهًا حتى كاد أن يقع من على ظهر كرســـيه علـــى المنصة، فضحك الطيب بدوره وهو يضرب كفًا بكف قـــائلاً للـــوزير الغارق في ضحكه: "لا حول ولا قوة.. والله حكاية".

للطيب في أدبه موقف ثابت إزاء الضعيف المغلوب على أمره تأمله في قصة "نخلة على الجدول" من مجموعة قصص "دومة ود حامد"، ومـــا جرى لشيخ محجوب، الفقير صاحب النخلة التي زرعها حـــتى أثمـــرت وجاءه التاجر حسين يراوده على شرائها منه حين علم بحاجته الماسة إلى ما يكسو به عياله، وحق الخروف، وعيد الأضحية على الأبواب، ووقوف الطيب إلى جانب الفقير المعدم المؤمن بقضاء الله وقـــدره، وأن الخـــالق رازق، ومن ثم صموده في وجه إغراء الحاجة، والحاجة رق، فسد بعزيمته وتوكله واتكاله بابها بقوله للتاجر: "يفتح الله" وعندها جاءه الفرج.

وفي "حفنة تمر" من المجموعة نفسها، نرى ما أقدم عليه الحفيد حين أدرك جشع جده، وسوء استغلاله لظروف مسعود المزارع الفقير المغلوب على أمره يقول الطيب على لسان الحفيد: "أسرعت العدو كأنني أحمل في داخل صدري سرًا أود أن أتخلص منه، ووصلت إلى حافة النهر قريبًا من منحناه وراء غابة الطلح، ولست أعرف السبب، ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلت". وكان ذلك حفنة تمر أعطاه إيهـــا جده، من حصاد نخل أخذه من مزارع معدم سدادًا لدين مستحق عليـــه، تبقى منه خمسون جنيهًا ما زالت على رقبته يأمل الجد في حالة عدم تمكنه من سدادها أن يستولي على بقية أرضه.

أذكر أني حين كنت أقوم بعمل رسوم لتلك المجموعة أن ســـألت الطيب: "لِمَ لِمْ يترك الحفيد يتقيأ بصورة تلقائية؟.. فقال: "لابد أن يتم له ذلك بفعل إرادي، تعبيرًا متعمدًا منه لرفض القهر، وسوء استغلال الغـــني للفقير".

والطيب يولي كثيرًا من اهتمامه لتلك الرابطة المتذبذبة ثلاثية الأبعاد، التي تتأرجح بحسب طبيعة الإنسان وتبلور المجتمعات، بين الماضي والحاضر والمستقل، وذلك في شد وجذب بين طرفي حبل الزمن الممدود. ويرمز إلى تلك الرابطة الأزلية متمثلاً بالصلة القائمة ما بين الجـــد والأب والحفيـــد والأب، وهو الحاضر، حائر بين جدوى مرجعية يستند إليها بما مضى وما زال قائمًا من تراث وقيم ثقافية وحضارة، وبين ما هو لا محالة آت، والتي أشار إليها وظل يعالجها في لب قصصه "موسم الهجـــرة إلى الـــشمال"،

و"ضو البيت"، و"بندر شاه"، "مريود" حيث بلورها في قالب تعـــاطف حميم، وشوق وحنان كما هي الحال في شعور الحفيد نحو جده، وفي كره وبغض ورفض عنيف، كما جرى في نخلة على الجدول، وأحيانًا في تضافر وتآمر بين عنصري الجد والحفيد، ضد الرابطة الوسطى وهي الأب، كما يجري في "ضو البيت" و"مريود".

ويكتفي الطيب، تفسيرًا لتلك العلاقة المتذبذبة بقوله لهدى الحسيني في حوارها معه المشار إليه آنفًا: "إن الماضي والمستقبل في تآمر مستمر ضد الحاضر، أو أن الجد "بندر شاه" والحفيد "مريود" في تآمر مستمر ضـــد الأب، ومريود امتداد لشخصيات تسير في خط طويل لا ينقطع".

والطيب في حقيقته ورغم ما اكتسبه وواكبه معايـــشة وإدراكًـــا وتفاعلاً تامًا مع الحضارة الغربية والإنسانية المعاصرة بوجه عام، لا يـــزال يكتنز بين جوانحه حنينًا شديدًا إلى الماضي وقيم مجتمعه في شمال السودان، وتحسرًا على ما فات بحسب تغير الأحوال وتبدلها بمرور الزمن، وما جـــد عليها من أوضاع غريبة شيئًا ما، مما ألفه الناس واعتادوه منذ أمد بعيـــد، كقيم إنسانية راسخة ما زال لها الكثير من الفاعلية والأثر، لا يريـــد لهـــا تبديلاً ولا تحويرًا فتراه يركز على تلك الجوانب، والأمر كما يبـــدو قـــد انقلب رأسًا على عقب، والزمن غلاَّب، وقد تأتي الرياح بما لا تـــشتهي السفن.

فاختلط الأمر، كما يصوره الطيب على محيميد "بين صوت جده، ووجه بندر شاه وحفيده مريود الجالس عن يمين جده، نسخة أخرى منه،

تتشابهان حتى كأنك تنظر إلى أصل واحد، لكن ما إن يستقر بك السيقين حتى تغرق في بحر من الضلال"، ويقوم الحفيد بجلد أعمامه الأحد عشر (أبناء بندر شاه) وجده الجالس على العرش يسمع ويرى يبتسم في رضا ويشير بيده إذا شاء حتى يكف عن الضرب أو يستمر.

نلمس هذا التغيير الذي حدث في بيئة محافظة يصوره الطيب في "ضوء البيت" كصراع للأجيال إذا يقول سعيد صاحب المتجر في القرية لرفاقه في جلستهم المسائية المعتادة أمام دكانه: "حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها أولادنا أصبحوا ضدنا المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهناك، طلعت أولاد بقوا يتفاحصوا علينا. البلد أتاريها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي".

كان ذلك يوم انتصار أولاد بكري على خالهم محجوب، وفوزهم بمناصب الجمعية التعاونية تولي سعيد عشا البايتات، الذي كانوا يلقبونه في الماضي بسعيد البوم، إقرارًا بواقع مستجد "جملة الإيمان البلد حاصل فيها خير، البلد ماشية على خير"، ويقول عن محجوب الرئيس السابق للجمعية، ومن أسماهم بعصابته: "إنتو ناس إما تبقوا حكام، أو تقولوا البلد خربت".

ومع نيل البلاد استقالها، وما جد عليها من أوضاع سياسية وإدارية استمع إلى الطيب وهو يقول على لسان الطاهر ود الرواسي في "ضو البيت" ردًا على تساؤل محجوب عن صعوبة إيجاد وزارة للطريفي ود بكري الذي صعبت عليه حتى إدارة الجمعية التعاونية، التي استحوذ عليها

مع جماعته في البلدة، بعد أن تمكنوا من إزاحة خاله محجوب عنها يقـول الطاهر: "أنت تفتكر الحكاية بالكفاءة الموضوع كله أونطة المهم تبقـى فصيح لسان وقليل إحسان بس كتر من يحيا ويعيش. شـوف الحـزب القوي أدخل فيه. شي خطب وشي عوازيم وشي براطيل شويتين شويتين تلقي نفسك بقيت نائب في البرلمان بعد داك أرقد قفا".

ويقول في رده على محيميد: "إذا ما عملوني وزير جملة الإيمان أعمل عليهم انقلاب".. "وبعدين كما شنو؟ ما خلاص أرقد قفـا أي حاجـة عاوزها اضرب الجرس، ادخل يا فلان، وامرق يا فلان فلان عينتك مدير فلان حكمدار فلان سويتك باشمفتش فلان حكايتـك بايظـة معـاي، دخلتك السجن. فلان ما توريني خلقتك فلان حبابك عشرة. وقتين أمرق بالعربية الشفرليت وسط البلد، تهتف: يعيش الطاهر ود الرواسي، يحيـا الطاهر ود الرواسي. خلاص بقيت حاكم عام".

ما يشير إليه الطيب صالح في أدبه، والذي يبدو كأنه وضع طريف من نسج خيال قصصي هو في حقيقة الأمر واقع معاش، نشكو منه اليوم لا في سوداننا فحسب، بل في كثير من بلدان عالمنا الثالث، والثاني، ولربما الأول كذلك إلي حد ما، وذلك بحسب ما نشاهد ونرى على شاشـات التلفزة من حين إلى آخر.

والطيب شخص ذو حدس دقيق وبصيرة نافذة وكأنه ينظر بعـين المستقبل. لن أنسى نصحه لي في لندن عام ١٩٧٢، حين اسـتدعيت إلى السودان في مهمة رسمية إبان حكم النميري، بدعوى إنـشاء مـصلحة

للثقافة ورعاية المجلس القومي للآداب والفنون، قال لي يومها: "يـــا زول خذ حذرك من الجماعة ديل. خليك معانا هنا، أحسن ليك" فقلت لـــه: "يا أخي الطيب هذا داعي الوطن، ولابد من الإجابة، ولو ما عملنا لبلدنا من سيعمل له". فقال لي بهدوئه المعهود: "غايته أنت طبعًا مخير، لكن أنـــا نصحتك وأنت حر". وقد كان.. ما تذكرت نصحه إلا بعد أن وقعـــت الواقعة، وأنا بضيافة الدولة في سجن "كوبر" دون ذنب جنيته، ولمدة ستة أشهر وثمانية أيام حسومًا، اليوم فيها بمعدل سنة بحالها، ومن هول القهـــر والمذلة والمهانة.

ظل الطيب، خلال تلك الفترة، وهو نعم الصديق الـــوفي. يـــسعي جاهدًا للإفراج عني وفك ضائقتي حتي تكلل مسعاه بالنجـــاح بـــدعوتي للعمل معه في دولة قطر أذكر أني قبل مغادرتي الـــسودان متوجهًـــا إلى الدوحة جاءني من يقول لي من قبل جهة لا أدري كنهها "يـــا زول مـــا تسافر.. الريس مفكر في تعديل وزاري قريب، وعاوز يعملك وزيـــر"، فتذكرت نصيحة الطيب لي، وقوله "يفتح الله" على لسان سعود في قصة "نخلة على الجدول" فهرولت إلة المطار على عجل والمؤمن لا يلدغ مـــن جحر مرتين ما يورده في أدبه من مفارقات عجيبة هي الواقع بعينه، ومن يكذب فليجرب وذنبه في عظم رقبته ويا للعجب إذا لا عذر لمن أنذر.

يقول الطيب لسان الراوي محيميد في "ضـــو البيـــت" ردًا علـــى استفسار صديقه الطاهر ود الرواسي عن أسباب تقاعده المبكر: "أحالوني على التقاعد لأني لا أصلي الفجر في الجامع، عندنا في الخرطوم حكومـــة متدينة رئيس الوزراء يصلي الفجر حاضرًا، وفي الجامع كل يوم وإذا كنت

لا تصلي، أو تصلي وحدك في دارك فسيتهمونك بعدم الحماس للحكومة. أن تحال على المعاش كرم منهم.

ثم يستطرد قائلاً: "بعد عام أو عامين أو خمسة ستجيئنا حكومة مختلفة، لعلها غير متدينة وقد تكون ملحدة. إذا كنت تصلي في دارك أو في الجامع فإنهم سيحيلونك للتقاعد، بتهمة التواطؤ مع الحكومة السابقة".

واستمتع إلى دقة وصفه الساحر في موسم الهجرة إلى الشمال وهو يقارن بما صار إليه الحال، وما ألم بالقارة بأكملها عقب نيل الاستقلال، وما أصاب قادتها من تدهور وقصور واهتمام فارغ بالمظهر لا الجوهر.

يقول الطيب على لسان محيميد، واصفًا لمحجوب رفيق صباه ما دار في المؤتمر الذي حضره مؤخرًا في موقع ما بإفريقيا: "لن تصدق أن سادة إفريقيا الجدد، ملس الوجوه، أفواههم كأفواه الذئاب، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة، وتوفح نواصيهم برائحة العطر، في أزياء بيضاء وزرقاء، وسوداء وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق على أكتافهم كجلود القطط السيامية، والأحذية تعكس أضواء الشمعدنات تصر صريرًا على الرخام".

ويضيف: "لن يصدق محجوب أنهم تدارسوا تسعة أيام مصير التعليم في إفريقيا في (قاعة الاستقلال) التي بينت لهذا الغرض وكلفت أكثر مليوني جنيه، صرح من الحجر والأسمنت والرخام والزجاج مستديرة كاملة الاستدارة، وضع تصميمها في لندن، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملون قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة

والسقف على شكل قبة مطلية بماء الذهب تتدلى على جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم".

هذا وصف لاذع أبدع الطيب في نصه، لا يبعد في حقيقته قيد أنملة عن واقع الحال، يعكس بصدق ما وقع لدينا، ولدى الجار وإلى سابع جار، إذا الوضع في معظم الأحيان واحد وإن اختلفت السحن والأسماء والأعلام إنه واقع لا خيال قصصي، وما أمره من واقع مر معاش، اهتممنا فيه بالقشور من دون اللباب أوصلتنا إلى متاهات الضلال والضياع، كدنا معها أن نفقد فيها هويتنا، أو أننا قد فقدناها فعلاً ضمن ما كنا، ولا ندري من نكون.

أدب الطيب صالح يتكامل أصلاً بالبحث عن الذات، ذات الإنسان البشرية استجلاء للحقيقة واستخلاصا منها للحكمة، من واقع إدراك تجارب الفرد والجماعة في حياتنا العامة والخاصة. والكاتب المبدع ذكرًا كان أم أنثى قد حظي بتلك النظرة الثاقبة التي تستشف بقراءتها الفردية ما وراء حجب المجتمع،، لتصل إلى ما هو أصيل وثابت علمًا بأن كل ما هو مرئي وملاحظ غير دائم، إذ الجسد سيبلى، والعقل سيهرم ويفنى، وما حولنا مآله إلى الاندثار لا محالة، ولن يبقى على صعيد الحياة الدنيا سوى الوعي المدرك في حاضر الذات، والدوام لوجه الحي الذي لا يموت.

وحقيقة أصالة الفنان الكاتب صاغها جلال العشري في مطلع مقالة له بعنوان "زوربا السوداني"، نشرت في كتاب "الطيب صالح" المشار إليه آنفًا. إذ يقول: "الأديب أي أديب يكون أصيلاً بمقدار ما يتمثل بيئته.

ويكون معاصرًا بمقدار ما يعبر عن روح عصره. وهاتان القيمتان الأصالة والمعاصرة هما الركيزتان اللتان يدور حولهما أدب هذا الأديب الطيب صالح". وهو مدخل صادق في تحديد عنصري أصالة ومعاصرة الطيب صالح، من حيث إنه أي الطيب صالح، يستند أساسًا إلى نبع يدرك، لنهه ويلم إلمامًا تامًا بجميع أبعاده وأحداثه ودقيق ألفاظه ومعانيه نبع ثر ومعين لا ينضب نهل منه طوال حياة عاشها وظل يعايشها أمد الله في عمره علق منها في صميم وجدانه قيم قديمها التليد وزخم حاضرها وأحب أناسها حبًا خالصًا لا يشوبه غرض، دافعه الانتماء بصدق وإدارك فأحبه كل من عرفه إن كان قريبًا، وعلى البعد. أناس، ظل يسعى وهو في الغربة على رد الجميل إليهم.

ومن جانب آخر فهو يستند كذلك إلى دعامة أخرى، قد تكون غريبة شيئًا ما عن دعامة بيئته الأولى، ألفها بعد أن تجول متفحصًا في ربوعها، وتزود منها بذخيرة حية من علم وتجارب إنسانية عبر تاريخها وحاضرها، فواكبها دراسة وعملاً وإبداعًا، مرتكزًا على ما بحوزته من إرث ثقافي مختزن وزخم تحضر عالمي معاصر اكتسبه بعرق جبينه، ومنعة عضده، وجهده الفكري النير.

وكتابه "موسم الهجرة إلى الشمال"، إن لم يكن جميع ما كتب من قصص وروايات ومقالات وأفكار، يقوم دليلاً واضحًا وبينة كبرى على نبوغه وعبقريته، نسج موسمه بأسلوب ناضج وفريد، عالج به موضوع القلق الإنساني الباحث عن تحقيق أقصى ما تطوله النفس البشرية من آمال

وطموحات، حيث تتجاوز بحد جرأتها، وبحسب نضج قدراتها وتجربتـــها الفردية، نطاق ثقافتها وبيئتها المحلية، تعبره إلى آفـــاق بعيـــدة.. كـــثيرة التحدي متقبة، تكاد لا تستقر على حال فتضارع أهل تلـــك الآفـــاق، مقتحمة عليهم أبواب ما ظنوا أنهم وحدهم القادرون عليه، وأن الغير ليس بندا لهم فأقاموا في وجهه قلاع الكبر والحصون والعزل.

ثم يتخذ الطيب منحى خاصًا بانتقاء ساحة معينة من ساحات التزال ميدانًا دراميًا لمعركة أزلية تدور رحى حربها بين عنصري الذكر والأنثى. اختارها بعناية فائقة ودقيقة للغاية ليصور فيهـــا روح التبـــاين والتمـــرد وانقلاب الأوضاع بعد النصر والقبول، ويدور في الساحة صراع عنيـــف مدمر للطرفين تتداخل في أرجائه الآمال والظنون والأشـــواق والأوهـــام والأكاذيب المختلفة ودفين الرغبات المكبوتة وكسر القيود والمحظورات.. ساحة الكل فيها هالك.

يقول مصطفى سعيد عن آن همند، إحـــدى خليلاتـــه: "كانـــت عكسي تحن إلى مناخات استوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية كنت في عينيها رمزًا لكل هذا الحين وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع تقول لي إنها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة، وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات وأقول لها إنني أرى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل.

ويستطرد: "وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة الـــتي بنيتها عن عمد، أكذوبة أكذوبة، الصندل والند وريش النعام تماثيل العاج

والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطان النيل وقوارب على أشرعتها كأجحنة الحمام وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن أشجار التبلدي في كردفان وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوسير، والشلك حقول الموز والبن في خط الاستواء والمعابد القديمة في منطقة النوبة، الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق، السجاجيد العجمية والستائر الوردية والمرايا الكبيرة على الجدران والأضواء الملونة في الأركان.

ووصف الطيب صالح هنا، لما يحمله صدر القادم من الجنوب في مسيرته نحو الشمال، وصف دقيق ومعبر يجري في النفس من مجمل الذكريات، كانت واقعًا فصارت خيالاً ظله عالق بالذهن، ويتمثل صداه المسترجع ويتجسد فيما يجمعه ويحمله المهاجر معه من أشياء، طنافس وأغراض هي بمثابة الرمز الذي كان أو كان، متخيلاً لا حقيقة في عالم الواقع، ومصطفى سعيد في تقديري ما هو إلا تشخيص لما هو على درجات متفاوتة في نفس كل منا، ألحظ أجزاء منه في بيت كل مغترب عن وطنه.

ويقول الطيب بهذا الخصوص في حوار له مع محيي الدين صبحي، نشر ضمن كتاب "الطيب صالح.. عبقري الرواية العربية" المشار إليه آنفًا: "الشرق والبخور والعطور مجرد أوهام" و"لقد تجاوزنا هذه المرحلة، وبدأت مرحلة ارتطام حقيقي وعنيف" و"إننا الآن نحطم الأوهام".

وتحضرني في تلك المناسبة حادثة طريفة حينما كنت أعمل مساعدًا للملحق الثقافي بسفارة السودان في لندن، وقد شحنت من السودان صندوقًا سحارة سبق أن أشتريتها في نيويورك قبل ذلك بأعوام عند انتهاء فترة إقامتي في أمريكا، وضعت في داخلها قبل مغادرة أم درمان بعض ما أستعين به في ديكور شقة استأجرتها لي السفارة بميدان برامهام جاردنز في حي إيرلز مورت، وصدف يوم وصول السحارة أن زارني على موعد كل من الصديقين الطيب صالح والشاعر سيد أحمد الحردلو، للتسامر وطرق مواضيع شتى أوصلتنا بطبيعة الحال، ونحن في الغربة إلى شخصية مصطفى سعيد، والتي كان الطيب شتى بإطلاقها على كل منا بقدر، كلما لحظ فينا ملمحًا يشير إلى مصطفى سعيد.

وحانت من الطيب في تلك الأمسية التفاتة إلى سحارتي الحديد الضخمة التي تركها الحمالون في وسط الردهة عند مدخل الشقة. فقال لي: "شن فيها سحارتك دي يا زول؟" وما كدت أفتحها حتى غمرتي موجة من الضحك، شمل الآخرين ما إن أطلا على ما فيها من عكش، وطنافس وبخور، وعطور، ومصنوعات يدوية من أنحاء السودان كافة، أسهب الطيب سلفًا في وصف مثيل لها في "موسم الهجرة"، فقال لي عنده "هذا والله يا زول هو صندوق مصطفى سعيد بعينه" وأنا أحاول جاهدًا نفي التهمة عن نفسي، على اعتبار أن ما حواه صندوقي ما هو إلا ديكورات شعبية وطنية، لا تقدم ولا تؤخر في الأمر شيئًا، ولا دخل لها بمصطفى سعيد لا من قريب أو بعيد.

هذا وقد ظل مصطفى سعيد كما يروي الطيب صالح، يواصل غزواته، غير عابئ بمصير ضحاياه، إلى أن جاءته يومًا تلك الأنثى التي أدركت بفطرتها غوره، فأغرته بما يطمح إليه حتى تحققت من رغبته فيها فخانته وأحطت من قدره، وأذلت كبرياءه كانت له بمثابة سوط عذاب يؤرق مضجعه دون أن تمنحه ذرة مما كان يتوق إليه. وقد استحكمت الحلقات.

فيقول مصطفى سعيد: "كنت صيادًا فأصبحت فريسة". ويقرر مشيرًا في يأس إلى جين مورس "هذه المرأة هي قدري وفيها هلاكي، ولكن الدنيا كلها لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها. أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيًا، أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك، ولكني لا أبالي".

بينما تتفنن جين مورس في تعذيبه، وإشعال نار رغبته فيها، وإحباطه، ولم ترضخ له وهي الزوجة، إلا يوم قوي على قتل الرغبة المشتعلة تجاهها في نفسه يومها أقدم على ذبحها قربانًا العذابة، ليعود آخر الأمر إلى بلده، عاريًا صفر اليدين مما اكتسب، ما في جعبته سوى قصاصات من ذكريات عفا عليها الزمن، ليبقى مزارعًا عاديًا يفلح أرضًا في قرية نائية إلى يوم ابتلعه النيل، ولم يبق منه سوى ذكري غامضة، مغلقًا عليها في غرفة مظلمة، أورثها من سار على الدرب وعاد.

يتساءل كثير من الناس عما إذا كان في قصص الطيب شيء من الواقع تجاربه الشخصية، أي قلب الواقع وبلورته إلى خيال. ويسأله سيد

فرغلي مستفسرًا بهذا الخصوص، في حوار أجرا مع الطيب، نشر في كتاب "الطيب صالح.. "المشار إليه آنفًا"، قائلاً له: "يقال إن شخصية بطلك المعروف مصطفى سعيد فيها ملامح كثيرة منك.. فما رأيك؟".. رد عليه الطيب قائلاً: "لا أظن أنني أكتب لأقص للناس قصة حياتي، وهي على كل حال حياة عادية لا تصلح قصة، أظن أنني أحاول أن أعبر عن آراء مهما تكن، في قالب فني متعمد، وشخصيات هذه القصص لا صلة لها بالواقع إلا بقدر ما يكون الفن مشابهًا للواقع"، ويردف قائلاً: "يا ليت لي ذكاء مصطفى سعيد وفحولته وإصراره".

والطيب لمن يعرفه عن قرب، شخص كثير الاعتدال في حياته، طيب إلى أبعد حدود الطيبة، قنوع غير منافس، لا يطمع فيما في يد الغير، شهم كريم هادئ الطبع جواد ما بيده يطلقه كالريح المرسلة سعيد في حياته الزوجية وقد اقترن بسيدة بريطانية فاضلة، رزق منها بثلاث فتيات هن قرة عينيه، قد أشرف على السبعين، ولا يزال حفظه الله، شابًا، والعين عليه باردة.

وحسب معرفتي فصحيح ما قاله بشأن شخصية مصطفى في "موسم الهجرة إلى الشمال"، ألا صلة لها بواقعة الشخصي لا من قريب أوبعيد، بل هي محض خيال، صاغها ليدلل بها على وضع وصراع معين، استلزام خلقها ليربط بها بين عالمين متباينين، يختلفان أصلاً، ويلتقيان أحيانًا على قدم المساواة.

أما فيما يتعلق بشخصياته الأخرى فهناك كثير من أوجه الشبه يكاد أن يصل بها إلى التطابق مع أفراد من أهل قريته في شمال السودان، وقد

سبق لي أن زرتها خلال النصف الأول من السبعينيات، أيام فرض على المخرج السينمائي الكويتي، خالد الصديق أن أقوم بتمثيل شخصية "الشيخ الحنين"، في فيلم "عرس الزين"، وقد أشار الطيب مؤكدًا ذلك في حديثه مع محيي الدين صبحي الذي ورد ذكره آنفًا إذ يقول الطيب عن أشخاصه في رواية "عرس الزين": "إن مادة الرواية وشخصياتها ساعدتني على إيجاد هذا الاحتفاء بمجتمع أعرفه وعشت فيه، والشخصيات فيه هي أهلي كما عرفتهم إلي حد كبير".

والميزة هنا تكمن فيما بلورة الطيب لتلك الشخصيات بإعطائها الأدوار التي تناسب أوضاعها في قالب فني متماسك ومتوازن.

وإلى جانب هذا وذاك، هناك ما يمت إلى الطيب بصورة شخصية بحتة، يورده الطيب في أدبه ضمن نسيج الخيال. أحس معه أحيانًا بأن في وجدانه خيال أنثى مبهمة، طويلة أبعاد الوجه، كبيرة الأنف، واسعة الفم، خيالاً ظل يؤرقه، ولعل قلبه يهفو إليه، والله أعلم، إذ لحظت أنه كان يبدي إعجابه، ولكن دون ملاحقة أو متابعة كلما رأى أنثى كبيرة الأنف، كبعض نساء الخليج، وبلاد فارس، والشرق الأوسط والسودان، يقول في زفرة حري فيها شيء من الشوق "هااااا" ويغض الطرف.

يستفسره بهذا الخصوص جلال العشري في حواره المشار إليه سابقًا، إن كانت حسنة بنت محمود، أرملة مصطفى سعيد، هي الأنثى التي يبحث عنها الطيب صالح في واقع الأمر، أي امرأة سودانية بحتة مثل

حسنة، التي اختصها الطيب في وصفه لها بمزيد من حنان ولوعة وحرقة حرمان.

تكرر وصف الطيب لتلك الأنثى التي تستثير خياله، ويستعذب مرآها، إذ يقول في موسم الهجرة على لسان محيميد وهو يتأمل اللوحة التي رسمها مصطفى سعيد لجين مورس، ووضعها أعلى المدفأة في الغرفة المغلقة التي تركها وأورث ما فيها لمحيميد: "جين مورس، هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير· نظرت إلى الوجه بإعجاب. وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما، الأنف يميل إلى الكبر. والفم يميل إلى الاتساع والتعبير على الوجه شيء صعب وصفه في كلمات تعبير رهيب، محير، الشفتان الرقيقتان كطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل إلى الأمام في كبرياء، هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله. هذه هي إذن العنقاء التي افترست الغول".

ذاك وصف رسام مصور ساحر، يستشف من خلال معالم الوجه دفين النفس البشرية، وما تثيره وتوحي به من أفكار ورغبات، تترك في النفس على صفحة الوجدان أثرًا كالجرح، لا يشفي منه صاحبه ولا يندمل.

وفي موقع آخر، في كتاب آخر يرد وصف لتلك الأنثى، إذ يقول الطيب على لسان الراوي في قصة "هكذا يا سادتي": "هذه الفتاة لم تبتسم لي؟" لأنني أجنبي، لأن أنفها كبير وفمها واسع وعينيها زرقاوان؟ أهل هذا

البلد يحبون المرأة دقيقة الأنف صغيرة الفم، دعجاء العيـــنين" ويــسترسل "تذكرت الأنف الكبير، غيري كانوا يحسبونه قبيحًا، وكنت أراه جميلاً .. جميلاً .." و "رأيت فمًا واسعًا"و"مضى على هذا عامان، وما زال الجرح ينفر في قلبي، ولا تزال تتراءى لي عند منعطف كل طريق هذه المرأة..".

سألته هدى الحسيني في حوارها معه، المشار إليه آنفًا عـــن ماهيـــة أفكاره الخفية، فرد عليها الطيب بقوله: "سيمضي زمن طويـــل قبـــل أن أبوح بها. هنالك أسرار لم أدركها بعد، وعملية الاكتشاف هي في الواقع إدراك الأشياء الموجودة ونحن لا نعرف أنها خفية".

ولقد مضى بالفعل زمن طويل، وقد بدأ الطيب، والقلب في حـــال صفاء برفع الأستار، والبوح بـــدءًا بمـــا أورده مـــن رؤى في "الرجـــل القبرصي"، وما سيتلوه، إن شاء ربي، وسمح الزمان، كثير وكبير. ويعجبني قوله على لسان أحد أشخاصه، ولعله الطاهر ود الرواسي، في موقع ما من مدي العمر.

موسم الهجرة إلى الشمال

أحمد عبد المعطي حجازي

لا يفصل بيني وبين الطيب صالح في العمر إلا ست سنوات. هو ولد في آخر العشرينيات، وأنا ولدت في منتصف الثلاثينيات، فنحن شقيقان في جيل واحد، هو من بواكيره وأنا من خواتيمه، ومع هذا فقد تأخر لقاؤنا الأول، فلم يتم إلا في أوائل الثمانينيات في باريس التي قَدِم إليها من إحدى إمارات الخليج، حيث كان يشغل منصبًا مرموقًا، ليعمل في منظمة اليونيسكو، في الوقت الذي كنت أعمل فيه في جامعة باريس.

ولست أذكر أين التقينا أول مرة، والظاهر أن اللقاء الأول كان عابرًا، فلم يلبث أن غامت صورته في نفسي، واختلطت بصور اللقاءات التي تتالت بعده بصحبة أصدقاء آخرين، منهم أحمد البديني، وعبد الرشيد الصادق، ونهاد سالم، ومحمد بن عيسى، وتحولت إلى جلسات وسهرات طويلة انعقد بعضها في عددٍ من المقاهي، وبعضها في مترله أو مترلي

أومنازل الآخرين، إذ كانت تتخذ في أحيان أخـــرى طـــابع الزيـــارات العائلية.

ومن المنطقي أن تكون هجرة الطيب صـــالح المبكـــرة إلى إنجلتـــرا للدراسة، ومن ثم للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، سببًا لتأخر هذا اللقاء الذي لم يتحقق إلا بعد أن اضطررت أنا كذلك للهجرة إلى فرنسا غير أن البُعد الجغرافي ليس هو السبب الوحيد، أو أقول بعبارة أوضح إنه لم يكن جغرافيًا فحسب، بل كان بُعدًا نفسيًا شكّلته الظروف الـــسياسية الـــتي سادت مصر والبلاد العربية الأخرى في الستينيات، والخصومات العنيفـــة التي شبّت بينها وبين الدول الغربية، لاسيما بريطانيا وقد باعدت هـــذه الخصومات بيننا وبين زملائنا من الكتّاب العرب الذين قُدّر لهم أن يقيموا ويعملوا في أوروبا الغربية خلال تلك السنوات. هذا البُعد النفسي هـــو الذي حال بيني وبين قراءة الأعمال الأولى للطيب صالح، وفي مقدمتـــها روايته البديعة "موسم الهجرة إلى الشمال"، إذ نُشرت أولاً عام ١٩٦٦ في مجلة "حوار" التي صدرت في بيروت، وشاع في أوساط المثقفين المصريين والعرب أن جهات أمريكية تموّلها وتستخدمها. وقد كنت أنا شخصيًا من بين الذين قاطعوها واتخذوا منها موقفًا سلبيًا إن لم أقل عـــدائيًا أدى إلى منعها من دخول مصر قبل أن تتوقف عن الصدور.

في تلك المرحلة راجعت بقدر معقول من المنهجية والتركيز ثقافتنـــا الحديثة كلها، بداية من إرهاصاتها في النصف الأخير من القرن الثامن عشر

على أيدي الشبراوي، والزبيدي، والجبرتي، والعطـــار، وتلاميـــذهم وفي المقدمة منهم رفاعة رافع الطهطاوي، إلى أن دخلـــت مرحلـــة النـــضج والإبداع خلال النصف الأول من القرن العشرين على أيدي محمد عبده، وشوقي، وطه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكـــيم، وســـلامة موســـى، ومصطفي مشرفة، وسيد درويش، ومحمود مختار.

كما كان لابد لمسألة الشرق والغرب أن تنعكس على شعري بطرق مختلفة شكلاً ومضمونًا، خصوصًا بعد أن أصبحت ترجمتـــه إلى اللغـــات الأوروبية مسألة مطروحة، فما الذي يبقى من الأدب عامـــة ومن الشعر خاصة إذا تفلّت من لغته الأصلية ودخل في لغة أخرى؟ وهـــل تتمثـــل خصائص الفن التي تعرف بها شخصيته وملامحه التي تنمّيـــه وتنـــسبه إلى ثقافة أمة بالذات. هـــل تتمثل هذه الخصـــائص في معانيه، أم تتمثـــل في لغته قبل أي شيء آخر؟ أريد أن أقول إن أكثر من دافعٍ في تلك المرحلـــة - أواخر السبعينيات - كان يدفعني إلى قراءة "موسم الهجرة إلى الشمال" ولقد قرأت الرواية، فكانت بالنسبة لي مفاجأة.

الطيب صالح كاتب عربي وسوداني بالذات. و"موسم الهجـــرة إلى الشمال" هي محاولته الأولى أو الثانية في فن الرواية. والرواية فن حـــديث في الآداب الإنسانية بصفـــة عامة، لأنها فـــن المدينـــة أو الطبقـــــة الوسطـــي التي لم تظهر على مســـرح التاريخ إلا منذ قرنين. فالطيـــب صالح بأدواته المـــوروثة والمكتسبة من ثقافته القوميـــة خاصة، والأجنبية عامـــة، كاتب مبتدئ محدود القدرات، لكنه فاجـــأنا في "موسم الهجرة إلى الشمال" بعمل مكتمل.

كان هذا هو انطباعي الذي بقي في نفسي طيلة السنوات العشرين الماضية، وإن كانت الرواية نفسها، أحداثها وشخصياتها، قد طـــــارت شعاعًا من ذاكرتي، وتبددت تمامًا حتى وجدت نفسي محتاجًا إلى إعـــادة قراءتها، لأفهم ســــــرّ افتناني بها، هـــذا الافتنـــان المقـــيم. في هـــــذه المراجعـــة التي قمت بها للرواية خلال الأيام الماضية.

لم أكن أقرأ للاستمتاع كنت أريد أن أفهم انفعـــالي بهذا الـــنص، وأن أفسّره وأبرّره وأكشف عن حياة النص الداخلية، لأرى كيف تعمل أجهزته منفردة، وكيف تعمل في تكامل وانتظام، ليس لأني مطالب بهـــذا الكشف، فأنا لست ناقدًا، وإنما وجدت نفسي أمام عمل يمتّـــع القـــارئ بقدر ما يحاول الإفلات منه، كأنه الغانية التي تريك شيئًا وتخفـــي عنـــك أشياء. ولهذا لم تكن قراءتي هـــذه المرة ركضًا أو تـــدفقًا أو اســـتعجالاً للوصول إلى النهاية.

وإنما كنت أتريث وأتلكأ، وأتصنع اللامبالاة، وأقرأ الصفحة مرات، وأعود إلى البداية من جديد، أتذكر واقعه أو أستعيد عبارة أو تـــشبيهًا، أوأتصور شخصية، ثم أجد نفسي محتاجًا لأكرر هذا مرات لأتمثل الرواية في تركيبها الحي أو في حركتها المنتظمة المنسجمة، كأنما هي أسرة يلتـــئم أفرادها ويفترقون أومنظومة من الكواكب والأقمار تدور كلـــها حـــول كوكب أصلي، ويدور كل منها حول نفسه، فيشرق ويغرب، ويقتـــرب منا ويبتعد عنا محتفظًا بالمسافات التي تفصله عن أشقائه، وفيًا في الوقـــت ذاته للقرابة الحميمة التي تشدّه إليهم.

إنها رواية مزدحمة بالمعاني والدلالات والمقابلات، المقابلة أو المطابقة بالمعنى الذي يقال عنه في الموسيقى CONTREPOINT، وهو وجـــود خط لحني أو أكثر في موازاة اللحن الأساسي يصاحبه أفقيًا، ويتآلف معه محتفظًا بمساره المنفصل وإيقاعه الخاص، فالرواية من حيث الشكل مغريـــة بقراءة متأنية.

وهي كذلك من حيث الموضوع، لأنها حلقة من سلسلة الأعمـــال الروائية التي تدور حول مسألة الشرق والغرب، التي نظر إليها المؤلف من زاويته الخاصة، فوجدها مسألة الجنوب والشمال وربما نظـــر أيـــضًا إلى عنوان رواية نجيب محفوظ "السمان والخريف" التي تدور حول موضـــوع آخر، لكن الاستعارة في العنوانين واحدة، وهي مستوحاة من هجرة طيور الشمال إلى جنوب البحر المتوسط، وهذا ما يشير إليه عنوان نجيب محفوظ وقد ذهب الطيب صالح إلى العكس، فجعل طيور الجنوب، وهو واحـــد منها، تهاجر إلى الشمال.

غير أن الخلاف بسيط ومسألة الجنوب والشمال تتـــضمن مـــسألة الشرق والغرب التي يشير إليها عنوان توفيق الحكيم الذي سبق الجميع إلى استعارة الطيور المهاجرة في روايته "عصفور من الشرق" وسواء أكانـــت المسألة شرقًا وغربًا أم جنوبًا وشمالاً، فهي في الحالين علاقتنـــا بالحـــضارة الأوروبية التي أعتبرها مادة التشكيل الأولى في الرواية العربية أو عنصرها الخالق المصور. فالرواية فن أوروبي غربي لا بطبيعتها، فالحياة الإنسانية لا

تعرف الطبائع الثابتة أو العقليات المتمايزة، وإنما بوصفها شكلاً أدبيًا تاريخ يرتبط بتاريخ المجتمعات الغربية المتقدمة.

فإذا كان تاريخنا الحديث يبدأ من بداية سعينا للحاق بالمجتمعات الأوروبية، فالدعوة لكتابة القصة والرواية كانت في جوهرها دعوة للاتصال بأوروبا والاقتباس من الحضارة الأوروبية، والنجاح الذي حققه الروائيون العرب وجه من وجوه النجاح الذي حققناه في دخول العصور الحديثة وفي هذا يقول إبراهيم المصري، وكان من أكثر الكتّاب المصريين حماسةً لهذا الفن: "وإذا كان الأوروبيون قد بدأوا بقصص بوكاشيو وأضرابها، فقد بدأنا نحن بقصص ألف ليلة، ولكنهم تقدموا وتحضروا وتثقفوا وتخلفنا نحن في الطريق، ولما اهتدوا إلى أسرار العلم تبدلت نظرتهم إلى القصة وأودعوها الروح العلمية أي ملاحظة الواقع وتصويره وتحليله، وهذه الروح العلمية الممثلة في مجموع الجهود الثقافية التي قامت بها أوروبا، والتي يضطلع بها اليوم معظم أدبائنا، آخذة في تبديل نظرتهم إلى الأدب عامة، ولسوف تمكّنهم، ولا شك من ابتداع فن قصصي مصري وإنساني يسير مع الأدب القصصي الأوروبي جنبًا إلى جنب".

من هنا احتلّ موضوع الشرق والغرب في الرواية العربية المكان الذي احتله المديح في القصيدة العربية الكلاسيكية، كما وضع نظريتها ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، وإن كان بين الموضوعين فرق شاسع. فالقصيدة الكلاسيكية عامة وقصيدة المديح خاصة، تتغنّي بقيم وأعراف ثابتة تعبّر عنها بصِيَغ وتقاليد ثابتة، أما الرواية فهي تعبير عن الروح

الفردية التي تميز الطبقة الوسطي وتميز ثقافتها، وهي بالتـــالي شـــكل أدبي مغامر يرفض الخضوع للتقاليد ويبحث عن التفرد، إلا أن الشعر بطبيعتـــه هو فن التكثيف والتجريد والتعميم، أما الرواية، والنثر عامة، فهي الفـــن الذي يحفل بالتفاصيل والجزئيات والملامح المحددة والشخصيات الفردية.

فإذا كان هناك موضوع بالذات قد فرض نفسه على الرواية العربية، وهو موضوع الشرق والغرب، فهو يعالج في كل رواية معالجـــة خاصـــة يستفيد فيها الكاتب بتجربته الحية المتميزة، مدركًا أن نجاحه في كتابـــة روايته يتوقف على تحرره من أي تصور تقليدي وتجاوزه لأي كتابة نمطية.

ومقابلة الشرق بالغرب أو الغرب بالشرق في الرواية العربية ليست مقابلة بين مكانين أو جهتين من الجهات الأربع، وإنما هي مقابلـــة بـــين تاريخين أو طورين من أطوار التقدم أو شرطين من شروط قيام الحـــضارة وبناء الشخصية. من هنا كان عنوان كتاب محمد المـــويلحي "حـــديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن"، الذي يعدّ إرهاصًا في الرواية العربية الحديثة. فهو رحلة في العصور الحديثة يقوم بها دفين ينهض مـــن مدفنـــه متخذًا الكاتب الراوي دليلاً يقوده في شوارع القاهرة المعاصرة وشوارع باريس، كأنه الشاعر الروماني فرجيل يقود دانتي في طرق العالم الآخـــر رحلة تعاكس الأولى في كل شيء. فبطل "الكوميديا الإلهية" شاعر مـــن أبناء الدنيا يرحل في الآخرة يقوده شاعر من أبناء الخلود، أما المنيكلي باشا بطل رواية المويلحي، فدفين يرحل في الدنيا أو يعود إليها حيًا، لأن الدنيا

أصبحت همّ القارئ الحديث، كما كانت الأخرى همّ أبناء العصور الوسطي.

الرواية إذًا فن علماني في مقابل الملحمة التي ارتبطت بالثقافة الدينية. وليس غريبًا أن يبدأ المسرح العربي الحديث بقصة مشابهة لقصة المويلحي التي ينهض فيها "أهل الكهف" من نومهم الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون.

نستطيع إذًا أن نعتبر "موسم الهجرة إلى الشمال" تجسيدًا لتلك العلاقة المتوترة بيننا وبين الغرب. هذا التوتر الذي يمكن التغلب عليه عند بعض الروائيين من خلال الاتصال الثقافي أو بانتصار النوازع الإنسانية المشتركة كالحب مثلاً، ويستحيل التغلب عليه عند البعض الآخر، لأن الشرق شرق والغرب غرب، أولأن تاريخ العلاقة بينهما هو تاريخ العنف الدموي الذي لا ينتهي إلا بأن يقهر أحدهما الآخر، كما نرى في "موسم الهجرة إلي الشمال".

تبدأ رواية الطيب صالح بداية هادئة، لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. فقد عاد الراوي من بعثته في لندن، حيث درس الشعر الإنجليزي، ونال درجة الدكتوراه، ووجد كل شيء على حاله في قريته التي تركها في أحضان النيل جنوب الخرطوم، الأهل، والشمس، والنهر، وشجرة الطلح، والجدّ الذي اقترب من التسعين برائحته الغريبة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع. وصديق الطفولة محجوب المزارع. والشيخ طه ود الريس صديق جده الذي بلغ

السبعين، وتزوج خمس نساء، وصار لأحفاده أولاد، وما زال قوي الهمّة يبحث عن أرملة أو ثيب وبنت مجذوب، وهي امــرأة طويلــة تقــارب السبعين ولا تزال فيها بقايا جمال، وكانت تدخن السجائر وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق، كأنها رجل فيتسابق الرجال والنساء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرّج هؤلاء وسواهم من أهل القرية توافدوا يرحّبون بالابن العائد، ويسألونه عن أوروبا والأوروبيين: هــل المعيشة غاليــة أم رخيصــة؟ وهــل النساء حقًا سافرات يرقصن علانية مــع الرجــال؟ فيقول لهم: إن الأوروبيين، إذا استثنينا فوارق ضــئيلة، مثلــهم تمامًــا، يتزوجون ويربّون أولادهم بحسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عمومًا قوم طيبون فتقول بنت مجذوب ضاحكة: خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء! لكن الراوي يرى بين مستقبليه رجلاً لم يعرفه ربعــة، في نحو الخمسين، ليست له لحية، وشاربه أصغر قليلاً من شوارب الرجال في البلد· رجل وسيم ويسأل الراوي والده عنه فيجيبه: هــذا مــصطفــى، غريب جاء منذ خمسة أعــوام. اشترى مزرعة وبنى بيتًا وتزوج حُــسنة بنت محمــود. رجل في حاله، لا يعرف الناس عنه إلا القليل.

هذا هو مصطفى سعيد، رسول العاصفة، وبطل الرواية أو بطلــها الآخر، أو بطل الرواية الأخرى، فــ"موسم الهجرة إلى الشمال" روايتان أو حكايتان في رواية واحدة. وقد بدأت الرواية بحكاية الراوي التي مــا كادت تبدأ حتى انقطعت فجأة، لتبدأ حكاية هذا الغريب المهاجر الــذي

أثار فضول الراوي، وحمله وحملنا معه إلى تاريخه الضبابي البعيد، ننقّب في أوراقه وصوره، ونقلّب في ذكرياته الأليمة الدامية.

إنه رجل غامض حتى بالنسبة إلى نفسه، لا يعرف عن أبيه الذي مات قبل أن يولد إلا أنه كان يتاجر في الإبل، ولم يكن له إخوة، فعاش وحيدًا يتيمًا في ضواحي الخرطوم مع أمه التي كانت بعيدة عنه كامرأة غريبة: "حين أرجع بذاكرتي أراها بوضوح شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم، وعلى وجهها شيء مثل القناعلا أدري قناع كثيف كان وجهها صفحة بحر لم نكن نتحدث كثيرًا وكنت، ولعلك تعجب، أحس إحساسًا دافئًا بأني حر، بأنه ليس ثمة مخلوق أبًا أو أمًا يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين".

لهذا استجاب للرجل الذي جاء على فَرَسٍ في زي رسمي والقبعة على رأسه، يعرض عليه أن يذهب معه إلى المدرسة. ففي ذلك الوقت – أوائل القرن العشرين – كانت سلطات الاحتلال البريطاني في حاجة إلى موظفين متعلمين من أهل البلاد الذين كانوا يسيئون الظن في هذه السلطات وفي مدارسها، فلا يستجيبون لمثل هذه العروض لكن مصطفى سعيد كان يشعر بأنه حر، رغم أنه كان طفلاً ولا يزال، فقرر أن يمضي مع الرجل الذي أردفه على الفَرَس خلفه وكان قراره هذا أول خطوة يخطوها في الطريق التي رسمها لنفسه.

كانت له مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم، فطوى سنوات الدراسة الأولى في الخرطوم، وأصبح يتحدث الإنجليزية بطلاقة

أهّلته للحصول على منحة واصل بها دراسته الثانوية في القاهرة، ثم حصل على منحة أخرى ليكمل دراسته في جامعة لندن، آخر محطة في طريقه إلى الشمال، حيث انعقدت خيوط المأساة.

رجل بلا تاريخ كأنه فكرة مجردة بقدر ما هو شخصية مفعمة بحياة قوية صاخبة. لم يرَ أباه، ولا تربطه صلة بأمه، ولا إخوة له، ولا ذكريات تشده إلى مسقط رأسه، ولا مترل له في الخرطوم، ولا أصدقاء. وها هو دون العشرين، شاب وسيم، متوقّد الذهن، يدرس الاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد، ثم يتخرّج ليعيّن محاضرًا في جامعة لندن، وهو في الرابعة والعشرين.

ليس مصطفى سعيد وطنيًا متعصبًا، ولا ثوريًا متطرفًا، بل هو رجل منكبّ على عمله، ينهل من ثقافة الإنجليز، وينغمس في حياهم يتردد على حانات تشلسي، وأندية هامبستد، ومنتديات بلومزبري يقرأ الشعر الإنجليزي ويتحدث في الدين والفلسفة، وينقد الرسم، ويتكلم في روحانيات الشرق. يفعل كل شيء حتى يدخل المرأة في فراشه، ثم يسير إلى صيد آخر.

لقد جلب إلى فراشة فتيات من جيش الخلاص، وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفابيين كان ينتظر أن يجتمع حزب الأحرار، أوالعمال، أوالمحافظين، أو الشيوعيين ليسرج بعيره ويذهب ليلتقط رزقه من بين المناضلات المتحمسات!

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن، حيث وقف متهمًا بقتل زوجته جين مورس، واجهه الادّعاء بأنه في الفترة بين أكتوبر ٢٢ وفبراير ١٩٢٣ كان يعيش مع خمس فتيات في وقت واحد، وكان يَعِد كلاً منهن بالزواج، وينتحل مع كل منهن اسمًا زائفًا، فهو حسن، وتشارلز، وأمين، وريتشارد. كأن تنكّره اعتراف بحقيقة يستشعرها أو خطر يتهدده، فما الذي بقي له من شخصيته القومية إلا اسمه ولونه؟ أو كأن نفيه لهذه الشخصية هو الثمن الذي يجب أن يدفعه لتقوم العلاقة بينه والنساء الإنجليزيات. وهو شرط حاول أن يجعله متبادلاً ويطبّقه على الطرف الآخر، فكان يحب من بعض عشيقاته أن يتقمصن معه دور شهرزاد، يركعن أمامه، ويغسلن أقدامه، ويرضين بأن يعاملهن معاملة السيد العربي القديم لحريمه وجواريه.

لكن مصطفى سعيد لم يحبّ أيًا من عشيقاته، لأنه كان يعلم علم اليقين أنه قادم من عالم آخر، وأن بينه وبينهن عصورًا من العنف الذي صنعه الأوروبيون بينه وبينهن المستعمرون والغزاة الرومان، والصليبيون، والإنجليز، والفرنسيون الذين اغتصبوا ثروات الشرق، ودمروا حضارته.

كان مصطفى سعيد إذًا ممزقًا بين عالمين: الجنوب الذي يحمله في دمه، والشمال الذي يمارس فيه حياته.

ولقد أعلن هذا التمزق عن نفسه بعنف صارخ يوم رأى جين مورس، وهي المرأة الوحيدة التي أحبها، وهي أيضًا المرأة الوحيدة التي أذلّته واحتقرته ورفضت أن تستجيب لإغراءاته، حتى إذا أمعن في مطاردتها

طلبت منه أن يتزوجها فتزوجها، لكنها ظلّت تتهرب منه، ثم أصبح يشك فيها. فواجهها، وإذا بها تقول له: افرض أنني أخونك! قال إنه سيقتلها قالت وهي تبتسم ساخرة: أنت فقط تقول، لكنك لن تفعل!

وتمضي حياتهما على هذه الوتيرة حتى يعود إلى منزله ذات مساء بارد داكن مكفهر، فيجدها في السرير مستلقية عارية وعلى وجهها شيء من الحزن، في حالة تأهب عظيم.

جلس على حافة السرير ونظر في عينيها فنظرت في عينيه، وإذا هي لأول مرة مسلوبة الإرادة تتحرك بحسب مشيئته. رفع الخنجر ببطء فتابعت حدّة بنظراتها، واتسعت حدقاتها بخليط من الدهشة والخوف والشبق ثم أمسكت الخنجر وقبلته بلهفة، وتأوهلت وقالت: أرجوك أنا مستعدة الآن وضع حدّ الخنجر بين نهديها، وشبكت هي رجليها حول ظهره ضغط ببطء حتى غاب كله في صدرها، وأحسّ بدمها الحار يتفجر، وهي تصرخ متوسلة: تعال معي! "وقالت لي: أحبك، فصدّقتها. وقلت لها: أحبك، وكنت صادقًا". المرأة الوحيدة التي أحبها، قتلها، لكنه سيدفع الثمن، لا في هذه المحاكمة التي استطاع فيها المحامون والشهود أن ينقذوه من حبل المشنقة، بل في السودان بعد أن يقضي في السجن سبع سنوات، ثم يغادره ليتشرد في أصقاع الأرض، وأخيرًا يعود إلى بلاده يبحث عن مكان ينسى فيه ماضيه، فيشدّه قدره إلى تلك القرية التي رأينا أهلها في أول الرواية يستقبلون ابنهم العائد من إنجلترا، وبينهم هذا الرجل الغريب مصطفى سعيد الذي يثير فضول الراوي، فيظل يطارده حتى يعرف

حقيقته وفجأة، في ليلة قائظة من ليالي يوليو، وقد فاض النيـــل يرتفـــع الصراخ من بيت مصطفى سعيد الذي اختفى فلم يُعثَر له على أثر. لقـــد مات غريقًا أو منتحرًا بعد أن ترك مع زوجته الجميلة وصية يكلف فيهـــا الراوي بأن يقوم بعده على تربية ولديه.

هنا يستأنف الراوى حكايته التي توقّفت بعد البداية بقليل، ليقدم لنا مصطفى سعيد وحكايته المثيرة وكان الراوي قد تسلّم وظيفتـــه في وزارة المعارف، وأخذ يتردد على القرية بين الحين والحين يزور أهلـــه، وينفّـــذ وصية الرجل الذي ائتمنه على أسرته ويفاجأ بالشيخ ود. الريس يتقـــدم للزواج من حسنة أرملة مصطفى سعيد التي ترفض بإصرار، وتطلب مـــن الراوي الوصي أن ينقذها من هذا الزواج الذي سيرغمها أهلـــها علـــى قبوله، بأن يعقد عليها هو، لكنه لا يفعل لأنه متزوج بالفعل، فيتمّ الزواج الذي ينتهي بمأساة عنيفة. فقد ظلت حسنة تقاوم الشيخ المزواج الـــذي استبد به الهياج رغم شيخوخته حتى مزّق جـــسدها العـــاري بمخالبـــه، وانهالت هي أيضًا على جسده فمزقته بالسكين.

وهنا فقط نكتشف أن الراوي قد وقع في غرام الأرملة الضحية، فقد نزل عليه النبأ نزول الصاعقة، وها هو لا يجد إلا النيل يطفئ فيه حزنـــه وغضبه، حتى يتوقف في المنتصف بين الضفتين لا يدري إلى أيهما يتجه، إلى الجنوب أم إلى الشمال؟!

وفي اعتقادي أن الراوي ليس إلا الوجه المكشوف لمصطفى سعيد، كما أن هذا هو الوجه المستور للراوي، وفي الرواية أكثر من دليل علـــى

ذلك، فهما يتبادلان الظهور على مسرح الأحداث وقد هاجر كل منهما إلى الشمال وعاد، وأحب كل منهما المرأة ذاتها وانتهيا معًا في النيل كل على طريقته.

وقد رسم الطيب صالح بطله في رجلين، وجعل روايته حكايتين ليسلط أحدهما على الآخر، ويجعل الأولى بحثًا عن الثانية، وبهذا يشوّقنا، ويثير انفعالاتنا، ويرضي حاجاتنا للمتعة بما نقرأ ونتخيل ونتوقع. فإذا كان الرجلان مع هذا مختلفين بعض الشيء، فهذا شرط من شروط البناء المحكم الذي يزداد جمالاً وصلابة بتعدّد الاحتمالات ووجاهتها كلها في الوقت ذاته.

وربما رأينا بالمثل أن الجنوب والشمال في هذه الرواية وجهان لحقيقة واحدة. فالإنجليز كما قال الراوي "مثلنا تمامًا، يتزوجون ويربون أولادهم، وهم عمومًا قوم طيّبون". وإذا كانت جين مورس – وهي ترمز في نظر البعض إلى أوروبا – قد قتلت بيد مصطفى سعيد الذي يرمز إلى الجنوب، فهي المرأة الوحيدة التي أحبها، فإن كان قد تزوج بعدها حسنة بنت محمود، فقد لقّنها ما تعلمه في الشمال، وهو ألا تساق المرأة كأنها دابة إلى فراش رجل لا تحبه.

الجنوب والشمال، أو الشرق والغرب في هذه الرواية يختلفان عنهما في كثير من الأعمال التي عالجت هذا الموضوع من قبل إن المواجهة هنا شاملة عنيفة، والتناقض مع ذلك ليس جوهريًا!

والعنف الذي نجده في الرواية ليس مجرد فعل، وإنما هو فكر قبل أي شيء آخر ونحن نعلم أن الطيب صالح كتب "موسم الهجرة إلى الشمال" وهو يقيم في إنجلترا في أوائل الستينيات، أي في الوقت الذي ازدهرت فيه فكرة الزنوجة، بوجهيها الثقافي والسياسي على أيدي ليوبولد سنجور، وإيمي سيزار، وفرانز فانون وسواهم من الشعراء والمفكرين والزعماء الأفارقة. في تلك السنوات كانت الثورة الجزائرية قد انتصرت وامتد تأثيرها إلى إفريقيا كلها، وتشكّل في الوقت ذاته حزب "النمر الأسود" في الولايات المتحدة وكان عالم النفس ولهلم رايش المنشقّ على فرويد يدعو إلى التحرر الجنسي، وكان الفيلسوف هربرت ماركوز في الولايات المتحدة ينقد نظام الزواج، ويعلن في كتابه "العشق والحضارة" أن الكبت الجنسي صورة من صور القهر السياسي، ويدعو الشباب إلى مقاومته، لأنه إن كان قد أدى في العصور الماضية إلى التسامي بالغريزة وإفراغ الطاقة الجنسية في النشاط الأدبي والفني، فالتحرر الآن ضرورة لصنع الحضارة، وإلا فالكبت يولّد الانفجار!

في رواية الطيب صالح إذًا بطلان رئيسيان: الراوي، ومصطفى سعيد ومع أن مشاركة الراوي في الأحداث بنفسه محدودة، ويكاد دوره في الرواية يكون مقصورًا على حلّ لغز مصطفى سعيد واقتفاء آثاره والكشف عن حقيقته مع هذا فالراوي ليس قليل الأهمية في الرواية، بل هو بطلها الآخر إلى جانب البطل الأول، أو أنهما في الحقيقة وجهان لرجل واحد.

ونحن قد نهمل شخصية الراوي الذي يقصّ علينا القصة، ويروي أحداثها ويصف أبطالها، معتقدين أنه ليس إلا ناقلاً متطفلاً أو شاهدًا محايدًا والحقيقة ليست كذلك فالبون شاسع بين أن تقف أمام القاضي لتدلي بأقوالك في واقعة حقيقية، وأن تلعب هذا الدور في رواية.

أنت أمام القاضي مطالب بأن تكون صادقًا، وألا تقدّم إلا الحقيقة المجردة من الهوي والميل. أما في الرواية فأنت تنشئ عالمًا من عناصر شتى ومواد مختلفة، بعضها مما رأيت وسمعت، وبعضها مما تتخيله، أو تخشى وقوعه، أو تتمناه وفي هذا كله تقدّم نفسك، وتعبّر عن أفكارك وعواطفك، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعلى نحو مؤثر تريد به أن تدخل القارئ عالمك، ليشاركك عواطفك، ويحكم من وجهة نظرك على الأشخاص والأفعال والأقوال هناك فرق هائل بين التقرير الذي كتبه ضابط المباحث أو وكيل النائب العام عن سعيد مهران بطل "اللص والكلاب"، وبين ما كتبه نجيب محفوظ عن هذه الشخصية.

قد نظنّ أن الراوي هو الكاتب. فما دامت "موسم الهجرة إلى الشمال" تبدأ بهذه الجملة "عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة"، فالمتحدث أوالراوي ليس إلا صديقنا الطيب صالح، وليست الرواية بالتالي، أي رواية، إلا سيرة ذاتية، حتى لو لم يستخدم الكاتب ضمير المتكلم، وحتى لو انسحب من مسرح الأحداث انسحابًا تامًا، قد نظنّ أن الراوي هو الكاتب. فما دامت "موسم الهجرة إلى الشمال" تبدأ بهذه الجملة "عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة"، فالمتحدث أو الراوي

ليس إلا صديقنا الطيب صالح، وليست الرواية بالتالي، أي رواية، إلا سيرة ذاتية، حتى لو لم يستخدم الكاتب ضمير المتكلم، وحتى لو انسحب من مسرح الأحداث انسحابًا تامًا، وقدّم ما يجري كأنه مجرد عين سحرية نعاين من خلالها الأحداث، ونرى الأبطال ونسمعهم ونتبع حركتهم من البداية إلى النهاية.

وفي "موسم الهجرة إلى الشمال" ما يغري بأن نظن هذا الظن فالراوي شاب سوداني، في الثلاثين من عمره أو تجاوزها بسنوات أكمل دراسته في إنجلترا، وحصل على الدكتوراه في الشعر الإنجليزي، وهو ذاته شاعر ينظُم بالعربية وعاد من إنجلترا ليشغل وظيفة في وزارة المعارف السودانية وهذه صفات ومؤهلات قريبة مما نعرفه عن الطيب صالح، خصوصًا في الفترة التي كتب فيها روايته في أواسط الستينيات.

آنذاك أنهى الطيب دراسته في "كنجز كولدج" بجامعة لندن وكان في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، وكان قد بدأ طريقه في كتابة الرواية بعد محاولات لا بأس بها في كتابة الشعر الذي ما زال يعتبره أرفع الفنون الأدبية على الإطلاق، ولا يزال يحفظ منه ويتمثّل به ويرويه. وربما كان الطيب صالح واحدًا من حفّاظ الشعر العربي المعدودين في هذا العصر الذي نعيش فيه. وبإمكان القارئ أن يجد في رواياته أدلّة قوية على ما أقول، إنه في "موسم الهجرة" يجعل بطل الرواية مصطفى سعيد يقرأ لآن همند، إحدى صديقاته، قصائد لأبي نواس وهو يشرب معها خمر التفاح. وفي السهرة التي قضاها الراوي مع مصطفى سعيد في منزل محجوب شرب

الثاني حتى انطلق لسانه بقصيدة إنجليزية من القصائد التي كُتبت عن الحرب العالمية الأولى:

ينتظرن الضائعين

وفي أوراق مصطفى سعيد الخاصة التي جلس الراوي يفحصها بعد انتحار صاحبها أو غرقه، وجد محاولة من محاولاته في كتابه الشعر يقول في مطلعها:

عربدت في الصدر آهات الحزين ودموع القلب فاضت من تباريح السنين

والحقيقة أنها إحدى محاولات الطيب صالح الذي جعل بطل الرواية، كما جعل الراوي شبيهًا له غير أن الراوي سواء في رواية الطيب صالح أو في روايات غيره ليس الكاتب، مهما يكن من وجوه الشبه بينهما.

الراوي شخصية من شخصيات الراوية التي يخلقها الكاتب مستفيدًا من تجربته الشخصية التي نجدها متناثرة في مختلف شخصياته موزّعة على الجميع لا محصورة في شخصية واحدة. فالراوي إذًا شخصية روائية يرسمها الكاتب ويلوّنها كما يريد، ويحدّد لها دورها وطريقتها في التعبير عن نفسها وتمثيل غيرها من الشخصيات.

ولقد رأى الراوي أو رأى له الطيب صالح أن يكون إلى جانب دوره كراوٍ، وجهًا آخر لبطل الرواية مصطفى سعيد الذي وضع لنفسه خلال السنوات التي عاشها في إنجلترا هدفين مقدسين: أن يتفوق علميًا على الإنجليز أنفسهم حتى ينتزع منهم المكان الذي عيّن فيه محاضرًا في

جامعة لندن، وأن يتقّلب بين أحضان نسائهم، حتى لا تمر ليلــة دون أن يملأ فراشه منهن بجسد فاتن. وقد نجح مصطفى سعيد في تحقيق الهــدفين حتى انتهى إلى المرأة التي استعصت عليه، فتزوجها ثم قتلها.

والراوي لا يقول لنا صراحة إنه الوجه الآخر لمصطفى سعيد، بــل هو يقول لنا صراحة إنه رجل آخر عاد إلى قريته فرأى فيها رجلاً غريبًــا هو مصطفى سعيد الذي قرر الراوي أن يحلّ لغزه ويكشف عن شخصيته، لكن إنكار الراوي لصلته بمصطفى سعيد ربما كان مجرد حيلــة، احتالهــا الطيب صالح ليُحكم بناء الرواية ويحبُك أحداثها، وهناك أكثر من شاهد على الصلة العضوية التي تجعل الراوي شبيهًا بالبطل أو وجهًا آخر له.

كل منهما بدأ دراسته في السودان، وأكمل تعليمه في إنجلترا، ثم عاد إلى بلده في النهاية وكل منهما يحب الشعر ويرويــه بــاللغتين العربيــة والإنجليزية، وقد اختار مصطفى سعيد الراوي وصيًا على ولديه وقد كاد الراوي أن يقع في حب أرملة مصطفى سعيد أو وقع بالفعل وإذا كــان مصطفى سعيد قد مات غريقًا في النيل، فقد انتهت الروايــة والــراوي يغالب الموج بين الضفتين.

ونحن نعرف حاضر الراوي في السودان ولا نعرف ماضيه في إنجلترا، أما مصطفى سعيد الذي سيكشف لنا الراوي عن ماضيه، فنحن لا نعرف الكثير عن حاضره، وبوسعنا أن نقول إن الراوي هو حاضــر مــصطفى سعيد أو وجهه المكشوف، وإن مصطفى سعيد هو ماضــي الــراوي أو وجهه المستور.

لقد غرق مصطفى سعيد في النيل أو انتحر، لكن الذي غـــرق في الحقيقة هو ماضيه، أما حاضره فباقٍ متحقق في الراوي الذي قرر أن يختار الحياة "وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى.. وبكل ما بقي لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مـــسرح: النجـــدة.. النجدة!".

- لماذا قسّم الكاتب بطل الرواية في رجلين؟

أولاً: لتكون الرواية التي تدور حول مأساة مصطفى سعيد حـــلاً للّغـــز وتنقيبًا عن أسراره، ولو أن بطل الرواية كان شخصًا واحدًا يتحدث عن نفسه، أو يتحدث عنه الراوي لكانت مجرّد سرد أو حكاية مسطحة، لكن الطيب صالح جعل البطل في شخصين يطارد أحدهما الآخر منقبًّـــا عـــن حاضره وماضيه، وبهذا حوّل الحكاية إلى رواية غنية بالعناصر المتصارعة.

هذا تفسير فني أو جمالي. وهناك تفسير اجتماعي، وهو أن الكاتب السوداني الذي يعلم أن بعض قرائه ربما اعتبروه هو نفسه بطلاً لروايتـــه، ووحّدوا بينه وبين مصطفى سعيد الذي يشبهه إلى حد ما، قد فـــضّل أن يخلق بطلاً آخر عاش أيضًا في إنجلترا دون أن يقع في الأخطاء التي وقـــع فيها مصطفى سعيد أودون أن نعلم عن أخطائه شيئًا، وأسند إليه روايـــة الأحداث، ليخلط القراء، إذا أرادوا، بين الطيب، وهذا الـــراوي حَـــسَن السمعة، بدلاً من أن يخلطوا بينه وبين مصطفى سعيد القاتل العربيد!

الحقيقة محيّرة، والناس جميعًا متشابهون بقدر ما هم مختلفون وهذا لا ينطبق على الراوي ومصطفى سعيد فحسب، بل ينطبـــق حـــتى علـــى

مصطفى سعيد وجين مورس، على الزوج الأسود القاتل وزوجته القتيلة – البيضاء، عطيل وديدمونة، الجنوب والشمال. كانت تحتقره، نعم لكنه كان يريدها جارية أو سبية "أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيًا أنا الملاّح القرصان، وجين مورس هي ساحل الهلاك، ولكنني لا أبالي".

وإذا كانت آن همند – هذه الفتاة التي لم تبلغ العشرين وكانت تدرس اللغات الشرقية في جامعة لندن – قد أهدت مصطفى سعيد صورتها بالعباءة العربية والعقال، وكتبت تحت الصورة بخط عربي مهتزّ "من جاريتك سوسن"، فقد كان مصطفى سعيد يسمي نفسه أحيانًا تشارلز وريتشارد، يخفي بذلك شخصه أو يموّه على صديقاته، لكنه كان في الوقت ذاته يعبّر عن افتتانه بأوروبا والأوربيين: "ثلاثون عامًا. كان شجر الصفصاف يبيضّ ويخضرّ ويصفرّ في الحدائق. وطير الوقواق يغني للربيع كل عام. ثلاثون عامًا وقاعة ألبرت تغصّ كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ والمطابع تُخرج آلاف الكتب في الفن والفكر مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت. كانت إيدث ستويل تغرد بالشعر، ومسرح البرنس أوف ويلز يفيض بالشباب والألق البحر في مدّه وجزره في بورنمث وبرايتن، ومنطقة البحيرات تزدهر عامًا بعد عام. الجزيرة مثل لحن عذب، سعيد حزين، في تحوّل سرابي مع تحوّل الفصول. ثلاثون عامًا وأنا جزء من كل هذا، أعيش فيه، ولا أحسّ جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة"!

كان مصطفى سعيد يقول: "أنا جنوب يحن إلى الشمال". وكان الراوي يجيب أهل قريته وهم يسألونه عن أوروبا وأهلها، فيقول: إنهم مثلنا تمامًا ونحن مثلهم ليسوا أقل منا إنسانية، ولسنا أقل منهم عنفًا وشهوانية.

يقول ود.الريس وهو شيخ في السبعين لبنت مجذوب وهي في مثل سنّه: "هل يعرف أحد حلاوة هذا الشيء أكثر منك يا بنت مجذوب؟ إنك دفنت ثمانية أزواج، والآن وأنت عجوز كركبة لو وجدتية لما قلت لا". ويقول جد الراوي الذي قارب التسعين: "سمعنا أن غند بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل". وأشعلت بنت مجذوب سيجارة، وقالت: "على الطلاق يا حاج أحمد كنت حين يرقد زوجي بين فخذي، أصرخ صراخًا تجفل منه البهائم المربوطة في مراحها في الساقية"!

أما ود. الريس الذي يقول الراوي إنه يغيّر زوجاته كما يغير حميره، فقد قرر أن يعقد على أرملة مصطفى سعيد التي تصغره بأربعين سنة، غير مبالٍ بالقرار الذي اتخذته، وهو ألا تدخل على رجل بعد مصطفى سعيد، أما "إذا أجبروني على الزواج، فإنني سأقتله وأقتل نفسي".

وقد برّت بوعدها ففي الليلة الخامسة عشرة بعد دخولها مرغمة بيت ود الريس انطلقت صرخاتها في العتمة بعد العشاء، ودخل الناس ليجدوها عارية مخدوشة مخموشة تنزف منها الدماء، وقد عضّ الشيخ المجنون حلمة نهدها حتى قطعها وكان هو إلى جانبها قد لفظ أنفاسه مطعونًا عشر طعنات!

ليس هذا المشهد إلا تكرارًا جنوبيًا لمشهد مصطفى سعيد ينفذ خنجره بين نهدي جين مورس، وهما في الفراش والمصير الإنساني هو هو لا فرق فيه بين لون ولون أو بين جنوب وشمال وتلك هي الكلمة التي يوجهها لنا الطيب صالح، وهي جديرة بكل فهم وتقدير.

ابن قرية من شمال السودان تودعه كرمكول

بشير محمد صالح

صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٩/٢/٢٥

رحلة الطيب الأخيرة كانت إلى مقابر السيد البكري بأم درمان. لقد كان الطيب كثير الأسفار، له في كل بلد أصحاب وأصدقاء وخلان.

كان عشقه الأول مصر، يشد إليها الرحال كل شتاء على موعد مع عبد الرحيم الرفاعي صديق عمره، يأتي إليها الطيب من لندن التي اتخذها مقراً ويؤوب إليها عبد الرحيم من سويسرا أوبة غريب الدار إلى وطنه.

وفي مصر استقر رفيق صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته صلاح أحمد محمد صالح الأديب الأريب الشاعر الفحل الذي تغنى بالسودان من على البعد، ومن على القرب، وكذلك كان والده أستاذ الأجيال أحمد محمد صالح.

وفي مصر كان رجاء النقاش – رحمه الله – أول من نوّه بأدب الطيب، وفيها صديقه محمو سالم مؤلف كتب الأطفال المعروف أطال الله عمره، وغيرهم كثير التقيت بعضهم وسمعت عن الآخرين.

كان الطيب يعَرِّجُ على في الدوحة ومن بعدها في البحرين وهو في طريقه لمصر، وعندها يتحول مترلي إلى ملتقي ثقافي، فالطيب لين الجانب موطأ الأكناف وحلقته محضورة، مظهره بسيط، وطعامه بسيط، ويؤمن أن طعام الاثنين يكفي لثلاثة.

وفي آخر مرة زارني فيها بالبحرين، مكث أطول مما كان يفعل، حيث حضر عيد الأضحى، وقد أظهرت فحوصات أجريت له بالمستشفى الدولي بالبحرين على إثر وعكة ألمت به بوادر المرض الذي أكّدَ في لندن. وكنا كثيراً ما نقضي جزءاً كبيراً من الليل في تذكر ناس البلد ممن هم على قيد الحياة ومن انتقل.

وقد خططنا لإصلاح المترل الذي طال غيابنا عنه ونشط لذلك نشاطاً كبيراً، غير أننا انشغلنا بمرضه عن ذلك وفي ليل يوم الثلاثاء السابع عشر من فبراير عام تسعة بعد الألفين أتاني صوت سارة متهدجاً حزيناً يخبرني بأن حالة أبيها حرجة وهبطت أرض لندن في الصباح الباكر من اليوم التالي، وحالما سمح للتليفونات بالعمل، وبينما أُمَنِّي نفسي بلقائه أتاني صوت من يخبرني أن صاحب الأمانة قد استرد أمانته.

مادت بي الأرض واختلطت عليّ الرؤى غير أن هاتفاً أتاني أن تحمل وتصبر "وشد حيلك وابقي راجل"، واعمل على مواراة جثمان أخيك، حيث يجب أن يوارى في ثرى بلده الذي لم يتخل عن حمل جنسيته طوال عمره، وظل يشيد بذكره في كل المحافل.

استقبلني صديقه الوفي محمود صالح عثمان وابنه أسامة وأخذاني إلى منزل أسامة القريب من المطار، وعندما فَجَّ الفجَّاج واستبانت الأشياء هرعا بي لداره برينس بارك لأستأذن زوجته وبناته في نقله للسودان، فأنكرتني الدار وأنكرتها إذ كان صاحبها يرقد مسجي في أحد المستشفيات بلندن، صاحبها الذي كان يهَشُ للقائي ويأخذني في أحضانه معانقاً إياي معانقة الأب لابنه الذي آب من سفر بعيد: والدار لوكلمتنا ذات أخبار فوا أسفي عليك يا طيب القوم، فأذنت بذلك جولي رفيقة دربه وصاحبته في سرائه وضرائه.

وهكذا .. وري جثمانه في ثرى السودان في مقابر البكري بأم درمان بعد أن صلى عليه خَلق كثير.

والسيد البكري صاحب المقبرة – للذين لا يعرفون – هو نجل الشيخ إسماعيل الولي الكردفاني صاحب الطريقة الإسماعيلية دفين القبة المشهورة بالأبيض ووالد السيد المكي الذي نوه بذكره خليفة المهدي قائلا: "لا خليفة إلا خليفة المهدي ولا سيد إلا السيد المكي"، ووثق شاعر الطريقة ذلك بقوله: "السلطان قال ما في سيد إلا دا المكي المؤيد"، والسيد المكي هو المسمى باسمه الحي المعروف بأم درمان حيث تجمع فيه أتباع الطريقة الإسماعيلية.

وأهل كرمكول ودبة الفقراء كلهم إسماعيلية، وكان جدنا صالح أحد خلفائها، ولا أزال أذكر كيف كنت أقرب له حمارته في يوم العيد بعد أن أضع عليها السرج والفروة ويمتطيها لابساً عباءته السوداء ومرخياً عزبته على كتفه الأيسر، رجل أبيض اللون ذو سمت ومهابة.

وفي العراء الواقع خارج البلد تقام صلاة العيد أمام قبة الشيخ ودبوبة، حيث يؤم الناس الخليفة بكري ابن الخليفة محجوب، وبعدها يقرأ خطبة العيد من أوراق توارثها أبا عن جد حتي كادت أن تتفتت من القدم، وقد كلفني ذات مرة بنقلها إلى كراسة جديدة خوفا عليها من الضياع ففعلت.

وكأني أسمع صوته وهو يقرأ منها: "ولا مكسورة القرن ولا مشقوقة الأذن ولا العرجاء ولا العجفاء ولا المريضة" هذا عن البهيمة التي لا تجزي كأضحية. وبعد الصلاة تقام حلقة الذكر أمام قبة الشيخ ود بوبة على أنغام النوبة والطبل والخلاف والباز ويرتع القوم على صوت المنشد:
أقول أنا إسماعيل بالحمد أبدأ

مقالي في مدح الرسول وأنشئ

وينتهي الذكر بعد عدة طبقات حيث يجلس القوم يستمعون إلى صوت المنشد:

حلقة الذكر روضة من جنان — وبهم حفت الملائك فيها
هكذا في حديث عالي الجناب — يرتع الذاكرون رتع نعيم
يا له من جزيل خير عميم — مصطفي كل حادث وقديم

ثم يذهبون بسفينتهم إلى قباب الشيخ محمد ود دوليب وأبنائه السبعة، حيث يقيمون حلقة ذكر أخرى، ثم حلقة ذكر ثالثة أمام قبة الخليفة صالح وينتهون في الجامع الكبير بدبة الفقراء.

وفي مقبرة الشيخ ود دوليب دفن جدنا صالح بعد أن أربى على المائة سنة بكثير، ودفن فيها والدنا وإخوانه إمام وأحمد وعبد الدائم وحمزة وكان آخرهم موتاً الذي عمر أيضا كأبيه.

أما بقية أبنائه فقد دفن سيد بالخرطوم ودفن علوب ببورتسودان ودفنت ابنته الوحيدة رحمة ببورتسودان، ولم يبق من أبنائه على قيد الحياة إلا عمنا عباس أطال الله عمره، ذلك الرجل الكفيف الذي رآه الناس أيام العزاء يبكي بحرقة، جاء من بورتسودان حيث تقيم تقوده ابنته.

ولقد رأيت أن يدفن الطيب بأم درمان بدلا من أن يرقد جنب أبيه بكرمكول، لأنني أرى ويري الكثيرون أن أم درمان هي السودان متجمعاً في بلدة، اختارها الثائر محمد أحمد المهدي كبقعة عسكر فيها جيشه الذي واجه جوردون وهزمه، وبعده صارت قبلة لكل ثائر وملاذاً لكل حر، وسكنها رجال أفذاذ، وهي عش الصالحين ومأوى الكتاب والأدباء والمثقفين، وهي بذلك نعم المرقد الأخير للطيب، وهل كان الطيب إلا للسودان عاشقاً ولأهله محباً، لقد قال عنه صديقه الحميم السفير الشاعر سيد أحمد الحردلو – مَنَّ الله عليه بالعافية – في قصيدة من عيون الشعر: "اسمك صار وطناً".

وأنا في طريقي عائداً من المقابر بعد أن وري جثمان الطيب الثرى حزيناً، مهيضاً، مكسور الخاطر عنَّ لي ما كان يقوله عمنا محمد مندور وهو رجل خبر الدنيا ومرت عليه فيها أيام ثراء وبطر.

ثم عدت عليه الأيام وذهب المال وبقي ذلك الشموخ الذي عُرف به أهلنا في كل تقلبات الزمان يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

كان يقول: عندما قيل لأحدهم أخوك مات صرخ قائلاً: "آخ يـــا ضراعي إلا تقطع".

وهكذا كانت حالي، كنت كمن قطعت يمينه وهو يتحسس مكانها آملا أن تكون لاتزال هناك، إذ لم يكن الطيب أخي فحسب، بل كان أبي بعد رحيل أبي، وكان صديقي الصدوق.. لقد كان ضوء القبيلة وزينـــة الحي لا لأنه صار أديباً.. فلا أحسب أن أهلنا كانوا يأبهون لما كان يكتب بل لأنه كان ذلك الولد الهدي الرضي حلو الشمائل جَبَّار الخواطر.

الطيب ولد بكرمكول في فريق المشاوين ليس في هذا المترل الـــذي نقلت صوره القنوات الفضائية ولكن في مترل آخر هدمه البحر في فيضان ١٩٤٨، وكان جدنا صالح يعرف بمشاوي لأنه – كما حدثني – ســـار على قدميه من كرمكول إلى سيدي عكاشة بمصر مخترقاً أرض الدناقلـــة والمحس والحلفاويين، وكان يحكي عن رحلته تلك نوادر كثيرة، لذا كان أولاده يعرفون بأولاد مشاوي.

كان جدنا يحفظ شجرة نسبه ويرددها على مسامعنا، وكان يقول: نحن شوافعة يعود نسبنا للإمام الشافعي، وكان والدهم رجلاً ثريـــاً لـــه أطيان ونخيل بقرية عَبسة بالقرب من قرية قشابي.

وقد تزوج ريا أخت الفضل عظيم البديرية النافعاب، فولدت لـــه صالح وإخوانه رمضان وأحمد وإمام والبنات زينب وعائـــشة وحـــسنة،

وعندما كثرت القلاقل في أواخر حكم الخليفة التعايشي أتوا إلى كرمكول بعد موت أبيهم حيث انضموا إلى خالهم.. وأهملوا أراضي عَبسة، وزوج والدهم أختهم زينب للفقير الركابي أحمد محمد زكريا ساكن العفاض وقشابي، وقبة جدهم حبيب نسي ظاهرة تزار حتى يوم الناس هذا، قال عنه ود ضيف الله صاحب الطبقات: "حبيب نسي الركابي مسكنه في ضنقلة قشابي من أولياء الركابية الكبار وله كرامات كثيرة"، وكان أهل دنقلة إذا تمنى أحدهم يقول: "اللهم أرزقني كرامات حبيب نسي وعبادة دوليب نسي وعلم ولد عيسى".

وقد ولدت زينب عدداً من الأولاد والبنات كانت صغراهن والدتنا عائشة أحمد زكريا التي مات والدها وأمها حبلي بها، وقد تزوجها والدنا وهو دون العشرين وهي دون الرابعة عشرة.

وقد أصاب أولاد مشاوي، كما كانوا يعرفون، ثراءً في بورتسودان على يد كبيرهم أحمد جعلهم قبلة الأنظار، ثم دار عليهم الزمان فذهبت الثروة وعادوا فقراء.

كان الطيب قد سبقني لبورتسودان حيث انتظم في المدارس النظامية إذ هو يكبرني بعشر سنوات، وعندما أخذت لبورتسودان، كان الطيب قد التحق بمدرسة وادي سيدنا الثانوية، ثم التحق بالمدارس العليا التي صارت جامعة الخرطوم الحالية، وكنت التقيه في البلد وفي بورتسودان أثناء الإجازات الدراسية.

وفي الخمسينيات من القرن الماضي، كان يراسلني وأنا بمدرسة بورتسودان الوسطى من لندن بخطابات كان يصف لي فيها لندن وعجائبها، وقد احتفظت بتلك الخطابات مع كتبي في مترلنا بكرمكول وامتدت إليها الأيدي وعرضت في القنوات الفضائية دون استئذان.

وفي حياة الطيب شخصيتان عظيمتان لا يعرفهما الناس أثرتا فيه، إما وراثة أو معايشة: أولاهما والده محمد صالح أحمد الذي يكنى بأبي الطيب وبه كان فرحاً فخوراً، وكان إذا افتخر يقول "أنا أبو الطيب".

أبانا هذا كان محباً للعلم والعلماء لأنه ابتدأ الدراسة في مدرسة دبة الفقراء ثم انقطع عنها وكان لذلك أسفاً أشد الأسف، وكان محباً للصالحين، وكان يفتخر بأن الفقيه بخيت الذي يعتكف في غار بدبة الفقراء لم يخرج إلا لزيارته في كرمكول، وكان محباً للعابد السائح محمد عبد الحفيظ الملقب بالحنين، ومازلت أذكر كيف كان يأتي من لا مكان إلى مترلنا القديم وسبحته الألفية اللالوب في عنقه وركوته وشعبته في يده.

دفع والدنا بالطيب للمدارس في وقت كان ناس بلدنا لا ينشطون للتعليم، إذ كانوا يحبون العاجلة من حوالات شهرية من عمل الأولاد المبكر شعارهم في ذلك "يوماً يشيلك صباك ويوماً يشيلك جناك"، والدنا صبر على الطيب كما صبر على من بعده رغم فقره حتى قطع كل المراحل التعليمية، وفيما بعد عندما عرف الناس قيمة التعليم كان هو الذي يتصدى للجان لإدخال أبناء إخوانه وأقربائه وناس البلد للمدارس، ومازلت أذكر قوله لمن سأله من أعضاء إحدى اللجان: "أنت يا شيخ

محمد عندكم ولد" ديل أولاد السودان يتعلموا ينفعوا البلد، لقد كان رجلاً طيب القلب، محباً لإخوانه ولمن يمت له بصلة.

كان يحب الطيب ويفضله، وفي أخريات أيامه أوصاني قائلا: "خلي بالك من أخوك".

الشخصية الثانية التي تركت بصماتها على الطيب هي والدتنا عائشة بنت أحمد زكريا، لقد كانت تقول الشعر في كل المناسبات وتحفظ مدائح ود سعيد وحاج الماحي وترددها بصوتها الشجي:

قال لك ود سعيد النفسه عاجبالُ للربا والعجب شال نومه مع بالُ

ربنا يا كريم للعبد حوالُ	**حول حاله لأحسن الحالة**
وزوجة من حسان الجنة أمثال	**أو العبيد البُوم الفدن**
نفسه خاينه تحب الشتم	**حين مرضت قعدت تهم**
يعفاها وتترحم	**وفي هواها تقوم تتلخم"**

وكانت قصَّاصة ماهرة تحكي الأساطير وتحول شخصياتها لرجال ونساء يمشون بين الناس.

وكان الكبار قبل الصغار يلتفون حولها لسماع قصصها في ليالي بلدنا المقمرة. وكم كان للقمر من سحر في كرمكول كان النساء يبكين مع فاطمة التي تبحث عن أبيها الذي غاب في سفر فقتل عمها أخها بسبب تافه:

ما شفتو أبوي يا جلابة	**عمي أخي أبوي يا جلابة**

عشان فرد قندول يا جلاب أخضر وطويل يا جلابة
قتل محمد أخوي ياجلابة بياكلو الزرزور يا جلابة

كانت تغني ذلك بصوت شجي حزين يبكي السامعين، وكانت تبتدئ قصصها بقولها:

قالوا وقالوا: الله يكفينا شر قلنا وقالوا

غير أن عمتنا ستنة التي عاشت بمصر زماناً وصارت تعرف بستنة بنت الريف كانت تبدأ قصصها بقولها:

كان يا ما كان، ما يحلو المقال إلا بذكر النبي – عليه الصلاة والسلام – وكان على الحاضرين أن يرددوا الصلاة على النبي – صلي الله عليه وسلم.

كرمكول قرية عادية على حَدَبَة النيل ليس بها شيء يلفت النظر، شريط من الأرض تكسوه أشجار النخيل مع مساحات ضيقة لزراعة المحاصيل قَلَّ من كان يعتمد عليها اعتماداً كاملاً في معيشته، كانوا يعتمدون على المبالغ التي ترسل إليهم كل شهر من الأزواج والأبناء بالبريد أحيانا وباليد مع القادمين في أغلب الأحيان.

اللافت للنظر في كرمكول هو أهلها، ولأنهم كانوا بعيدين عن الحكومات وما كانت الحكومة تأبه بهم فقدكونوا مجتمعاً مستقلاً قائماً بذاته معتمداً على نفسه في أحواله الدينية والاجتماعية والصحية والتعليمية، فهنالك النساج والحداد والطهار والبصير ومعلم القرآن والقابلة.

كانت حكومتهم هي العمدة وكاتبه والشيخ والجراي وكانوا يحلون المشاكل بالتراضي وبالتي هي أحسن.

المرأة في مجتمع كرمكول كانت معززة مكرمة، وكانت عاملة في كل أطوار الزراعة من سليك ورمي للتيراب ومتيق وجابيق وتذرية للحبوب بعد النوريق.

وكان من أكبر العيوب أن يضرب الرجل امرأته لأنه عليه أن يشكوها إن أخطأت لأوليائها من أب أو أخ أو عم، فإن ثبت عليه الخطأ كان عليه أن يسترضيها برضوة من حلي أوعود تمر.

وكان من العيب أن يذكر الرجل للناس السبب الذي من أجله طلق امرأته فإن سأله متطفل يجيب: "أكلنا عيشنا" أو "العيش انقطع" فإنها في النهاية عرضه وغالباً ما كانت تمت له بقرابة قريبة، وشعارهم في الزواج: "إن كان ماعونك فاتح ما تغطي ماعون الناس".

ومن شخصيات كرمكول التي كانت مميزة ومعروفة على نطاق السودان والمقربين من والدنا العمدة سعيد ميرغني فضل، كان هذا الرجل ذكياً لماحاً ونسابة لا يجاري، وفوق ذلك كان أول من يخفف للعزاء ومن يشارك في الأفراح، وكان كريماً ومضيافاً وأخا إخوان، وكان محباً للمتعلمين من أبناء البلد، وفاز بمقعد في مجلس الشيوخ في العهد الديمقراطي.

و لم أر مجتمعاً متسامحاً كمجتمع كرمكول يتعايش فيه حملة القرآن مع بقية الناس دون تكبر أو ترفع، ولا يسأل أحد أحداً عن خصوصياته.

لقد أحب أهل البلد الطيب لا لأنه كان أديباً أو ذا شهرة، فليس ذلك من اهتماماتهم فالرجل عندهم إن طار وإن قعد فهو ولد فلانة وولد فلان، وإياك أن تتحذلق أمامهم فقد يلصقون بك اسما لن يفارقك حتي الممات.

أحب أهل البلد الطيب لأنه كان ذلك الولد الودود الذي يسايرهم في كلامهم جبراً لخواطرهم، وعندما صار كاسباً يصرف الماهية كان يجود عليهم ببعض ماله، وكان الطيب يعود للبلد من لندن فيجد أمي قد سَمَّنت له خروفاً يعرفه أهلنا بخروف الطيب، وكان أول من يحمل لها بشارة عودته تنفخه بجنيه كامل، وأذكر أن امرأة من أهلنا رأتني أنزل من اللوري في إحدي إجازات الجامعة وظنتني الطيب فصارت تصيح من بعيد لتضمن البشارة: واجيدلك يا عائشة واجيدلك، وعندما تأكدت أنني لست هو قالت: إي بس- دا بشير وقالت أخرى تريد أن تستأثر بالبشارة: لا تجري تقطعي نفسك دا بشير، هذا لأنني كنت طالباً ما عندي ما أعطيه وفوق ذلك كنت أذهب للبلد في كل إجازات الجامعة وما أكثرها.

والآن وقد أتى ذكر المحاسن بعد انتقال المحسن أشهد بأن الطيب كان يرسل لي مبلغاً معتبراً أقوم بتوزيعه على ذوي الأرحام، وكان ذلك يتم في صمت وتكتم عرفت به.

قال عمنا طلب السيد للطيب وقد ساعده في حفر بئره: "والله أهلك الكان ما سموك الطيب ما كان عرفوا لك اسم"، ولقد كان الطيب في ذلك الوقت طالباً في الثانوي.

رحمك الله يا طيب الأخلاق والمروءة والعشرة وعفا عنك، كيف تأتي لك أن تذهب وتتركني هكذا وحيداً أحمل العبء وحدي بعد أن وهن العظم واشتعل الرأس شيباً. إن قابلت شيخك وشيخي وأنت إن شاء الله مقابله في جنات النعيم فأقرئه مني السلام وقل له إن أخي عمل بالوصية.

ومن غيرك أحق بقول من قال:

أما القبور فإنهن أوانس	**بجوار قبرك والديار قبور**
عمت مصيبته فعم هلاكه	**فالناس فيه كلهم مأجور**
ردّت صنائعه عليه حياته	**فكأنه من نشرها منشور**

وسلام عليك ما غردت القماري على نخيلات بكرمكول، وما فاض النيل هادئاً أم غضباناً، وعلى مثلك فالتبك البواكي.

الطيب صالح، شأنه شأن أبي الطيب بالمتنبي

د. حسن أبشر الطيب

الروائي العالمي المبدع الطيب صالح، شأنه شأن شاعره الأثير أبي الطيب أحمد بن الحسن الملقب بالمتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس وتوطدت مكانته في الآفاق العربية والأعجمية. ومن آيات ذلك أن الكثرة الغالبة من النقاد رأت في أعماله الروائية فتحاً جديداً في عالم الرواية العالمية. وستلمس شاهداً على هذه المكانة الرفيعة التي تبوأها بجدارة، وهذا الصيت الرحب الواسع الذي حققه باقتدار، يعلمك أن أعماله الروائية نشرت وقرئت في عشرين لغة حية.

إلى جانب اللغة العربية ترجمت أعماله إلى تسع عشرة لغة تشمل: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الصينية، اليابانية، التشيكية، المجرية، الإسبانية، الإيطالية، الهولندية، التركية، البولندية، النرويجية، البلغارية، السلافية، التشيكية، المجرية، الدانماركية، الكورية والعبرية واحتفت بأعماله الروائية المبدعة الدوائر الأدبية، العربية والأعجمية، فجعلت من هذه

الأعمال الثرية مادة للعرض والدراسة والتحليل في عدد وافر من الكتب والمقالات التي نشرت في الحوليات والدوريات، كما كانت هذه الأعمال الروائية مادة للدراسة والأطروحات الجامعية لدرجات الماجستير والدكتوراه، التي بلغ عددها ثماني أطروحات لدرجة الماجستير وعشر أطروحات لدرجة الدكتوراه أما أطروحات الماجستير فقد شملت: أطروحتين باللغة العربية، وواحدة بالإنجليزية، وثلاثاً بالفرنسية، وواحدة بالألمانية، وواحدة بالعربية بينما شملت أطروحات الدكتوراه: ثلاثاً باللغة العربية، وخمساً بالإنجليزية، وواحدة بالفرنسية، وواحدة بالمجرية، وبذلك استطاع هذا الروائي العبقري أن يعبر بفنه الروائي الأصيل إلى هذا الكم الهائل من لغات الأمم الأخرى.

الأستاذ الطيب صالح جدير بهذا الاحتفاء، وأكثر، وبهذه المكانة الرفيعة التي تسنمها بحق وجدارة، فأنت تقرأ أعماله الروائية وغير الروائية فتلمس هذه القدرة على التأليف الأدبي الإبداعي المتكامل الذي يعني بالشكل والمضمون في آن واحد. إنك تعيش في كل أعماله هذا الفيض الزاخر من الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة، وتطرب في الوقت ذاته لعذوبة لغته الشاعرة التي تتسم بالقدرة الباهرة على التشكيل اللغوي الموحي، والنسيج الشعري الشجي المرهف الذي يكتسي وهجاً وفناً صادقاً أخاذاً، وقدرة عالية على الإيحاء. وهو في كل ذلك يعبر عن قدر وافر من التجارب، احتضنها وتأملها واستكشف معانيها، وصاغها عملاً

جديداً مبدعاً بأي حال من الأحوال إنه واقع أرحب وأعمق وأكثر تعبيراً عما يعتمل في نفس المؤلف من أفكار ومشاعر.

إن القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية، لا جدال، سيعيش هذا الثراء الفكري والفني المبني على أصالة الفكر، وثراء التجربة الإنسانية، واستقراء وتحليل واستجلاء واستنباط دقائق الحياة، ورحابة الخيال وحب الاستبصار، والتعبير عن كل ذلك بلغة شاعرة تتميز بالرصانة والجزالة والوجدانية المتفردة الموحية.

لقد امتلك أدوات فنه الروائي المبدع، فأنت من جهة تشهد له على هذه القدرة المتميزة على الحكي وبلورة الفكرة رويداً رويداً ليشيد باستدعاء التفاصيل ونسج العلاقات بين الأطراف المتجانسة حيناً، المتنازعة أحياناً أخرى، هذا البناء المتكامل الذي يتداخل فيه الواقع والخيال، وتتمازج فيه الأحلام مع الواقع الماثل، وتتناغم فيه كل المشاعر على اختلاف منباعها وتوجهاتها. ويستند في كل ذلك إلي مخزون ثري من التجارب، وإلى تداعيات لا متناهية من الخيال، وعلى افتتان باللغة العربية، يؤكده إتقانه لها، وعلمه بأسرارها، وسعيه الدءوب لإظهار جمالياتها. يضاف إلى كل ذلك قدرته الخاصة والممييزة على توظيف كل حواسه توظيفاً يقظاً ومبدعاً لاستشراف والتقاط كل المدركات السمعية والبصرية لتكثيف وتجسيد المشهد والموقف، والتعبير الدقيق والموحي بما وراء المدركات من خلجات دفينة تتفاعل في صدور ودواخل شخوص رواياته فتعطيها شيئاً من خصوصيتها وذاتيتها ولغتها وطابعها المتفرد في الحركة

والسكون، وذلك من الرسم الإيحائي بالكلمات الوارفة المعطاءة، يمنح هذا الفكر والفن الروائي تفرداً وجدة وقدرة هائلة على التواصل مع القراء هلاّ ذكرت مثالاً من تشبيهاته الأولى: "وتفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ.كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد"، وإنك لتكاد تسمع أصوات الفرح وتشهد عن قرب وجداني حميم زواج ضوّ البيت وأنت مشدود إلى وصفه بهذه اللغة الشاعرة: "الليلة كل شيء حي، فاح العبير وتمّ السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار، كل غصن تثني، وكل نهد ارتعش، وكل طرف كحيل وكل خدّ أسيل، وكل فم عسيل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل.. وكل الناس ضوّ البيت".

ويظل حديث الطيب صالح عن صديقه "منسي" عملاً رائداً، ما هو بالعمل الروائي، وما هو بالصور القلمية، وما هو بالمقالات التحليلية، وما هو بالسيرة الخاصة بصديق ما هو بشيء من هذا أو ذاك، بل هو كل ذلك في هيئة واحدة وفي تناغم فريد قرأ الناس هذا العمل المبدع عندما نشره في حلقات متتابعة في مجلة "المجلة"، وأعجبوا به، وتناقلوا خبره، وظل الكل يترقب نشره في كتاب، غير أن الطيب صالح كعادته ظل يرجئ النشر من عام إلى آخر، أملاً في أن يجد متسعاً من الوقت يعينه على إدخال شيء من المراجعة والتعديل إن هذا العمل المتميز يمثل في اعتقادي طوراً جديداً من التأليف الإبداعي، سيكون للمؤلف فيه قصب السبق، وسيشهد القراء عندما يقرأونه متكاملاً بين دفتي كتاب أنه عمل إبداعي

رائد جدير بالاحتفاء وقد كان "منسي"، على كل حال، كما يحدثنا المؤلف: "لم يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علاته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه ضوضاء عظيمة وحمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، ومنسي يوسف بسطاوروس، ومايكل جوزيف ومثل على مسرح أعمال ومهرجاً ولد على ملة ومات على ملة. ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة، واستطبلات خيل، وسيارات وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية فرجينيا، بالولايات المتحدة الأمريكية، وبيتاً في واشنطن، ومطعماً، وشركة سياحية".

ما كان منسي شخصية أسطورية، لكنه صاحب قدرات خارقة قادرة على النهوض بكل هذه الأدوار على تعددها وتنوعها وتعارضها في معظم الأحيان وكان من حسن حظنا أن يكون الطيب صالح له صديقاً فيمنحنا الفرصة بفضل قدراته الخلاقة أن نعيش مع "منسي" في كل أدواره، ونتفاعل سلباً وإيجاباً مع أفكاره ومشاعره، وقد يشتهي بعضنا أن يعيش شيئاً من حياة منسي بمقدار فتأمل!!

تقول العرب: لكل من اسمه نصيب، والطيب صالح جمع بين الطيبة والصلاح، وهو حقيقة كذلك، هنيئاً له. تجلله هذه الطيبة المتناهية، والنزاهة الأخلاقية الرفيعة المتمثلة في تعففه وإبائه وسخائه وتسامحه وسعيه

المتصل في طلب الخير للآخرين. من يعرفه عن قرب يجد فيه هذا النقاء اللامحدود، وهذا الإخلاص الفطري، وهذه البشاشة والبساطة غير المتكلفة في كل شيء: لغة وهيئة وحركة. وهذه النظرة المتفائلة المستبشرة بأن الغد سيلد خيراً كثيراً وهو من بعد ومن قبل يتمتع بروح متفتحة، متفهمة ذات قدرة نافذة على الإنصات، وعلى تلمس مواطن الخير، وعلى التفاعل الإيجابي، وعلى التواصل والألفة بالقدر الذي مكنه من تنمية علاقات إنسانية حميمة مع قاعدة عريضة من الأصدقاء، والمريدين والقراء. لكل هذه السجايا الرفيعة ظل للطيب صالح ألقه الدائم، وعطاؤه الصادق الثري المتجدد ولا جدال أن القارئ سيجد ما يعضد هذا الذي أجملت في شهادات أصدقائه التي يحفل بها هذا الكتاب، ونقلت صوراً حية من سجاياه الفريدة المتسقة مع نتاجه الروائي المتفرد سيحدثونك في هذه الشهادات عن نبل خلقه ورقة شمائله، وتعاطفه الحاني، وفضله ونقاء سريرته.

وتجدر الإشارة بشكل خاص إلى نشأته القروية، فهي دائماً المرجعية الجوهرية لما ظل يمثله من قيم، وما يحمله من عطاء ثابت، وما يدعو له من أفكار، وما يعبر عنه من مشاعر صادقة وخيرة ومحبة لكل أوجه الخير. يقول: "كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت، وأتذكرها أحياناً في المنطقة الفاصلة بين ديار الشايقية والدناقلة أهلي من قبيلتي البديرية والركابية، وربما كانت أنسابهم قد اختلطت بقبائل أخرى، لكن معظمهم من الركابية وديارنا توجد في

قشابي والعفاض والدبة، وهي التي توجد فيها كرمكول.. الدبة حيث ولدت وترعرت، وكانت بلد علم وعلماء منذ قديم الزمان .. نشأت في هذه المنطقة المفعمة بتاريخها، والزاخرة بعاداتها وتقاليدها المتسامحة، وداخل مجتمع متساكن ومندمج، في أواخر الثلاثينيات والأربعينيات كانت قران مكتفية بذاتها مثل جميع قرى شمال السودان، والناس تأكل من الأرض التي تزرعها بالقمح والذرة والدخن والذرة الشامية والخضراوات كانت تلك البيئة تصنع ثقافتها بنفسها، أتذكر عندما يجيء المداحون إلى بلدتنا للتغني بفارغ الصبر، وفور وصولهم تذبح الذبائح ويتجمع الناس ليلاً في دائرة، رجالاً ونساء وأطفالاً، يستمعون بانتباه ونشوة لتلك القصائد".

إن القارئ لأعماله الروائية وغيرها من ألوان التأليف الأخرى، ليلمس هذا الانتماء الحميم وهذا العشق البين، وهذا الانحياز بوجد وموضوعية إلى قضايا وطنه وأمته لا يفتعل ذلك افتعال من ينشدون الخطابة والوجاهة السياسية، لكنه يعبر تعبيراً صادقاً عما يختلج في دواخله من أفراح وأحزان، ومن آمال وطموحات ومن إحباطات ولأن كل ذلك ناتج عن انتماء صادق وفيض غامر من المحبة فإنه ينفذ من قلبه وعقله إلى قلب وعقول مريديه.

يقول: "أما السودان، فأنا أحمله بين جوانحي، وحيثما ذهبت وحيثما أذهب. هذا هو الوجع الأول، الوجع البدائي واللانهائي، السودان بلد مليء بالثراء النفسي والروحي، فيه طاقات ومواهب، فيه نساء ورجال إبداع.. كان من الممكن أن يكون السودان أحسن صورة..

السودان حاضرة في مخيلتي أكثر".

و لم يكن انحيازه السياسي لقضايا وطنه وأمته مبنياً على انحياز حزبي ضيق فقد ظل دوماً معبراً عن فكره ورويته ومشاعره كما تمليهـــا عليـــه مواقفه من دون شرط أو قيد من حزب أو جماعة، وكأني به يتمثل قـــول الشاعر الأستاذ أحمد محمد صالح في قصيدته الرائعة "فينوس":

هرعـــــوا إليـــــك جماعـــــة **وبقيـــت مثـــل الـــسيف وحـــدي**
هـــــذي اليراعـــــة في يـــــدي **لـــو شـــئت كانـــت ذات حـــد**
لـــــو شـــئت ســـالت علقمـــاً **سمـــاً يـــري عنـــد التحـــدي**
فـــــإذا رضـــــيت فإنهـــــا **شـــــهد مـــــصفي أي شـــــهد**
لي مـــــن بيـــــاني صـــــارم **وكتائـــب العزمـــات جنـــدي**

والأستاذ الطيب صالح، إلى ذلك مثقف بأعظم ما يحمل هذا المصطلح من معان ولعل السير دوجلاس نيوبولد، صاحب المحاضرة الشهيرة "الوجـــه الإنساني للثقافة"، التي قدمها في حفل افتتاح دار الثقافة بالخرطوم في ٣٠ مايو ١٩٤٠، لو عاش، لوجد ذلك النموذج الرفيع للمثقف الذي تحـــدث عنه في الطيب صالح.

يقول نيوبولد: "إن أهم المكونات الضرورية لشخـــصية الإنـــسان المثقف هي صفة "الإنسانية" إذ لا أستطيع أن أصف إنساناً بأنه مثقف لو لم تكن لديه هذه الصفة. والإنسانية تتمثل في أربع صفات: رحابة الخيال، والتسامح، والبساطة، وروح الدعابة.

فالخيال هو الصفة التي يضيفها الإنسان الذكي إلى ما يقرأ أو ما يكتب لكي يزداد فهماً له، ولكي يجعله أقرب إلى الحياة والواقع. أما التسامح فإن المثقف يرى أن الحقيقة أمر نسبي، وأن الجمال يشبه قوس قزح في تعدد ألوانه، وأن الموسيقى موالفة بين نغمات مختلفة، وأن العالم أخلاط شتى من البشر.

كما أن التباين في الحياة والطبيعة يولد فيه إحساساً بالنشوة وليس بالضيق أو الضجر ومن المسلمات أن البساطة في العيش والتفكير هي أصوب المثاليات التي تنشرها الحضارة والثقافة، لأن الحضارة حين تفقد البساطة لا يمكن إلا أن تضمحل وترتبك وتعتريها حالة من التخبط والضياع. وثمة تناقض وحقيقة في الوقت ذاته في أن البساطة هي العلامة الخارجية والرمز الظاهر لعمق الفكر. وهي تكاد تكون أصعب شيء يمكن تحقيقه سواء في التحصيل الدراسي أو في الكتابة والتأليف أما الصفة الرابعة وهي الدعاية فلها وظيفة كيميائية، فهي تحدث تحولاً في النسيج الأساسي لفكرنا وتجاربنا. فالدعابة تقترن بالضرورة بالمنطق السليم بروح العقلانية، إلى جانب القوة الذهنية الماكرة القادرة على الكشف عن التناقضات والحماقات والمنطق الفاسد، وتلك هي أسمى صورة للذكاء البشري وهكذا نجد "المثقف" ينظر إلى كل شيء باهتمام عقلاني ذكي، وتسامح مقترن بروح الدعابة، وخيال رحيب، وهكذا لا يكتسب الحكمة فحسب، وإنما يفوز أيضاً بما يفوز به الفيلسوف الحق من سعادة متصلة لا تنقطع".

هذه السجايا الإيجابية الحميدة التي تجسد صورة حية لـــ"المثقف" في أجمل صوره، تتوافر أدق وأكمل معانيها في الطيب صالح. وقد منحته هذه الصفات الإيجابية القدرة على الإطلالة والتواصل مع قاعدة عريضة مـــن القراء باللغة العربية وغيرها من اللغات الحية، الذين سحروا بهـــذا الأدب الروائي الباذخ السهل الممتع في آن.

والطيب صالح مفكر موسوعي الثقافة، يمثل مرجعاً وافر المعرفـــة في غير حقل وموضوع يقرأ بنـــهم ووعـــي وتفهـــم في الأدب والـــسياسة والاجتماع والتاريخ، وهو مفتون بدرجة من الدرجات بعلم المستقبليات الذي ينضوي على دائرة واسعة من العلوم المعاصرة ولكـــل هـــذا فـــإن إسهاماته المتميزة في العديد من المنتديات الفكرية تمثل إضافة حقيقيـــة في استكشاف محاور وأبعاد الموضوع مثار الحديث.

صديق الطيب

صلاح أحمد محمد صالح

علاقتي بالطيب صالح ليس لها في مخيلتي تاريخ معين ولا تصنيف محدد، فقد تعمّقت جذورها مع الزمن والعشرة الطويلة وتجارب الحياة غير العادية في الغربة، فأصبحت الدروب موحدة والأحلام مشتركة والطموحات متشابهة، وأصبح بالتالي الخيط رفيعًا جدًا بين صفة الصديق الصدوق والأخ الفرد في العائلة، وهو إلى الأخيرة أقرب بالنسبة إليّ. وكثيرًا ما كنت أسائل نفسي: كيف كانت ستتشكل جوانب عدة من حياتنا لو لم يلق القدر بكل منا في طريق الآخر؟

ومن عجب أن هذه العلاقة أتت في بدايتها بصورة مغايرة تمامًا لما انتهت إليه في يوم من أوائل شهر فبراير عام ١٩٥٣، كنت أقف أمام الصندوق (الكاشير) في مطعم "هيئة الإذاعة البريطانية" بلندن (حيث كنت أعمل) عندما مالت نحوي "المس بيرتون" السيدة الإنجليزية الفاضلة التي كانت تدير شئون الموظفين في ذلك الوقت، وقالت تبشرني: لقد تم

تعيين زميل جديد من مواطنيك السودانيين.. وسوف يصل إلى لندن قريبًا.. سألتها عن اسمه فقالت إنه لا يحضرها ولكن اسمه قريب من اسمى، ووعدت بأن توافيني به عندما تصعد إلى مكتبها.. فألححت عليها ألا تنسى، لأنني متلهّف لمعرفة من هو هذا القادم الجديد من السودان.

كان اهتمامي الشديد بمعرفة اسمه ينبع من حقيقة أنه في ذلك الزمان كانت إذاعة لندن العربية أقوى الإذاعات بالنسبة إلى العالم العربي وأوسعها انتشارًا.. وكان المذيعون العرب فيها نخبة محدودة، ومعروفين جيدًا وعلى نطاق واسع بين المستمعين في كل أنحاء العالم العربى، لذلك كانوا يتبارون ويتنافسون ويجودون. كل له جمهوره ومعجبوه.. مثل نجوم السينما في ذلك الزمان.. وما هو أهم ومع وحدة المشاعر العربية القومية أن كل واحد منهم كان يعتبر نفسه سفيرًا لبلاده من خلال ذلك الجهاز الخطير، وكأنه يحمل سمعتها على كتفيه.

لذلك كان حرصي المتزايد على معرفة زميلي الجديد وما هي خلفيته الإذاعية والفنية والكفاية التي أهلته للوصول إلى هذا المكان المميز.. وهل سيكون في المستوى المناسب الذي آمله ليمثل السودان ويشرفه؟.. وهل سيكون صديقًا وأخًا "أشد به أزري"؟ وقد كنت السوداني الوحيد في تلك المؤسسة.. فعلا هاتفتني المس بيرتون لتخبرني باسم الزميل الجديد "الطيب محمد صالح".. الاسم ليس غريبا عليَّ، ولكن أين؟ ورحت أضغط على الذاكرة أن تسعفني.. ومازلت بها حتى عادت بي إلى أيام الدراسة في أواخر الأربعينيات من القرن (الذي مضى الآن) .. في السنة

النهائية بمدرسة "وادي سيدنا" القريبة من أم درمان.. وارتسم أمام عيني وجه تلميذ من أبناء قرى شمال السودان.. لكني قلت لنفسي للوهلة الأولى: لا، لا يمكن أن يكون هذا هو.. وحاولت أن أصرف النظر عنه تمامًا، لكن الذاكرة تعود فترسم أمامي ذلك الوجه من جديد.. وهكذا، إلى أن استسلمت وأكدت لنفسي.. لا فائدة.. إنه هو بذاته.

كنت أصادفه من حين إلى آخر بين الفصول أو في ميادين المدرسة وقاعات الطعام وعندما كنت أزور بعض الأصدقاء المشتركين في داخلية "نيوبولد" التي تسكنها أكثرية من الطلبة أبناء شمال السودان، وكان هو واحدًا منهم.

وفي كل مرة نلتقي لم يكن بيننا غير تحية عابرة إن لم تكن فاترة.. التفاعل الكيميائي بيننا لم يكن على ما يرام.. وكنت أحس أن عنده لي قدرًا من عدم الاستلطاف في مجتمع المدرسة. بقدر ما كان هو هادئًا ذا نزعة اعتبرتها انعزالية وغير ودية، يعزف عن "دوشة" التجمعات والشلل الطلابية، كنت أنا على العكس من ذلك تمامًا. ضجيجًا متحركًا لا يهدأ في كل أركان المدرسة.. في الداخلية والجمعيات وميادين الرياضة والمسرح.. إلخ.. وقد اعترف لي الطيب، فيما بعد أنه كان يعتبرني مهرجًا، واعترفت له أنني كنت أظن أنه "متخلف"! وفي الحقيقة كان لهؤلاء الفتية من خارج العاصمة رأي سلبي مسبق في أولاد "العاصمة" وأم درمان على الخصوص، وأنا من أم درمان.. يسموننا "أولاد الأفندية" المتعلمين المتعالين دون مبرر، حلوقهم وحناجرهم أكبر من عقولهم. أوكما

ذكر الطيب في ذكرياته ما معناه أنهم كانوا يملأون الدنيا ضجيجًا وجعجعة خارج الفصول.. ويلزمون الصمت في داخلها حيث يحتل المسرح أبناء الأقاليم المساكين "الشطار".

على هذه الخلفية افترقنا في وادي سيدنا، وكان الطيب صالح في ذاكرتي طيفًا ضبابيًا ما لبث أن تبخر و لم أتوقع أن نلتقي مرة أخرى، لكن "حمدًا لله" أن ساعي البريد دائمًا يقرع الجرس مرتين، كما تقول الرواية الغربية.

ظللت قلقًا قبل وصول الطيب إلى لندن، وأتساءل: ما لهذا الفتي "القروي" الخام والإذاعة والإعلام والفنون الحديثة؟ صحيح أنهم كانوا يقولون عنه إنه طالب نجيب ومتقدم في فصله.. لكني لم أعرف له، وما توقعت، اهتمامات بعالم الإذاعة والإعلام.. لا شخصيته ولا سلوكه (الوجه الذي رأيته لهما فيه) يوحيان بأن هذا هو مجاله.. وحسبت أننا مقبلون على مشكلة.

وحضر الطيب إلى لندن وتعارفنا من جديد، على أسس جديدة، ففي الغربة تزول الحواجز وتتلاشى التصنيفات، فنغدو سودانيين وحسب وكان التقليد في الإذاعة أن يتولى مذيع قديم تعريف الزميل الجديد بنوعية ومتطلبات العمل، كأن يصطحبه معه إلى الاستوديو ليجلس ويراقب ويتدرب إذا كان جديدًا على المهنة. وبعد فترة يمنحه الفرصة ليقرأ بعض الأسطر على الهواء أو يترجم بعض المواد، وهكذا.. وكان من نصيبي

وحسن حظي أن أتولى هذه المهمة بالنسبة للطيب، خاصة أنني السوداني الوحيد في القسم (كي يطمئن قلبه).

هذه المهمة زادت من التقارب واللقاءات بيننا، خصوصًا أن بعضها كان في النوبات الليلية حتى الفجر حيث نقضي الليل بطوله معًا وسرنا في درب الصداقة والتقارب وسرعان ما اكتشفت أنني كمن يزيل الطبقات تدريجيًا عن كنز ثمين.

ولأن لندن كانت جديدة وغريبة عليه، وكان هو بطبعه آنذاك حييًا خجولا يتحسس طريقه بحذر.. ولأنني كنت قد عرفت الطريق قبله، فكنت أستحثه وأشجعه على الخروج والتعرف إلى الناس والمجتمع من حولنا. ودرجت على تقديمه إلى أصدقائي ومعارفي على أنه صديقي، لذلك كانوا يعرفونه بأنه "صديق صلاح" فلما تكررت هذه الصفة "وزادت حبتين" وسط الأصدقاء يبدو أن الطيب انزعج وضاق بها، وفي يوم قال لي (بلهجة مزاح فيها خلطة من جد) ما معناه: "أصحابك ديل ما عندهم لي اسم غير "صديق صلاح".. لكن ما رأيك سيأتي يوم يسمونك أنت "صديق الطيب". فرددت عليه مازحًا: "لا بأس.. احلم يا صديقي.. الأحلام ليس عليها ضريبة".

ودخل الطيب مجال الإذاعة لأول مرة.. من أوسع أبوابها وأشهرها في ذلك الزمان (هيئة الإذاعة البريطانية) وسرعان ما تفجرت مواهبه وإبداعاته.

الشاب الذي كنت "قلقًا بشأنه" خائفًا على سمعة السودان أن تمس؟ أخذ يثير دهشتي وإعجابي كل يوم بجديد فقد حقق الطيب في إذاعة لندن ما لم يبلغه سوى قلة من النوابغ، فكان المذيع اللامع ذا الصوت العميق الدافئ الودود، الذي يشد الآذان والقلب معًا حين يقرأ حديثًا تشعر كأنك تستمع إلى صديق تأنس إليه يحدثك من مقعد مريح مقابل وأنتما تجلسان حول مدفأة.. وحين يدير حوارًا يسحر ضيفه بقدر ما يسحر المستمع! وحين يقرأ الشعر يكاد جهاز الراديو أن ينقلب إلى تلفزيون ينقل خيالات الشاعر صورًا تتراقص أمام عينيك!

أصبح الطيب أيضًا المخرج الإذاعي القدير الذي قدم روائع الفن العربي والعالمي، ثم صار رئيسًا لدائرة الدراما والمنوعات في القسم العربي التي حققت قفزات مشهودة في عهده، بل إن هذا الفتى الذي لم تكن الإذاعة في باله حتى وقت قريب، أصبح من النخبة المختارة التي تحاضر في الفن الإذاعي بمدرسة الإذاعة التابعة لهيئة الإذاعة البريطانية التي يدرس بها إذاعيون من مختلف أقسام الهيئة العالمية ومن مختلف أرجاء العالم، وارتقي الطيب سلم الأداء الإذاعي الرائع بخطوات سريعة فلم تكن قد مضت سوى بضعة أشهر على التحاقه بهذا العالم الجديد عليه حين اختارته هيئة الإذاعة البريطانية من بين الصفوة من مذيعيها الذين نقلوا للعالم مراسم تتويج الملكة إليزابيث الثانية في اليوم الثاني من شهر يونيو ١٩٥٣، وكان موقعه أهم المواقع في قلب كنيسة وستمنستر، حيث يوضع التاج على رأس الملكة، وإلى وقت قريب كنت أحتفظ بصورة له وهو يرتدي

"البونجور" والقبعة العالية التي كانت مفروضة عليه في تلك المناسبة ومـــن الطريف أنه اضطر بعد ختام الحفل أن يستقل "المترو"، ثم يـــركض وراء الباص وهو على تلك الهيئة في ذلك اليوم غزير المطر!

نال الطيب مكانة اجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقتها ومنتدياتها أذكر أننا اعتدنا أن نجلس بعد ساعات العمل (في كافيتيريـــا) الإذاعة، وكان يدور نقاش جدي يتناول مواضيع سياسية وأدبيـــة شـــتى يشارك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون. وكان أكثر ما يبهرني - وأنا أستمع إلى الطيب وهو يسهم في ذلك النقاش، فضلا عن بلاغته وتمكنه من الكلمة، عربية كانت أم إنجليزية - عمق ثقافته وســعة إطلاعه، أسمعه يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتنيسون ولورد بايرون وفيتزجرالد وازبورن، ويحاور العرب بالعمق والتمكن ذاتهمـــا، في الأدب العربي من عصور المتنبي وأبي نواس وابن الرومي وذي الرمـــة، مـــرورًا بشوقي وحافظ وطه حسين إلى عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قباني وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، ويطوف معهـــم في بساتين بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد، والحردلو والعبادي والرضي (من أمراء الزجل السوداني) ويحفظ من أقـــوال كـــل هـــؤلاء وأشعارهم الكثير.

وكنت إذ أشعر بزهو وفخر وأنا أصغي إليه، أسائل نفسي: مـــتى تسنى لهذا الشاب، وكان في النصف الأول من عشريناته، أن يكون هذه

الثروة الثقافية الضخمة والمتنوعة، وقد عاش ردحًا من تلك الفترة القصيرة ما بين تخرجه في السودان ووصوله إلى لندن، في أماكن نائية من بلادنا؟

وثمة تجربة أخرى مشتركة في لندن مع الطيب، فقد التحقنا سويًا عام ١٩٥٦ بمعهد الشئون الدولية بجامعة لندن، وكان الفصل يضم، غير البريطانيين، عددًا من الطلاب من مختلف الجنسيات من بينهم دبلوماسيون محترفون أوفدتهم بلادهم لمزيد من التخصص، وقد احتل الطيب في هذا الفصل ما أعاد إلي ذهني الأحاديث التي كان يرويها عنه زملاء الدراسة في السودان، حيث كان عبقري الفصل الذي يقوم أحيانًا بوظيفة الأستاذ حين يغيب الأستاذ وينيبه عنه في لندن، وإن لم يصل بالطبع إلى حد القيام بوظيفة الأستاذ الغائب إلا أن مداخلاته ومحاوراته مع دهاقنة الشئون الدولية والاقتصاد في ذلك المعهد (وبينهم نابغة السياسة الدولية شوازنبرجر وزميلاه غريد وشيخ الصين وعالم التاريخ المرموق البروفيسور كيتون) كانت تبهر الطلاب والأساتذة معًا.

بالنسبة لىّ شخصيًا كان وصول الطيب إلى لندن محطة رئيسية في تشكيل كثير من جوانب حياتي في الغربة وما بعدها، تقاسمنا فيها الحياة والزمن ولقمة العيش ولم نكن نفترق إلا فترات قصيرة جدًا، ودائمًا كنا نلتقي آخر الليل لنمارس نقاشًا طويلا يستمر إلى الساعات الأولى من الصباح وقد تعلمت منه الكثير في مجال الأدب والفكر، وعلمت عنه بعضًا من كثير.

وشهدت رفقتنا في تلك الأيام إضافة جميلة بوصول عبد الرحيم الرفاعي (الضلع الثالث في المثلث).. مصري صميم من نبلاء المنصورة.. ما أطيب عشرته.

ثم تشاركنا الطيب وأنا السكن، فأصبحنا كما يقولون "في وجه بعض" ليل نهار وهذا وضع يحتاج إلى قدر كبير من التسامح والتنازل وطول البال وأعترف أنني كنت الأسعد حظًا إذ لم أعرف في حياتي قط شخصًا في مثل طول بال الطيب صالح وتسامحه ومروءته رجل لا يغضب ولا يُغضب.. وبقدر ما يكون الشخص أمامه "ثقيلا"! يكون هو متسامحًا واسع الصدر، لا تستطيع أن تستفزه وإن حاولت.. يجرّدك بردودة فعله الهادئة من كل أسلحة ومسببات اللوم والغضب ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يوقع أحد بين الطيب وبين صديق أو معرفة فهو لا ينصت للنميمة، ويوجد لتصرفات الآخرين وإن أساءوا إليه، ويدير دفة الحديث إلى جوانب الخير في الإنسان. وبقدر ما كان تسامحه يفوق الحدود، كان كرمه وأريحيته وعطاؤه للآخرين، وفي بعض المناسبات كان يحيرني كرمه وعطاؤه (المبالغ فيه) وأنا أعرف أن إمكاناته المالية كانت محدودة وقد لا تفي في ذلك الوقت تحديدًا لسد حاجاته الشخصية الضرورية.

لم يكن يهتم كثيرًا بالمال وتكديسه كان راتبه يتبخر قبل انقضاء الثلث الأول من الشهر وتسأله كيف سيدير أموره؟ فيردد جملته المشهورة "الله كريم".. ولو أردت أن أضرب أمثلة لكل ما ذكرت من صفات لضاقت هذه الصفحات.

في داخل الشقة لم يكن يطالبني بأي عمل، يقوم هو عن طواعية وسماحة نفس بعمل كل شيء.. يطبخ وينظف وينظم الدار، فإن شاركته في جزء من ذلك كان به وإلا فإنه لا يهتم وهذا جانب من جوانب فضيلة التواضع التي كانت من أبرز صفاته. فقد كان يعاملني كالأخ الأكبر على رغم أننا ولدنا خلال شهر واحد (بل إنه يكبرني بكذا وعشرين يومًا).

ذات مساء ونحن في الشقة ألقى الطيب أمامي بحزمة أوراق، وطلب مني أن أقرأ ما بها وأعطيه رأيي.. وغادر إلى دوامه الليلي في الإذاعة وبقيت أنا في الشقة. وبدأت أقرأ.. قصة "نخلة على الجدول". ووقف شعر رأسي كما يقولون وأعدت القراءة مرتين وثلاثًا وأنا مبهور بما أقرأ. ولما استيقظ الطيب في ساعة متأخرة من النهار جاء يسألني بصوت كسول: "ما رأيك يا شيخ صلاح في هذا الكلام ... ينفع؟". ولم يكن لي رأي سوى أني اكتشفت أنني كنت أعيش طوال هذه المدة في شقة واحدة مع عبقري دون أن أدري!

بعد سنوات تجاوزت ربع القرن، وكنت وقتها أعمل بسفارة السودان في لاهاي أرسل إلى ناشر هولندي نسخًا من "موسم الهجرة إلى الشمال" مترجمة إلى اللغة الهولندية.. ولعل ذلك الجنتلمان الهولندي لم يكن يقدر عظيم الهدية التي أرسلها إلى ومدى ما تملكني من سعادة وفخر عند استلامها.

رحت أقلب الصفحات واحدة بعد أخرى مرات عدة كمن يقرأها وأنا لا أعرف من اللغة الهولندية سوى اسمها. ثم بقيت تلك النسخة فوق

مكتبي مطوية على غلافها الأخير وعليه صورة شاب للمؤلف: الطيب صالح، أتأملها من حين إلى آخر، ولا أدري لماذا يقفز في ذهني كل مرة ذلك التعبير السريالي DEJA VU (ديجا فو)!

ذات مساء في مطلع الثمانينيات (من القرن الماضي أيضًا) دعيت لمشاهدة فيلم "عرس الزين" في قاعة الصداقة في الخرطوم وكان ضيف الشرف ونجم الحفل ومحط الأنظار هو مؤلف الرواية الطيب صالح ودعي إلى الحفل الوزراء والسفراء و"كبارات" البلد من مختلف الدروب.. ولسبب أو لآخر أجلسوني مباشرة على يمين الطيب.

وخلال الحفل مال الطيب نحوي وهمس بما معناه: يا شيخ صلاح، تذكر زمان قلت لك إنه سيأتي يوم يسمونك أنت "صديق الطيب"؟ أدركت مقصده فقلت مازحًا "لا أذكر" فأضاف متسائلا بلهجته البطيئة: "يعني تفتكر أنت مدعو الليلة بصفتك شنو؟" ولحسن الحظ بدأ العرض وانقطع الحديث!

كان هذا كلامًا ومزاحًا في الهواء ولكن اليوم وقد أصبح الحديث على الورق ونحن نكرم صديقنا الأعز وكاتبنا العبقري الفذ، الذي أنعم الله على بعلاقة معه أثرت حياتي وعمرت قلبي بالمحبة والود وكل ما هو جميل.

اليوم أقول: يا سادتي "كم أنا سعيد وفخور بأن أكون فقط .. صديق الطيب..".

سيبقى الطيب صالح أمة
في كاتب وكاتباً في أمة

طلحة جبريل

صحيفة "الأحداث" ٢٠ /٢/٢٠٠٩

غادر الطيب صالح الخرطوم في شتاء عام ١٩٥٣ في رحلة ستمتد أزيد من نصف قرن، وكان ذلك في فبراير من تلك السنة، ويتوقع أن يعود الطيب صالح إلى السودان فجر غد الجمعة من شهر فبراير، جثماناً يرافقه شقيقه بشير محمد صالح وصديقه محمود عثمان صالح، ليدفن في مقابر البكري في أم درمان، هذه المدينة التي قال عنها: "هي المدينة التي ترنو إليها باقي بلاد السودان.

كان كل واحد منا يجد أن لديه أقارب أو أهلاً في أم درمان.. مكاناً ميكروكوزم.. لقد بدأت أم درمان تتكون بكيفية طبيعية لكننا كسرناها لسوء الحظ".

في آخر حديث هاتفي بيننا تحدثنا عن أم درمان، وأحسست بفرح غامر عندما قلت له إنني ربما أعود إليها عودة عاطفية هذه المرة، ولم يكن

يدور بخلد أحد منا أن الطيب نفسه سيعود إلى أم درمان ليواري الثـرى في المدينة التي درس خلالها المرحلة الثانوية في واحدة من أهـم ثـلاث مدارس ثانوية في أربعينيات القرن الماضي.

الطيب صالح تلخص شخصيته عبارة كتبها هو نفسه يصف فيهـا أحد الكتاب: "هو من طراز مبدعين يظهرون في حياة الأمم خلال فترات متباعدة كان كاتباً في أمة أحبها وأحبه كثيرون.. وكان أمة في كاتب".

كان الطيب صالح هو السودان، وكان السودان هو الطيب صالح، لأنه جمع في كتاباته بين قدرات كاتـب عمـلاق، ومبـدع مرهـف الإحساس، ومفكر عميق الفكر، وإنساناً قل أن يجود الزمان بمثيل له.

وعلى الرغم من أن روايته "موسم الهجرة إلى الـشمال" اخـتيرت ضمن أفضل مائة عمل في تاريخ الإنسانية، يقول الطيب بتواضعه الجـم: "أقول لك صادقاً ليس لدي أي إحساس بأهمية ما كتبت، ولا أحس أنني مهم، هذا ليس تواضعاً لكنها الحقيقة، إذا أعتقد الناس أن ما كتبته مهم فهذا شأنهم لكنني قطرة في بحر، قصيدة واحدة للمتنبي تساوي كـل مـا كتبته وأكثر".

هذا هو الطيب صالح في حقيقته، تلخصه كلمة واحدة "التواضـع" ولعل من مفارقات لعبة التواريخ في حياة الطيب صالح، أنه ولـد عـام ١٩٢٩، واحتفظ برقم تسعة أيضا وهو يغادر.

أطلقت والدته عائشة أحمد زكريا عليه اسم "الطيب" بعد أن فقدت اثنين من أشقائه قبل أن يأتي الطيب، وكان الناس في قرى شمال السودان،

يعتقدون أن "الطيب" اسم تحل به البركة إذا كانت الأسرة تفتقد مواليدها، والده محمد صالح أحمد، وأهله يتوزعون ما بين "الدبة" و"العفاض" وهي من قرى منطقة مروى، عاش الطيب مثل أهله حياة المزارعين، لذلك يعتقد الطيب صالح أن بيئة القرية في المجتمع المتساكن والمندمج هي التي ستحفزه بعد ذلك بسنوات طويلة على الكتابة: "كتبت حتى أقيم جسراً بيني وبين بيئة افتقدها ولن أعود إليها مرة أخرى".

عاش الطيب صالح في قريته كما يعيش أهلها، وهو يقول بحنين يبدو جارفاً عن تلك الفترة: "في هذه البيئة بدأت مسيرة حياتي، ورغم أنني تعرجت في الزمان والمكان بعد ذلك لكن أثر البيئة لا يزال راسخاً في أعماقي، وأعتقد أن الشخص الذي يطلق عليه لفظ كاتب أو مبدع يوجد طفل قابع في أعماقه، والإبداع نفسه في البحث عن الطفولة الضائعة، حين كبرت ودخلت في تعقيدات الحياة كان عالم الطفولة بالنسبة لي فردوساً عشت خلاله متحرراً من الهموم، أسرح وأمرح كما شاء لي الله، وأعتقد أنه كان عالماً جميلاً"، "ذلك هو العالم الوحيد الذي أحببته دون تحفظ، وأحسست فيه بسعادة كاملة وما حدث لي لاحقا كان كله مشوباً بالتوتر".

ويكشف الطيب صالح النقاب عن مسألة في غاية الأهمية: "لقد كانت قريتي مختلفة تماماً عن الأمكنة والمدن الأخرى التي عشت فيها، ولاشك أن هذه المنطقة هي التي خلقت عالمي الروائي".

انتقل الطيب صالح إلى دراسة المرحلة الوسطي"المتوسطة" في مدينة بورتسودان على البحر الأحمر، بيد أنه ظـــل مـــشدوداً إلي قريتـــه: "في بورتسودان بدأ يراودني إحساس بأن هذا الشيء الجميل الـــذي تركتـــه خلفي سيضيع".

في المرحلة الوسطى ستبدأ علاقة الطيب صالح مع اللغة الإنجليزيـــة: "حين بدأت تعلم اللغة الإنجليزية اكتشفت مدى حبي لها.. والواضـــح أن سبب تفوقي في اللغة الإنجليزية كان مرده حبي لهذه اللغة".

بعد المرحلة الوسطى، سينتقل إلى أم درمان، حيث سيتابع دراســـته الثانوية في مدرسة "وادي سيدنا" ولا يخفي الطيب صالح إعجابه بتلـــك المدرسة "كانت مدرسة وادي سيدنا مدرسة فاخرة، بناها الإنجليز بنـــاء باذخاً على غرار أعظم المدارس في إنجلترا، وكنا ندرس تماما كما يـــدرس الإنجليز في مدارس الأرستقراطيين في أيتون وهارو".

كان طموح الطيب صالح أن يدرس في كلية الزراعة بعد المرحلـــة الثانوية، ولعله في ذلك بدا متأثراً وشديد الانجذاب إلى بيئته الزراعية، بيد أن الميولات الأدبية أيضا كانت حاضرة وهو يفكر في دراسته الجامعيـــة: "كنت أفكر في دراسة الأدب، حتى مستر لانج، نـــاظر مدرســـة وادي سيدنا الثانوية، شجعني على دخول كلية الآداب، لكن كانت تـــستهوني دراسة الزراعة إذ بدت لي مسألة رومانتيكية".

بيد أن الطيب صالح الذي التحق بكلية الخرطوم الجامعية "جامعـــة الخرطوم" عام ١٩٤٩، سيقرر ترك الجامعة برمتها عندما وجد أن الـــسنة

الأولى في كلية العلوم التي ستقوده بعد ذلك إلي دراسة الزراعة تتطلب منه تشريح الصراصير والفئران، ونفر من هذه الأمور وقرر قطع دراسته الجامعية، حيث التحق بالتدريس، ليدرّس اللغة الإنجليزية في مدينة رفاعة في وسط السودان.

وعلى الرغم من أن الطيب صالح كان يود العودة إلى الجامعة من جديد لاستكمال دراسته الجامعية في كلية الآداب، بيد أن إعلاناً من هيئة الإذاعة البريطانية "بي. بي. سي" يطلب مذيعين ومحررين ومترجمين سودانيين، قلب حياته رأساً على عقب، وهذه التجربة القاسية لشاب عمره ٢٤ سنة فقط، هي التي ستمحنا كاتباً وروائياً عالمياً، لأن الطيب كتب: "فقط لأقيم جسراً بيني وبين بيئة افتقدها بدون سبب".

بيد أن الطيب لم يكن سعيداً على الإطلاق في هجرته إلى لندن: "جئت إلى بلد لم أكن أرغب فيه لأعمل عملا هو كذلك ليست لي رغبة فيه·· تركت الأهل والأحباب والدور الفسحة والتواصل الاجتماعي لأجد نفسي داخل غرفة صغيرة برودها لا تطاق في بلد غريب بين قوم غرباء".

اهتم الطيب صالح خلال سنواته الأولى في بريطانيا بالمسرح، وقرأ كتباً كثيرة في الأدب والفن والتاريخ والاجتماع، وفي السياسة وجد نفسه ميالاً للاشتراكية العمالية، واندمج في حياة لندن وتزوج من زوجته جولي "بريطانية"، ورزق منها بناته زينب وسارة وسميرة.

بدأت علاقة الطيب صالح مع الكتابة في وقت مبكر عكس ما هو رائج، إذ كتب أول قصة قصيرة عام ١٩٥٣، بعنوان "نخلة على الجدول"

ستنشر لاحقاً ضمن المجموعة القصصية "دومة ود·حامد" يقـــول عنـــها الطيب صالح: "قصة بسيطة كتبتها ببساطة شديدة جداً.. كانت القـــصة تعبيراً عن حنين للبيئة ومحاولة لاستحضار تلك البيئة".

وبعد "نخلة على الجدول" لم يكتب الطيب صالح على مدى ســـبع سنوات حرفاً واحداً، ثم كتب "حفنة تمر" ثم"دومة ود.حامد" ونـــشرتها مجلة "إنكونتر" الأدبية الإنجليزية التي كانت آنذاك زوبعة ثقافية، واعتـــبر نشر تلك المجلة لقصة الطيب صالح، هو بمثابة الميلاد الحقيقـــي لأديـــب عالمي، وفي عام ١٩٦٤ كتب الطيب صالح روايته الأولى "عرس الزين"، وفي عام ١٩٦٦ كتب روايته ذائعة الصيت "موسم الهجرة إلي الشمال".

كثيرون يعتقدون أن مصطفى سعيد بطـــل "موســـم الهجـــرة إلى الشمال" فيه بعض ملامح الطيب صالح نفسه، وفي هذا الـــسياق يقـــول الطيب: "الذي يطرح أفكاره على الناس علناً عليه أن يتحمـــل تبعـــات ذلك، لذلك لا يزعجني أحياناً حين يسألني بعض الناس هـــل مـــصطفى سعيد يشكل جزءاً من سيرتي الذاتية؟"، ويضيف الطيب: "يبدو لي أحيانا أن البشرية تائهة وأنا تائه معها، لذلك لا أطالب الناس بأن تفهمني كمـــا أريد، الكاتب نفسه لا يعرف ماذا يقول وماذا يكتب".

قبل أن يرقد الطيب صالح رقدته الأبدية تحت سماء السودان الصافية التي تعج بالنجوم، سيقول المشيعون "جنازة رجل" قبل الـــصلاة عليـــه، لكن، أي رجل سيواري الثرى، الرجل الذي جعلنا نقول باعتزار: "نحن من بلد الطيب صالح".

أما أنا شخصيا الذي اعتقدت دائما أن مجرد وجود الطيب صالح في هذه الدنيا يجعلها خيرة، وفي هذه اللحظة التي تطفح بالمشاعر أقول صادقاً إن أحزاني فاضت وفاضت، وعندما قال لي شقيقه بشير: وهو يعتقد أنك أفضل من ستكتب عنه، بقيت ساعات في حالة ذهول وفجيعة، وسط دموع رجوت أن أغلبها ولا تغلبني، ما أوسع الحزن وما أضيق الكلمات، كان الطيب صالح في حياته أكبر من الحياة وسيظل الطيب صالح في موته أكبر من الموت.



لعبة الموت مع الطيب صالح

د. محمد إبراهيم الشوشي
مجلة "المجلة" ٢٠٠٩/٣/٧

شاء لي القدر أن أكون أقرب الناس وألصقهم بالطيب صالح كان ذلك حتي قبل أيام قليلة.. نعمة الدهر ومنحة القدر انتزعها بقسوة وشراسة.. ذاك الصباح الحزين يوم الجمعة ٢٠ فبراير ٢٠٠٩ بمقابر البكري، ولو كنت أعلم أن مآل تلك الصداقة الحميمة هذه الهجمة الشرسة على قلبي وكياني ما سعيت لها ولا رحبت بها.

وقد صدق المتنبي حين قال:

لو درى العاشق منتهى   عشق الذي سباه لم يسبه

كان يكبرني ببضعة أعوام ومع ذلك لازمته بصلة القربى والدم صديقاً ورفيقاً في درب الحياة، لا نفترق حتى إن بعدت بيننا المسافات.

في لندن أقمنا في شقة واحدة وكنت أقضي الوقت معه في صالة البي بي سي أكثر مما أقضيها في صالة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية في

جامعة لندن، وفي كل بلاد الدنيا كنا نلتقي باتفاق وبغـــير اتفـــاق، في الدوحة كنا نعمل سوياً ونعيش سوياً، ولولاه ما نجحت "مجلة الدوحـــة" كانت له اليد الطولى في نشأتها ورعايتها وفي واشنطن، كنا نلتقي سوياً في شقة صديقنا الفاتح إبراهيم، نسمع أشعار السودان وأغانيـــه ومدائحـــه وتغمرنا روحه ونضحك كثيراً ونبكي أحياناً، يشفنا الوجـــد وتـــضنينا الغربة، وقد دفعنا الحنين يوما إلى أن غنينا أغنية سودانية في المركز العربي بواشنطن، وعجب الناس أن يروا مؤلف "موسم الهجرة إلى الشمال" يغني بصوت منطلق وفي محبة غامرة وقد نسى نفسه والعالم حوله حـــتى لقـــد وقف الناس يهللون ويصفقون.

وكنا نلتقي بصفة دائمة في الجنادرية السعودية وفي أصيلة في المغرب ثم .. ثم .. دهمه المرض، جاء خلسة ثم استوطن ثم تمكن، وعلى الـــرغم استسلامه لمحبيه الكثر لالتماس العلاج في كل مظانه، واستعداد المئـــات الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم لبذل المال بلا حساب، ومنـــهم أمـــراء وشيوخ ومسئولون وكبار ومعجبون فقد ظل المرض يراوغ، ثم يطعن من الخلف، تارة في الصدر وتارة في العنق وتارة في شرايين القلب، وكلمـــا اقترب الأمل تصدى له المرض وأبعده، كان المرض اللعين مصراً علـــى أن يقفل علينا كل النوافذ والأبواب، لا نفتح باباً حتى نغلقه في مكان آخر.

وكان الطيب هو الوحيد الذي يعرف سر هذا الإصرار ومآله، فقد قابل الموت وجهاً لوجه في بيروت ونجا منه بأعجوبة أذهلـــت الأطبـــاء، وسافر في مهمة إلى قبرص، وهناك كما يحدثنا في آخر رواياته "الرجـــل

القبرصي" قابل مندوب الموت الذي قال له فيما يشبه المداعبة أو التهديد: لقد نجوت من الموت هذه المرة، لأن والدك قد افتداك بروحه، وفي المرة المقبلة حين يدهمك الموت لن يفتديك أحد، وبعد ذلك بفترة قصيرة جاءه نبأ وفاة والده الذي وصف موته بأحلى الكلمات وأعذبها في رواية "مريود".

وتابع المئات مرضه الذي أقعده عن أهم شيء كان يعيش به وله: السفر لمقابلة الأصدقاء والأحباب: حكم عليه المرض بالسجن وتنقية دمه الملوث بالمرض عشر ساعات من كل أسبوع.

كان الآخرون يتابعونه من بعد، وكنا - زوجته المكلومة رفيقة خمسين عاما من عمره وبناته الثلاث زينب وسارة وسمير وشقيقه بشير- نعيش المأساة كما لو كان المرض قد انتقل إلينا، وحين اشتد به المرض وبدأ الموت ينتقل فوق جسده في حركة سريعة، أصبحت من شدة الإشفاق عليه أتمنى أن يموت.

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المانيا أن يكون أمانيا

قلت لمحدثي في فضائية "الجزيرة" وكنت لا أزال مذهولاً بهول الصدمة، وقد نسيت معها أنه كان كاتباً وروائياً طبقت شهرته الآلاف واختبرت روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" كواحد من أروع مائة عام عمل أنتجته البشرية - وكان مقدم البرنامج قد سألني ما الذي يميز الطيب صالح؟ قلت: لو لم يكن الطيب صالح كاتباً أو روائياً لكان متميزاً كأروع إنسان قابلته ونعمت بصداقته.

كان الطيب صالح إنساناً نادراً لا مثيل لـــه، ولا أقـــصد بـــذلك الفحشاء والمنكر وارتكاب الحماقات التي يغرق في بحرها بعض التعـــساء من الناس، لكني أعني أكثر من ذلك أنه كان يخلو تماما من ذلك الـــنقص البشري الطبيعي الذي ظل يلازم الإنسان منذ أن خلق، وقد وصفه مـــرة الأستاذ محمد بن عيسي، وزير خارجية المغرب السابق، بأنه طوال معرفته به لم يسمعه يطلب شيئاً لنفسه أويتحدث بسوء عن أحـــد، وأن نقـــاء سريرته شيء لا يوصف، وقال الكثير .. الكثير.. الكثير عنه.

قلت للوزير محمد بن عيسى ذاك المساء إنك تتحدث عن شـــخص تقابله الفينة بعد الأخرى ولبضع ساعات أو أيام، ويمكن لأي إنـــسان أن يخفي ما بداخله في هذه اللحظات القصار، ولكن ما رأيك أنني عـــشت معه وبقربه سنوات طويلة، وكان كما ذكرت وأكثر.

وذلك أمر غير طبيعي فقد خلق الإنسان ضعيفاً يستجيب للإغـــراء ويستسيغ المدح والإطراء ويغضب أحيانا ويسخط أحياناً، ولا يبقي على حال أبدا، إذا مسه الشر جذوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً.

الطيب: بعكس خلق الله جميعاً لا يغضب أبداً ولا يعاتب ولا يلوم ولا يفقد أعصابه مهما لحقه من سوء، حتى لقد ثار في وجهـــه صـــديقه الحميم الشاعر صلاح أحمد محمد صالح في غضب شديد، وكان الطيـــب قد تعرّض لما اعتبره صلاح إهانة شخصية وسكت عليها: يـــا أخـــوي الطيب بالله عليك متي تغضب؟

والطيب صالح كما يعرفه الجميع يكره أن يمدحه أحد وكان يؤكد أنه كاتب لا نفع فيه لأهله الذين يحتاجون في فاقتهم ومرضهم إلى من يعالجهم ويقوم على خدمتهم.

كنا في أصيلة نحضر مهرجانها الثقافي السنوي، وكنا في جلسة تحتفي بالطيب صالح، والمتحدثون يتبارون في إبراز ملامح هذه الشخصية وذاك السلوك الملائكي الذي يتصف به الطيب صالح والذي يتنافى مع طبيعة البشر، وحاولت أن أجد لذلك تفسيراً مقنعاً فخطر لي أن الطيب صالح قد نزع عن نفسه كل المشاعر البشرية السالبة ووضعها في شخصيات رواياته.

ومن غرائب الصدف أنني كنت أستمع بعد وفاته إلى شريط مسجل يقول فيه الطيب: إن الكثير من القراء يعتقدون أنه مصطفى سعيد وهو ينكر أن يكون الكاتب نسخة طبق الأصل لشخصيات رواياته وقراءاته، وربما تنسحب عليها بعض ملامح من شخصه وهذا شيء طبيعي، وتساءل الطيب: لماذا لا يشبهونه بـ"الزين" الدرويش "فأنا مثله لا أخلو من دروشة؟".

يريد الطيب أن يقول في شخصه كثيراً من صفقات شخصياته، به شيء من جده في "نخلة على الجدول" ومصطفى سعيد في "موسم الهجرة"، والزين في "عرس الزين" والرواية في كل أعماله.

ألا رحم الله الطيب صالح فقد كان إنساناً نبيلاً عظيماً.



في صحبة الطيب الإنسان

محمد الحسن أحمد

يلمس المرء في كل إنسان مهما بلــغ الانبــهار بــشمائله القمم، تفاوتاً في نسب سمو ذلك الانبهار باعتبار أن هناك خصالاً تعلو درجات في السمو على خــصال آخــر، إلا عزيزنا الحبيب، صديقنا الصدوق الروائي العالمي الطيــب صالح فكل خصاله نبيلة وتتدافع في السمو في سباق محمود ومتوازن، مما يضاعف الانبــهار والإعجــاب والاعتــزاز بصحبة شخصيته المتميزة في شتي مناحي الحياة.

وهذا الإنسان الشامل يصعب تناول شخصيته بكل معاني الشمول في مثل هذه المناسبة الخالدة، وإنه ليس بوسع فرد مهما كانــت رحابــة ملكاته في الإحاطة أن يحيط بكل جوانب الطيب صالح.

في البدء أقول، حقاً وصدقاً، وما تعايشت وإنساناً طــوال حيــاتي يصدق عليه وصف "اسم على مسمى" بكل ما يعني هذا الوصــف مــن دلالات مثل الطيب صالح، فهو طيب إلى منتهى حدود الطيبة، وصــالح تتجسد فيه سمات صلاح الشيوخ المتصوفين من عباد الله الصالحين.

ما أطيب الأنس مع الطيب! فالمرء في مجلسه لا يحس أبـــدا بغربـــة المكان، ولا بوقع ساعات الزمان، وتواضعه الذي لا نظير له يعطر المكان بلغة غير متكلفة ومحبة موصولة بأنبل العواطف وأصدقها، ويشجع كـــل الجالسين على المشاركة في الحديث، وإن لمس أن أحدهم لم يشارك تخير لحظة مناسبة ولاطفه بكلمات ودودة حتي ينخرط في منظومة المشاركين، لا يبدأ الحديث في مجالس الأنس تاركاً للسمار الآخرين أن يتخيروا مـــا يرومون الخوض فيه، وغالباً ما تأتي مشاركته بعد أن يـــسأل أو عنـــدما يكون كل واحد قد أدلى بدلوه في معرض ما هو مطروح في المجلـــس، لا يرفع صوته العميق الساحر الجميل عندما تعلو الأصوات بالـــضجيج، ولا ينفعل تعصباً لرأي، وإنما يوسع من دائرة البدائل فيما هو مطروح لتكون افتراضات الترجيح أكثر رحابة، وساعتها يجف الضجيج ويعتدل الحديث.

أما إذا انحرف الحديث، ونادراً ما ينحرف إلى ذكر سيئات تنسب إلى بعض الناس، فهو غالباً ما يصوم عن الحديث أو يستغفر الله، ويـــدرأ بالناس عن الاغتياب بكلمات لطيفة ومهذبـــة، أو بالانتقـــال، بـــصورة تلقائية، بالحديث إلى ما يصرف المتحدثين إلى موضوع آخـــر، وحيثمـــا دارت أحاديث مجلس الطيب كان هو المنبع الـــذي لا ينـــضب معينـــه، فالأدب هو سيده والتاريخ هو بحره والشعر هوحافظه وراويه ومحلله قديماً وحديثاً، وحتى "الدوبيت" له في قلب ولسان الطيب موقع مؤثر وجميـــل والمدائح النبوية من البرعي إلى أولاد حاج الماحي وغيرهم بكل طقوسها وروحانياتها لها مسالك عميقة الغور في تصوفه وصلاحه.

إن مثل هذا الوصف البرقي لا يوفي الطيب حقه في أنهاره المتدفقـــة علماً ومعرفة، ولكن العزاء أننا منذ البداية تواضعنا، على أن هذه الصورة القلمية هي مجرد انطباعات عجلى في مقام كان يـــستوجب الإطالـــة في مجلس الأنس. فهو لا يتصدر المجالس، ولا يتصدر المآدب سواءكانت على شرفه أو هو من أبرز الضيوف يجلس دائماً في الأطراف فذلك يريحه حقاً، ويحقق له في كثير من الأحايين مآرب أخرى لا يعلمها إلا من كان لصيقاً به، ومنها أن يهب ويخب مسرعاً في المطاعم والفنادق كي يدفع الحساب في كرم مطبوع على رغم كونه أحد المدعوين أو أن الحفل على شـــرفه هو، ثم يتدفق لطفاً في تقديم الاعتذارات، لأنه لم تتوافر له من قبل فرصة لتكريم فلان أو أن علاناً كرمه فاض في مرات سابقة، وإذا مـــشي مـــع الأصحاب في الطريق لا يتقدم الصفوف ولا يسرع الخطى، وعند ركوب سيارات الأجرة يكون آخر الراكبين حتى يتمكن مـــن أن يكـــون أول الخارجين لدفع الأجرة، إنه بحق إنسان عجيب يجعلك طوال الوقت وأنت إلى جانبه تتأمل في سلوكه وتصرفاته كأنه يلقي عليك من غير استـــشعار محاضرات في أدب النفس وأدب الدرس، أما إذا قدر لك أن تنتقل معـــه عبر قطارات الأنفاق فأبشر بطول وقوف، فإنه لا يجلـــس قبلـــك علـــى الأرائك، وإن وجد بعض المسافرين وقوفاً فهو يتردد في الجلوس ويفضل الاستمرار في الوقوف مما يضطرك للنهوض مـــؤازراً، لحظتـــها يـــضطر للجلوس مكرها ولكن لطفاً بك.

أصدقك القول إنني في كل فرص التلاقي التي أتيحت لنا على امتداد هذا العقد لم أسمع عزيزنا الطيب يشكو من أحد أو ظـرف أو حـظ! باختصار ما سمعته يشكو إلا من مرض.. إنه يتعايش مع النفس، والآخرين في تراض مشبع بالقناعة والتعامل النبيل، وتتجلى إنسانيته في قمة تسامحه عندما ينقل إليه أحد رأياً سلبياً كتب عنه أو قيل فيه، فهو لا ينفعـل ولا يغضب إنما يحاول أن يجد الأعذار لمن فعل كأنه يعتذر عما سبب له مـن تكدير إذا جاز التعبير.

والطيب لا يتخلف عن مناسبات المجاملات إذا علم بها خـصوصاً زيارة المرضى أو العزاء وكذلك مناسبات الأفراح.

وأذكر أنني عندما أخضعت لجراحة كبيرة قبل عامين اعتذر عـن السفر للمشاركة في مؤتمر وادي النيل في القاهرة، ثم أمضى شـطراً مـن الليل السابق للجراحة معي في المستشفى، واعتذر لي من أنه لـن يكـون بوسعه حضور الجراحة في الصباح دون أن يفصح بـشيء مـن دون أن أسأله، وهو الذي اعتذر عن السفر لهذا السبب، لأنني أعرف رقته وشافية عاطفته، لكنه قبل أن يذهب أخرج من جيبه ورقة مكتوبة بخطه الجميـل فيها دعاء لله رب العالمين، وأوصاني أن أقرأه وأردده عندما أنقل إلى غرفة العمليات، وقال لي وهو في حالة من التصوف العجيب: أبشر بالـسلامة ونجاح الجراحة وغداً ألقاك في أمن وأمان.. إنه رجـل مـن عبـاد الله الصالحين.

وصلاح الطيب عليه شبه إجماع، لأن الله خصه بحب الناس له، فهو شخصية معروفة ومحبوبة على مستوي العالم، وكل من يذكره يـــشكره ويثني عليه ويتمنى أن يلتقيه، صحيح أن إسهامه المتميز والنادر في عـــالم الرواية كان له القدح المعلى في هذا الحب والإعجاب والتقـــدير، لكـــن هناك سراً آخر يجذب محبة الناس إليه لا أدري على وجه الـــيقين معرفـــة مفاتيح هذا السر، هل هو في وجهه أم في صوته أم سلوكه أم في جمـــاع كل ذلك، فضلاً عن كتاباته.. الله أعلم، كل ما أستطيع أن أقولـــه هـــو شيء من الصلاح أودعه الله في ذات الطيب صالح.

ذات مرة كنت في الرباط في مناسبة احتفالية، وفي بهو الفندق تحلق حولي بعض الشباب المغربي يتمنون توقيعي على مفكـــراقم مـــن بـــاب التذكار، ولما أبديت استغرابي أمطروني بآيات الإعجاب بحسباني الطيـــب صالح، ثم عرفت من الأصدقاء هناك أنه يتمتع بشعبية عظيمة، ولما نقلت له هذه الواقعة رد بعفويته المحببة: إخوتنا المغاربة هؤلاء أفاضل ومن أطيب الناس. أنت الطيب يا أطيب الناس .. ودمت لمحبيك.



الآفاق البعيدة أو "استراحة المحارب"

د. محمد خير عثمان

أذكر فرحة الطيب صالح في أحد لقاءاته الأدبية مع جمهرة من قرائه ومعجبيه في "النادي الثقافي" بمسقط قبل سنوات عدة.. وقع نظره وهو في المنطقة على الإعلان الضخم الذي كان يحمل عنوان الندوة واسم ضيفها.. ولعلها من المرات النادرة التي يرى فيها اسمه – وهو في مرحلة الشهرة الأدبية – يكتب ثلاثياً.. "الطيب محمد صالح".. وواتت الأديب الكبير واحدة من قفشاته الذكية المعهودة في مثل تلك المواقف، فقال مخاطباً الحضور:

"عُمان كانت دائماًكريمة معي ولكنها اليوم أكثر كرماً معي مم كانت في أي وقت مضى.. فقد جمعت بيني وبين أبي بعد فراق دام سنوات، وأشار إلى اللوحة.

ضجّ الجمهور بالضحك وأحسست أنا بأني ربما أكون الوحيد الذي أدرك أن في العبارة أكثر مما يبدو في ظاهرها، فقد كنت من الذين

عاصروه في فترة الدراسة الثانوية وإن لم أكن من زملائه في المدرسة، وكنا لا نعرفه إلا باسمه الريفي المثلث الكامل "الطيب محمد صالح"، حتى في فترة عمله في هيئة الإذاعة البريطانية عندما اشتهر عالمياً على المستوى الأدبي، بالاسم الذي ظل يحمله حتى الآن وهو الطيب صالح، ومع ذلك فمازال الطيب محمد صالح يعيش في نفوسنا وبيننا كأنه ما بَرِحَ في كرمكول والدبة.

استرجعت هذه الخاطرة بعد تلك الليلة بأشهر وأنا أتابع السيرة الذاتية التي نشرتها له صحيفة "الحياة" اللندنية.. واستغرقت في خواطري وسجلت يومها ما عنّ لي بها، وأنا أنقل الآن بعض تلك العبارات ببعض التصرفات: "زملاء الصبا والدراسة لا يتحدثون عادة عن الشخص نفسه عندما يخاطبون الطيب صالح بأحد الاسمين من دون الآخر.."، "فالطيب محمد صالح" عندهم هو غير "الطيب صالح" تماماً، الأول وليد البيئة الصغيرة الحميمة والدافئة في جهات الدبة وكرمة وكرمكول، وقرى النيل الصغيرة التي يتراقص نخيلها على الجدول وتتمايل فروعها على تقاسيم السواقي وألحان النعام آدم وطارات حاج الماحي وود حليب.. "الطيب محمد صالح" هو بطل السيرة الذاتية راويها وموثّق أحداثها ورفيق مسيرتها حيث ما حلّ .. هو تاريخها .. والطيب صالح شخص آخر، فلو كان للروائي والكاتب ملهم كما للشاعر ملهم من بنات الشعر "التي تجود بالنفحات"، أو كان يعينه أحد "توابع" ابن شهيد بدلاً عن "زوابعه"، لكن ملهم الكاتب الطيب صالح هو المواطن "الطيب محمد صالح".

اخترت "الآفاق البعيدة" لسببين:

السبب الأول: أنها ظاهرة ثقافية فريدة ولافتة للنظر، فهي مثلاً تتفرّد عن كل أعمال الكاتب الأخرى، "موسم الهجرة إلى الشمال" و"عرس الزين" و"مريود" ومجموعة القصص القصيرة، بخصائص سأشير إليها لاحقاً، ثم إن الآفاق البعيدة فيما يبدو حتى الآن لا تزال حقلاً بكراً من نوعها من العطاء الثقافي في منطقتنا العربية و لم تتناوله بحسب علمي أقلام جادة ومعروفة في مجال النقد الأدبي في المنطقة.

أما السبب الثاني: فيعود إلى رغبة ملحة لازمتني لفترة طويلة لإعادة اكتشاف هذا النبع الثقافي الفريد واستعادة التجربة الرائعة التي سُعدت بها في القراءة الأولى لحلقاته الأسبوعية.. وعندما دُعيت للإسهام في هذا الكتاب عنواناً ووفاء للصديق العزيز الطيب صالح بادرت فعبّرت عن هذه النية للقائمين على مشروع الكتاب من أصدقاء الطرفين، وزادت سعادتي بتحقيق رغبتي القديمة بإبحار حقيقي في لجة "الآفاق".

ومن بين كل ما قرأت من أدب الطيب فإن "الآفاق البعيدة" تقف"أمة وحدها"٠لا أدّعي أنني الوحيد بين قرائها الذي اكتشف عظمتها أو الذي يستطيع وحده تفسير هذه الحقيقة، ولكني لا أدري إن كان الناس قد أعطوها حقها من الاهتمام الذي هي جديرة به، فـ"الآفاق" ليست أدنى أفقاً أو نبلاً في الرسالة، أو تميزاً في التقنية إن لم تكن أعظم في جوانب كثيرة من بعض أعمال الكاتب وأكثرها شيوعاً وشهرة،

وتفسيري للظاهرة – وأرجو أن أكون مصيباً –أن النــاس في الواقــع لم يتجاهلوا "الآفاق".. على العكس، فهي من العظمة بحيث تفرض نفــسها على كل حال، إنها تقف في نظري في قمة "أدب المقال" في كل زمــان ومكان.. لم يهمل الناس"الآفاق" ولكنها هي التي فاجأتهم بكل شــيء: بقضاياها الحية وعفويتها في التناول وأُنسها و"ونسها" معهم، وفي أنهــا كانت تحاورهم ولا تتحدث إليهم عن بُعد أو مــن فــوق رءوســهم.. فاجأتهم فوقفوا إزاءها في دهشة ثم أخذوا يلهثون وراءهــا ولا يكــادون يدركونها.. تجاوزتهم في سرعتها وفي استمراريتها القياســية وفي وفائهــا بوعدها الأسبوعي معهم خلال حلقاتها التي بلغ مجموعهــا الخمــسمائة وعشرين حلقة، حسب المجموعة التي بين يدي، كانت بدايتها تاريخياً في الحادي والعشرين من يناير عام ٩٨٩١، ومنذ ذلــك التــاريخ كانــت "الآفاق" تشرق على قرائها كل أسبوع كما تشرق الشمس كل يوم.

استراحة المحارب

أحسب أن "الآفاق" كانت ضرورة للطيب صالح عندما قرّر خوض التجربة وبدأ في إنجازها.. فقد كانت أعوام "موسم الهجــرة" و"عــرس الزين" و"مريود"، وقبلها مجموعة القصص المختلفة، فترة مضنية في حيــاة هذا الكاتب النشط والملتزم والمجامل إلى أبعد الحدود، فقد أرهقته إنسانيته كما أرهقته عبقريته حيث اعتاد الناس منه الظهور شخصياً في النــدوات المباشرة أو من خلال أجهزة الإعلام المختلفة، ولعله كان أول أديب عربي معاصر في شهرته يتيح وقته وفكره وراحته لقرائه بالكامــل وفي صــورة

مباشرة ليتحاور معهم حول إبداعه، يأخذ ويعطي معهم في انفتاح وعفوية وتواضع واحترام تام لإسهاماتهم، حتى صارت تلك اللقاءات المفتوحة تذكرنا باللقاءات الأدبية لشعراء العرب الأقدمين في سوق عكاظ.

وكان التزامه بقضية الأدب هو عين التزامه بقضية الوطن.. "الوطن" في معناه الكامل وفي معناه المجرد للمبدعين المثاليين الأحرار، "الوطن" الذي تتداعى حدوده المادية وتصبح مجرد معنويات تنداح من مساحة إلى مساحة كما تفعل السُّحب في جو السماء، لا تتحرك بإرادة الإنسان بل بإرادة كونية لها منطقها الخاص وغاياتها الخاصة.. وهو يرى رسالة الأدب تتجلى في البحث الدائم عن الحلول وليس عن الحل الأخير، لأن قدر الإنسان هو الأزمة الدائمة، ولذلك ينبغي أن تكون رسالة الأدب هي البحث الدائم عن الحلول.. إن الأدب الجاد لا يعرف الإجازة.

وقفات خاصة

الحزن في "الآفاق"

بداية.. لا أدري إن كانت لدينا تعابير عن مفهوم الحزن في اللغة العربية، أما الإنجليز فإنهم يفرقون بين حزن يسمونه SADNESS وبين حزن آخر يمكن أن نطلق عليه "حالات حزن"، وهم يسمون هذه MELANCHOLY أو DEJECTION، الأول مباشر وحميد نسبياً، وذلك لإمكان احتوائه بمعرفة أسبابه، وهي غالباً ما تكون محددة، ومعروفة.. أما الثانية فمرواغة وغير معروفة الأسباب، ولا يدري الشخص

متى وكيف ولماذا تحل به هذه المسألة.

وأكثر من يتعرض لهذا النوع الأخير هم الأكثر إحساساً ومشاركة وجدانية مع الآخرين بين الناس، ومعظم هؤلاء من الفنانين المبدعين، ومن في زمرتهم.

مساء الأربعاء الموافق١٩٨٨/٩/٢١، وفي صالة المغادرين في مطـــار الخرطوم بدأ الطيب صالح مقالته الأولى في سلسلة "نحو أفق بعيد" لمجلــة "المجلة" اللندنية، وقد خصص المقالات الخمس المتتابعة مباشرة بعد الثلاث الأولى ليعبّر بها جميعاً عن أحاسيسه المعقدة نحو الوطن.. إنه يحب الـــوطن حتى ينقلب حبه له نوعاً من اللعنة! وفي الوقت نفسه يتساءل عن هـــؤلاء الزعماء النجباء الأذكياء الأغبياء.. ألا يحبون الوطن كما تحبـــه أنـــت؟ "يعني نفسه" بلى، إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه.. ويسعون إلى إعماره وكأنهم مسخّرون لخرابه؟

بدأ منذ المقال الرابع سلسلة من التداعيات الحزينة التي حرّكهـــا في نفسه فيض من الحزن على فقيد عزيز جاء لتقبل العزاء فيه، يقول:

"إنني أدري لماذا أنا حزين الآن في هذا المكان، لقد وقفت على قبر إنسان عزيز علي.. أعزّ إنسان عندي، وانقطع أهم خيط يربطني إلى هذه الديار، الحزن يعلو ويخبو، ويمتد عبر زمن طويل، ويأتي على أشكال عدة، ويهجم عليك من حيث لا تحتسب، لقد صبرت حين كان يتحتم علي أن أبكي، وبكيت حين كان يجمل بي الصبر، لذلك يدهمني الحـــزن الآن، في هذه الصالة الرثة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هـــذا

الوطن الحبيب اللعين، وتحول الحزن الخاص إلى حزن عام بسبب هذه اللوحة أمامي في صالة المغادرة، منذ كم ألف عام وضعت هذه اللوحة في هذا المكان؟ ومن الذي وضعها؟ وماذا كان يدور في رأسه؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت، كتب عليها باللغة الفرنسية **Bon Voyage** وباللغة العربية: "رحلة سعيدة".

وبدأ كاتب "الآفاق البعيدة" منذ تلك الساعات التي قضاها في مطار الخرطوم انتظاراً لمغادرة البلاد، ينسج هذه التداعيات والأفكار والهواجس والأحاسيس وكأنه حائك سجاد عبقري من أصفهان، أو كأنه نقشبندي ماهر من سمرقند.. الخيوط تتقاطع بين لحمة النسيج وسداه ألواناً ألواناً، متشابكة في كل الاتجاهات طولاً وعرضاً.. ألواناً من الجزالة والاستعارات والإيماءات والإشارات.. كان وهو داخل صالة المغادرين في المطار يمتد بصره إلى خارج حدودها الجغرافية، ليستعيد النظر إلى طوابير الواقفين أمام محطات الوقود من كرام الرجال وطوابير الخبز من حرائر النساء في عز الهجير، وإلى طوابير أخرى تنتظر صابرة أمام السفارات للرحيل خارج حدود الوطن.. وهكذا يفترع الطيب صالح "الآفاق البعيدة" بخمس خرائد من النثر واللانثر.. من الشعر واللاشعر.. خرائد تُدني الوطن من الرثاء وتبعده عنه.. تُدنيه من الحب وتبعده عنه.. تُدنيه من اليأس وتبعده عنه.. وتلتف جميعاً آخر الأمر في دثار من الحزن واللاحزن!

وبهذه القطعة القصيرة المكثفة، والتي تحمل شريطاً من الأحزان المتداعية كل منها يقود إلى الآخر.. بهذه القطعة يكون الكاتب في الحقيقة

قد دشّن جو "الآفاق البعيدة" برنة حزن لازمت الكثير من مقالاته، وهو لا يعبأ كثيراً بأن يتعايش النقيضان في نفسه.. الحزن والسعادة.. خصوصاً في علاقته ورؤيته للوطن، فهو كما قلنا يحب الوطن، وطن عظيم في كل شيء يدر العطف ويدعو للرثاء بلا أسباب أو مبررات مفهومة.. وأقسى أنواع الحزن ما اقترن بالرثاء، لاسيما إذا كان موضوع هذا الحزن وهذا الرثاء كائناً عظيماً كبلادنا.. أنهكته أخطاء أبنائه! وهكذا، وكما قال لورد بايرون فإن "أعذب أغانينا هي تلك التي تحكي عن أعمق الأحزان".

المدن والطيب صالح.. علاقة خاصة

إن دخول المدن كالدخول في أعماق الذات! هكذا يقول، والطيب صالح رجل مدينة على رغم ريفيته، أشرب لبان القرية حتى الثمالة.. ربما يكون اهتمامه ذو الطابع الخاص بالمدينة قد نما بوضوح مؤخراً خلال مرحلته السياحية، لكنه يبدو دائماً وفياً للندن وبعدها لباريس، أما الخرطوم فإن علاقته بها أقرب إلي علاقته بالكتابة.. يذكرها ليلعنها.. حباً وبغضا! وواضح أنه لا يحتاج لأسباب يبرر بها حبه لكل العواصم العربية.

و"الآفاق" مزدحمة بصبواته للقاهرة وبيروت ودمشق ومسقط ونواكشوط والدوحة، والتي استولت معحبه لها، على وفاء عميق منه.. وهو يحب العواصم العربية باعتبارها "مدناً" كبيرة لوطن واحد، وكذلك أهلها: مجرد "خشوم بيوت" لقبيلة كبرى واحدة.. الوحدة العربية عنده ليست مجرد أمل.. إنها واقع معيش.. من هنا كان ضيقه الشديد بتعامل

رجال الجمارك مع جواز سفره السوداني كلما كان في رحلة إلى إحدى هذه العواصم، إنما الذي يعزي في هو أنه سجل لنا نوعاً جديداً من "أدب الجمارك وسيكويولوجية رجال المطارات".. أعتقد أن الوجود العربي كله يتعلق عنده بالمدينة والتمدن الحضري، وكأن الحنين العربي في مجمله حنين للاستقرار إما في حضارة أو في مشارف حضارة أو لإقامة حضارة.. والحق معه، فيبدو أن في القرآن الكريم نفسه استحباباً لسكان المدن .. "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً" وفيه فرحة يوسف – عليه السلام – بخروجه من السجن ووصول أبويه وإخوته من البدو ليعيشوا معه في مصر المتحضرة، وابن خلدون لا يحبذ عيش المسلم في البادية، لأن البادية في رأيه مستثناة من الهجرة، وهذا موضوع يحتاج إلى إعادة نظر في كل حال.. ويشير الطيب صالح إلى أن الشوق العربي إلى الحضارة المدنية مُجابه بكل أنواع التعويق منذ زمن طويل لاسيما في الوقت الحاضر.. ولعل زراعة إسرائيل في قلب الوطن تعتبر أكبر دليل على تقليص الانتشار الحضاري للعرب حتى في أوطانهم التاريخية، وعلاقة الطيب صالح الفنان بالمدينة دائما علاقة خاصة، وهو يتعامل مع المدينة بديناميكية وحرارة غير عادية، أما تجربة دخول مكة المكرمة فلا توازيها عنده تجربة دخول أي مدينة أخرى، ذلك "لأنك لا تدخل مدينة بعينها في مكان بعينه، في زمان بعينه، تجيء وكأنك تعود إلى نقطة منطلق الأحداث، وكأنك تدخل مركز الدائرة، وأنى لك يا مسكين أن تقوى على كل ذلك؟" كيف لا، والطيب صالح بجذور الصلاح وبذور الصوفية في أعماقه سحابة يجابه

التجربة الإشراقية الجديدة بكل تاريخه الوجداني، ويعبّ من التجربة كما عبّ سلطان العاشقين قبله من كأس الوجد الصوفي!

عاشق التاريخ وصديق المؤرخين

للتاريخ نصيب مهوّل في بلورة الرؤية الإبداعية للطيب صالح، وهو أمر يتعلق في جانب حيوي منه بتصوّره وتعامله مع الزمن عامة في خلقه الروائي.. مادته الروائية مشغولة باكتشاف الذاكرة الجماعية.. لتاريخ الدبة – مثلاً – وتاريخ السودان بصفة عامة، وهو يميل مع ذلك إلى اكتشاف هوية السودان، ليس من طريق التاريخ المجرد من طريق "إخراج التاريخ إبداعياً".. وهو يتلاعب بالزمن كما يفعل لاعب الشطرنج أمام اللوحة بحجارته التي تؤدي كل منها دوراً محدداً إزاء كل قطعة أخرى، وتسهم كل منها في تكامل اللعبة والوصول بها إلى غايتها نصراً أو هزيمة.

وعندما يتناول الطيب صالح الحديث عن المؤرخين الكبار يعبّر بدفء عن حبه وإجلاله لهم.. وأحسب هذا ناشئاً عن اكتشافه لأهمية التاريخ في تطوير موهبته الروائية.. وهو ينوّه بكبار المؤرخين ليس فقط بعبقريته التاريخية ولكن بخروجهم عن النمط في القراءة الرتيبة لحقائق التاريخ، وفي الشجاعة في إبداء الرأي المخالف والوقوف في الدفاع عنه على رغم كل شيء.. ويترك الطيب صالح عندي إحساساً يميل فيه إلى رأي بالغ الأهمية والقيمة العلمية والإنسانية، ألا وهو أن يرى العالم ليس المتخصص في مجاله فحسب بل الذي يعلو على التفاصيل ويرتفع إلى الإحاطة "والشمول"، أولئك الذين ينطقون في مجالاتهم العلمية بلسان

الفلسفة، وفي التاريخ – ربما بأكثر من غيره – رجال وصلوا فيه إلي تخوم الفلسفة ولمسوا أعتاب "المطلق".. وقد ذكر هو من بينهم من البريطانيين ألن تيلور البريطاني، وفرناند برودل الفرنسي، وأنا أضيف إلى هؤلاء توينبي وعبقري العرب ابن خلدون، ولا ننسى رجالاً من أنفسنا يمثلهم عالمنا الفحل التجاني الماحي – أول طبيب فيلسوف معاصر – في رأي الكثيرين في علم السلوك الإنساني في هذا العصر.

أصيلة.. منبر الأمل

فاتنة، مضيافة، مغربية الأصل، أفروعربية الانتماء.. واحة من واحات الذين أسماهم الطيب صالح "ملاعبي القوافي والأوتار والأخيلة والألوان".. طبّقت شهرتها الآفاق، خصوصاً خلال العقد الأخير، وهي اليوم أمل المثقفين العرب والأفروعرب، والعرب الأمريكان، يشدون إليها الرحال حينما كانوا، ويضربون إليها أكباد الإبل لممارسة التواصل في حوارات حضارية حتمها عليهم شوق الانتماء إلى جذور ومنابت ومآثر ولسان وعقيدة مشتركة.. والجفوة العربية الإفريقية التي امتدت منذ استقلال إفريقيا بدأت منذ وقت تذوب تحت وهج ودفء جديدين، متنقلة من الصدود السلبي إلى الاهتمام الإيجابي.. وكانت "أصيلة" أول بوتقة للتفاعل الناشئ والترحيب الصادق بالإرادة الجديدة لشباب مثقفي الأقطار الأفروعربية الذين أقنعتهم تجربة العقود الأربعة الماضية بأن هويات مجتمعاتهم الجديدة – شأنها شأن غيرها – لابد أن تنبثق من أسس وثوابت مشتركة وبعيدة في ماضي وتجارب وآلام هذه المجتمعات.. وأكدت

"أصيلة" دورها هنا كملتقي للفكر والحوار وطرح الأسئلة المستحيلة وتلقي الأجوبة المتصادمة، حتى جاء وقت أمكن فيه امتصاص الضيق والامتعاض والشكوك بين المتحاورين في منطلقاتهم المتباينة والمتقاطعة، ونجحت "أصيلة" في ابتداع لغة تخاطب مشتركة تتجاوز كل نظريات اللسانيات من عهد سيبويه والخليل بن أحمد "عندنا" إلى عهد بياجيه وشومسكي "عندهم".. إنها لغة "أصيلة" أصواتاً وخطوطاً وألواناً ورؤى وأخيلة، وتراثاً هجيناً في كل جاذبية الهجنة الآسرة ورواؤها..كانت قناعة الطيب صالح بتجربة "أصيلة" الثقافية عميقة وأمله في اختراقها للواقع الثقافي والاجتماعي القائم كبيراً، فكان واحداً من آبائها المؤسسين وحداتها الرواد.. جاءها بإيمان راسخ بعروبة إفريقيا، وبعزم قويم لمقاومة تيارات التشكيك في انتماء العرب لإفريقيا وفي "أجنبية" اللغة العربية في إفريقيا، والرد على الهجمة الاستعمارية التي زاد سُعارها بعد حركات تقرير المصير، التي وجدت سندها وسدنتها في الشباب الإفريقي الذي عبَّ من الثقافة الغربية بخلطتها الخطيرة من الأهداف التبشيرية والرواسب الصليبية، وأعاد تمثيلها الخطير في فكره وعواطفه وارتيابه.. ومنذ البداية قاد الطيب صالح ما يمكن أن يسمى "مدرسة" أو اتجاهاً ثقافياً يقوم على إعادة قراءة التاريخ العربي والأوروبي لإفريقيا، وإعادة تقويمه في إطار ظروفه المعاصرة، ومنسوباً إلى مصادره كتاباً ورواة من المؤرخين الأوروبين أصلاً.. وتآزرت هذه الرؤية الجديدة بفلسفة للطرح الجديد القائم على "المحاورة" وليس"المناظرة"، وعلى منح الإيجابيات نصيبها من الاعتراف بالسلبيات متى ما تبين أنها سلبيات حقيقية.. وطوّرت "أصيلة"

تدريجياً نظرة جديدة ومتكاملة لخدمة التفاهم الأفروعربي، وذلك بإفساح المجال للإبداع الثقافي العربي الإفريقي، ليلعب دوره في الفهـم الجديـد للمجتمعات الإفريقية بكل عناصرها وجذورها المتباينة، مع التركيز على أثر "الهجنة" والتعددية التي تتجلى في الإبداع الذي تطغى فيـه أولويـة "الكل" على"الجزء".. واكتسب مفهوم الهجنة نفسه قبـولاً وإيحـاءات صحية، ولعل الطيب صالح كان أول من لخّص"الهجنـة" بأنهـا "قابلـة التاريخ".

في كل ذلك كانت "آفاق" الطيب صالح، وخلال العقـد الـذي كانت تصدر فيه واحدة من أهم المراجع الثقافية الموثقة لأنشطة "أصيلة" الثقافية والفكرية، وفي مقالات تعتبر بحق ظاهرة نادرة في الأدب العـربي المعاصر.



رجل من كرمكول: شغل الناس كما فعل المتنبي.. فما السر؟

محمد صالح خضر

ملأ الدنيا وشغل الناس تماماً كما فعل المتنبي، ولئن قالوا في أبي الطيب: "كان شاعراً مفلقاً شديد المعارضة، راجح العقل عظيم الذكاء"، وقالوا: "أشهر شعراء العرب، فهم أسرار النفس البشرية وصاغ تجاربه حكماً جرت مجرى الأمثال"، فقد صدقوا وحسبك أن تقرأ صفحة من ديوانه فتعلم أنه كذلك وأكثر أما العبقري الآخر فقد قالوا فيه الكثير وما زالوا يكتبون خذ شذرات مما جاء في كتاب "الطيب صالح عبقري الزاوية العربية":

- "رأيت فيه القدرة الخارقة على الرؤية والاستبصار والنفاذ إلى الأمور، وهذه ملكة الفنان فيه...".

- "كانت لديه مقدرة على استخراج اللؤلؤ من أعماق الأدب العربي والجواهر من أعماق الآداب الغربية والإنجليزية منها خاصة، وكانت لديه المقدرة على فهم روحي الحضارتين والمقارنة الذكية بينهما".

- "كم تختلج وراء هذا الظهر الهادئ براكين فنية!! وكم تختفي وراء هذه البساطة عوالم جياشة، وحيوات محتدمة".

- "كان أن ولد ناضجاً بالغ النضج في نظرته وأسلوبه ومعالجته".

- "... فهو متكامل السمات الأدبية، واضح النماذج منذ القصة الأولى نخلة على الجدول".

أما ما قاله رجاء النقاش فيعرفه كل السودانيين: "لم أصدق عيني وأنا ألتهم سطور هذه الرواية وأنتقل بين شخصياتها النارية العنيفة النابضة بالحياة، وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة وبناءها الفني الأصيل الجديد على الرواية العربية لم أتصور أنني أقرأ رواية كتبها فنان عربي شاب، ولم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة فكراً وفناً هي عمله الأول".

وقد أورد د.حسن أبشر الطيب في جريدة "الخرطوم" بتاريخ ١٩٩٩/٩/٢٣ سطوراً رائعة كتبها د. جلال العشري عن الطيب صالح في المصدر نفسه لا يقلل من شأنها ما كتبه د.الشوش عن العشري في (أدب وأدباء) هذا إضافة لما كتبه د.حسن أبشر نفسه عبر ثلاث حلقات في جريدة "الخرطوم" لخصت كل ما سبق (وتمت الناقصة) بأسلوب فريد دون اللجوء إلى مصطلحات السوسيولوجيا والبنيوية والتفكيكية التي يعجز القارئ العادي من أمثالنا عن استيعابنا.

وهذا هو دأب الدكتور، فقد أصدر كتاباً قبل أكثر من عشرين عاماً، كشفت فيه جوانب الإبداع في شعر محمد المهدي المجذوب ومحمد المكي إبراهيم، وقد لاحظت أن الدكتور أورد في حلقاته بجريدة

"الخرطوم" حديث الطيب صالح عن زملائه في الـ"بي بي سي" ضمن سلسلة "في تذكر أكرم صالح"، لكنه لم ينشر ذلك الجزء الرائع الخاص بكامل حكيم، فقد كان الحديث عن كامل حكيم بيوغرافية كاملة اختزلها الطيب صالح في نصف صفحة.

بيد أنها كافية وراقية وفي غاية الطرافة، بما تحويه من وصف لذلك الطائر القلق الذي ألقى بعهدته لناس السكة الحديد فجأة، وهج في بلاد الله الواسعة، وانتهى به المطاف عند الناس الـ"بي بي سي" فاكتشفوا، بعد أن وظفوه، أن وظيفتهم لا تصلح له ولا يصلح هو لها، فأوكلوا إليه مهمة واحدة.. هي أن يردد بين البرامج عبارة واحدة فيقول: هنا لندن".

تقرأ كل ما كتبوه عن الطيب صالح ثم تقرأ "بندر شاه" فتعلم أن الكاتب أعظم مما قالوا وأروع. تقرأ صفحة ٢٢ من "مريود" (الطبعة الثانية لدار العودة ببيروت) فتسري فيك رعشة، ويجتاحك شعور فجائي بالخوف والدهشة والخشوع، وتحلق في عوالم صوفية تتداخل فيها الأزمنة والأمكنة ويمتزج الوعي فيها بالحلم والغفلة بالانتباه، فتدرك أن هذا الكاتب أضخم مما قالوا (وصف الطيب صالح محمد المهدي المجذوب مرة فقال:"وإنه شاعر ضخم".

ما السر إذاً ؟.. ولماذا شغل الناس فألفوا عنه الكتب وعقدوا الندوات، وأصبح مادة شبه يومية في الصحف والمجلات؟ ولماذا انتقل الأمر أحياناً من المنابر العامة إلى الجلسات الخاصة؟ ومن (حالة كونه أدباً يصنعه

خيال الكاتب) إلي (حالة كونه حدثاً وقع)؟ قال البعض إن بعض تفاصيل حياة مصطفى سعيد تحمل ملامح حياة "فلان الفلاني" الذي شهد الطيب صالح جزءاً من حياته في لندن. وذهب بعضهم إلى أن "مصطفى سعيد" هو الطيب صالح نفسه، معللين ذلك بأن الراوي في موسم الهجرة هو الروائي نفسه. وأن المرأة في تلك الغرفة كشفت أن الراوي هو مصطفى سعيد: "أعتقد أنني أكون كاتباً رديئاً لو كان هذا صحيحاً، ومن الواضح أنني لست هذا الإنسان". وفي مكان آخر: "لا أظن أنني أكتب لأقص للناس قصة حياتي، وهي على أية حال عادية لا تصلح قصة" لماذا استأثر الطيب صالح بكل هذا الزخم والاحتفاء؟ هل هي اللذة الشعرية الموحية (كما يقول د. حسن أبشر)؟ أم الأسلوب الأخاذ؟ أم سلاسة التعبير وحلاوة السبك ورشاقة العرض؟ أم الارتداد بالموهبة إلى ذلك الجزء من المنحنى وأخذ الشخوص من هناك؟ أم (كما يقول البعض) السرد الهادئ العميق في "عرس الزين" والسرد المتوتر في "موسم الهجرة"، والجمل الخبرية القصيرة في "مريود"؟ أم طرح أسئلة جوهرية (العلاقة القائمة على الصراع بين الشرق والغرب) بوجهة نظر اختلفت عن توفيق الحكيم وسهيل إدريس ويحيي حقي؟ أم إثارته مسائل كبرى مثل الثمن الذي يستحق أن ندفعه في سبيل التغيير الذي نريده أن يتحقق؟ أم تناول قضايا فلسفية بأسلوب الخير والشر ومغزى الحياة ولغز الموت ودرة الحياة في الكون وتعاقب الأجيال والبداية والنهاية، وما قد يغري أنصار الحلولية والتناسخ والتسيير بالتأويل في بندر شاه ومريود؟

- لماذا نال الطيب صالح هذا القسط من الجدل والتحليل والتأويل؟

لابد أن ما جاء في صدر هذا المقال جزء من الإجابة، أما الجزء الأكبر فنجده فيما قاله الكثيرون في الندوات والمحاضرات وأجهزة الإعلام وفي الكتب ورسائل الدكتوراه والمجلات والصحف. وربما أن شيئاً فوق ذلك كله يمكن أن يبرر هذا التفرد وهو "نفس الكاتب" قياساً بـ"نفس الشاعر" الذي تحدث عنه البروفيسور عبد الله الطيب فقال: "إن العرب عرفت "نفس الشعر" الذي هو الجسم النغمي النوري الروحي الذي يتميز به كل شاعر على حدة، على اتحاد الوزن الشعري المستخدم"، انتهى قول البروفيسور.

ألا يمكن القول إن "نفس الكاتب" يميز الطيب صالح عن غيره؟ ثم إن اللغة التي يوظفها الكاتب تحمل إيقاعاً خفياً: إذ يحس القارئ بالسجع والموسيقى والتقنية وينظر فلا يجد شعراً مكتوباً، كما أن اللغة نفسها عالية الكثافة يصل الإيجاز البليغ فيها حد الإعجاز. فقد تقرأ سطوراً قليلة للطيب صالح فتشبع فيك شيئاً فكثافة لغته، مقارنة بلغة غيره، أشبه بكثافة مادة الثقوب السوداء، آلاف أضعاف كثافة المادة لدينا، أو بلغة عصر الكمبيوتر (الفضاء السايبروني)، مثل قرص مدمج يزن بضعة جرامات ويحمل في أحشائه عشرات الكتب التي تملأ أرففاً وإذا كانوا يقولون "خير الكلام ما قل ودل"، فقد برهن الطيب صالح أن خير الكلام ما قل ودل وسحر وأدهش وأثار. لهذا كنت أتساءل دائماً (كالقارئ): لماذا يطالبونه بالمزيد، وقد أفرغ طاقة هائلة من أشياء سكنت جوانحه منذ الطفولة

والصبا في ذلك المنحنى، واعتملت في داخله ردحاً من الزمن حتى بلغ السيل الزبى فأخرجها من الوعي واللاوعي، وارتد إلى المكان نفسه واتخذه مسرحاً لشخوص يعرف دواخلهم تماماً؟ وأرجو ألا يبدو الأمر غامضاً ومتناقصاً، والحديث هنا عن الأدب والخيال واللاوعى، إن الطيب صالح فجر هذه الطاقة وعبر عن هذه الأشياء بصدق وشفافية، وآثر بعدها ينشئ ألا ينشئ (وعياً) مصنوعاً (ولا وعياً) متكلفاً.

وبعيدا عن كتبه أنظر ما كتبه في "نحو أفق بعيد" وما كتبه في "تذكر أكرم صالح"، وتأمل وصفه العجيب لزملائه في الـ"بي بي سي"، ثم أنظر بتمعن لعبارة كتبها عن على أبو سن، قال: "كان يقرأ نشرات الأخبار كالمتفضل على الإنجليز ألم تصف هذه العبارة سيكويولوجية الرجل وصفاً دقيقاً وتجسد أنفة وشموخا وكبرياء هذا السوداني القادم من العالم الثالث، الذي يمارس هذا الفعل في قلب لندن وفي أكبر مرافق الإنجليز؟ ألا تحمل هذه العبارة قدراً كبيراً من الطرافة إذا تأملها بعمق؟ وقد تتخذ الصورة بعداً آخر إذا علمنا أن الرواية السودانية المتدوالة تقول إن جدّ المتكلم عنه كان في بعض المواقف - وإمعاناً في (الرجالة) - ينظر إلى الرجل بعين واحدة (مستخسراً) أن ينظر إليه بعينيه الاثنتين، معلناً بوضوح ألا أحد (يملأ عينه).

إذا كان الإبداع بهذا الحجم والرجل بهذه القامة، والطيب صالح يجري ولا يجري معه ويجمع بين الاثنين فيغرف من بحر وينحت من صخر، فلا بد للسؤال المشروع أن يطرح نفسه: لماذا تأخرت جائزة نوبل

حتى الآن، ولماذا ضلت الطريق إلى آخرين؟ وإذا كانوا أحياناً يمنحونها بسبب كتاب، ألا تكفيهم صفحات من مريود؟ ربما تأتي التكنولوجيا في المستقبل بمقياس (كمي) للأعمال الأدبية وتخترع جهازاً إلكترونياً حساساً توصل أقطابه برأس القارئ لرصد الحفز العصبي ومعدل الاستغراق، حينها سوف تكون كمية الإثارة (النظيفة) الناتجة عن موسم الهجرة تعادل ٨,٥ بمقياس ريختر الأدبي، فيقتنع أهل نوبل بذلك. ولو كان الأمر بيدي لأعلنت على الملأ:

يمنح الطيب صالح جائزة نوبل بسبب سطر واحد كتبه عن أكرم صالح، فقال: "وأكرم صالح صوته مفعم باحتمالات الأفراح والأحزان، كأن أحداً يريد أن يبكي ويضحك في الوقت نفسه"، وسوف يؤيدني في ذلك كل من سمع صوت أكرم صالح - رحمه الله.

وبعد، فهذه (ختتي) المتواضعة في (حنة) الطيب صالح، وقد خفت أن يفوتني شرف المشاركة في العرس وأنا أشاهد من أهل ذلك المنحنى العجيب، حيث يقف المرء في خط التماس بين الحياة والموت. ينظر وراءه فيرى الموت والفناء في صحراء قاحلة، وينظر أمامه فيرى الحياة والبقاء في نيل كوثر، ربما أودع هذا التباين الحاد سرداً في النفوس وأشعل فتيلاً من الإبداع، وربما انعكس على العواطف والأمزجة فأصبحت تتأرجح بين قمة حادة وسهل منبسط دون أن تمر بالمنحدر.

خفت أن يفوتني شرف المشاركة وأنا شاهد من أهل ذلك المنحنى، وأعرف من أين اغترف الطيب صالح جزءاً من إبداعه "لا أعرف من أين

اغترف الجزء الآخر". أنا من ذلك المنعرج وأهلي عندهم أعلام مثل دومة ود حامد، عندنا حرازة ود قدورة "عسكر تحتها إسماعيل باشا بعد أن أبادات بنادقه فرسان الشايقية في أم بقر بكورتي".

يرى البعض (مرأى العين وفي وضح النهار) أشياء غريبة تحت هذه الحرازة، عندنا (شديرة الوي)، وكانت مثل (ذات أنواط) عند أهل مكة في الجاهلية، أصوات الليل عندنا كما في "ود حامد" فوج من صراخات تلتقي وتفترق في مكان ما في جهة ما، لا ندري هل هي أصوات مأتم أم عرس، لا ندري هل تجيء من قبلي أم من بحري، عندنا خيال خصب يصنع حكايات رائعة، عندنا الهمبوتية والبعاتي وود أم بعلو والسحار والنسناس والغول وحواء أم السخل وبت الحور، عندنا حكاية (على ود كلب الحلة) ذلك الرواسي الذي يجيء بمركبه من أسفل النهر فتناديه السحارة باسمه راجية منه ألا يجر المركب فوق أولادها النائمين في القاع، عندنا بت الحور تخرج من البحر ليلاً وتبحث عن الرجال، سمعوها مرة تنادي أحد رجال البلد "ود الكودة.. كودة كدودة". عندنا النسناس (نوع مسالم من الجن) يعيش بيننا ويعرف أحوالنا ويمشي وراء سعيد حوار شيخنا ود توم عندما يعبر (البار) عند (قيف الهدمة) ويتونس معاه عن أحوال ناس البلد.. عندنا همهمات صوفية.. تنقلك إلى معارج عجيبة ومدارج غريبة عندنا عشق صوفي للمدينة وساكن المدينة (ص). وعندما ينشد المادح: طالبات المدينة مناي .. قوافل درجن بي جاي، يصل بعضنا مرحلة من العشق ويتمدد (من طوله) على الأرض فاقداً الوعي، يحدثونك

عندنا فيقولون إنهم (يقيدون) النحاس أيام الفيضان حتى لا يهيج مع قيام البحر، عندنا يرتاد الخيال مناطق أخرى فيحدثونك عن ليلة القدر قائلين: "سيكون الضوء يومها ساطعاً باهراً في السماء (شالعاً) يخطف الأبصار.

وستكون الأشياء مقلوبة فترى جذور النخلة في الهواء وجريدها في الأرض مكان الجذور عندنا يحدثونك أن نبي الله الخضر يظهر في هيئة غريبة ويدهمك وأنت في عجلة من أمرك، ويسألك فإذا أجبته انفتح لك باب الرزق واسعاً. وإن رددته عدت بالخيبة والخسران.

وأخيراً أقول لمبدعنا الطيب صالح: أنت أكبر من (البتاعة) التي يوزعونها سنوياً ويسمونها جائزة نوبل، وإلى أن تجيئك خاضعة تجرجر أذيالها، خذ جائزة نوبلك من أعراب شعث غبر عقلوا جمالهم وجلسوا القرفصاء في طرف السوق، خذها من نساء اجتمعن في (دق ريحة) وزغردن (أيووي يووووي) خذها من (غبش مكندكين) اجتمعوا بحميرهم فوق مشرع خذها من (زولا سرب سربه وخت الجبال غربة) ومن زول رحل ببعيره في بطن وادي بين الجبال وطفق يدوبي: "دومتك دفقت وسط الرسن مقرونة وإدك خلت الحصحاص دقيق طاحونة"، خذها من رجال في سودري يحجبون ضوء الشمس وخذها من عموم أهل السودان، في السافل والصعيد، في قبلي وبحري، في الضهاري والصحاري وفي كل واد وواحة، وإن كانت زينب بنت صبير قد صنعت فناً عظيماً في تلك الليلة قبل أكثر من خمسين عاماً وأدخلت بلدكم في نسيج عالمها الأسطوري (فإذا بلدكم كما تعرفونه وزيادة وإذا أنتم جميعاً

كما تعرفون أنفسكم وأكثر)، فقد أدخلت السودان كله في نسيج عالمك الأسطوري (فطال الناس أشباراً).

من غيرك أتاح للناس في العالم أن يقرأونا بكل اللغات؟ من غيرك أتاح للناس في السويد والنرويج أن يعرفوا كومة ومروي وكريمة؟ من غيرك أتاح للناس في اسكوتلندا أن يسمعوا بقشابي:

The girl who made
Gushabi her home
All night long for her
I yearn

" الزول السكونو قشابي ... طول الليل عليه بشاي"

وليعذرني الطيب صالح، فنبرة الإعجاب الشديدة من أهله في السودان تزعجه إلي حد ما، حيث ظل يردد، ودون إحساس بتواضع مزيف، أنه أبعد ما يكون عن كاتب عالمي، كما أنه لا يقبل المقارنة بينه وبين شارلز ديكنز. أما نحن فنجد بغيتنا في "عرس الزين" أكثر مما نجدها فيGREAT EXPECTATIONS، ونجدها في "موسم الهجرة"، أكثر مما نجدها في DAVID COPPERFIELD وليعذرني القارئ إذا ظن أن غبار الشوفينية قد طغى على هذا المقال فكاد أن يفسده، وليذكر القارئ أن رجاء النقاش، قال ما قال وهو لم ير النمتة وأنا رأيتها ولم يشم رائحة النخل حين يتهيأ للقاح وأنا شممتها، ولم يسمع زغروده "أيووووي" وأنا سمعتها. وربما أكون قد رأيتهم وسمعت أصواتهم في مكان ما في زمن ما، مثل محيميد فتنادوا بي من ناحية النهر والصحراء من الشرق والغرب.

رأيتهم يخرجون من الماء.. ويتسللون بين فروع الشجر، ويقفـــزون فوق هامات النخل ورءس البيوت، وينّطون كأنهم يرقصون فوق القباب، ويذوبون في شعاع الشمس.

إضاءات

أولا: مؤلفات الطيب صالح

– موسم الهجرة إلى الشمال، رواية، بيروت، دار العودة ، ١٩٦٦.

– دوة ود حامد، قصص، بيروت، دار العودة، ١٩٦٩.

– عرس الزين، رواية، بيروت، الدار الشرقية للطباعة والنشر، ب. ت.

– بندر شاه: ضو البيت، بيروت، دار العودة، ١٩٧١.

– نخلة على الجدول.

– الرجل القبرص.

ثانيا: كتب تناولت أدبه

– أحمد سعيد محمدية (إعداد وتقديم): الطيب صالح عبقري الرواية العربية دار العودة، بيروت، ١٩٧٦.

– فاطمة موسى: الرواية العربية المعاصرة، فصل عن الطيب الصالح، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

– رجاء النقاش: أدباء معاصرون فصل بعنوان "الطيب صالح عبقرية روائية جديدة"، القاهرة، ١٩٦٨ .

– محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة أصولها واتجاهاتها وأعلامها فصل عن "الطيب صالح"، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٣.

- محمد إبراهيم الشونس: أدباء وأدباء "الرمز في عرس الزين: أبعاد المأساة في موسم الهجرة إلي الشمال". وحدة الفكر في روايات الطيب صالح: النقد وموسم الهجرة إلي الشمال، دار التأليف والترجمة والنشر، الخرطوم، ١٩٧٣.
- عبد القدوس الخاتم: مقالات نقدية فصل "الطيب صالح بين الرمز والاقتباس" مصلحة الثقافة، الخرطوم، ١٩٧٧.
- جورج طرابيش: شرق وغرب رجولة وأنوثة موسم الهجرة إلى الشمال، بيروت، ١٩٧٩.
- خالد موسى دفع الله: اللامنتهى في أدب الطيب صالح: مقدمات رؤية لمشروع عصر الانتقال دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ١٩٩٣.
- فوزية الصفار: دراسة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال "أزمة الأجيال العربية المعاصرة مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله تونس" ١٩٨٠ "بحث لنيل درجة الأستاذية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية"
- طلحة جبريل: على الدرب.. مع الطيب صالح: ملامح من سيرة ذاتية توب للاستثمار والخدمات، الرباط، ١٩٩٧.
- أحمد شمس الدين الحجاجي: صانع الأسطورة الطيب صالح الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- حسن أبشر الطيب: الطيب صالح.. دراسات نقدية دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠١.
- عبد الرحمن خانجي: قراءة جديدة في روايات الطيب صالح دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أم درمان، ١٩٨٣.
- يوسف نور عوض: الطيب صالح من منظور النقد البنيوي، مكتبة العلم، جدة، ١٩٨٣.

ثالثا: رسائل جامعية:

رجاء نعمة موسم الهجرة إلى الشمال دراسة في التحليـــل النفـــسي لـــلأدب أطروحة جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨٤.

محمد المهدي بشرى محمد سعيد: الفلكلور في إبداع الطيب صالح بشرى.

– الخرطوم: جامعة الخرطوم ،١٩٩٨، "رسالة دكتوراة".

رابعا: بعض ما كتب عنه بالإنجليزية:

-Ahmed nasr popular islam, in: al tayeb salih jal ,N. 11(1980) pp. 88-104

-Ali abdella abbas. Noteson tayeb salih :season of migration to the north & wedding of zein . sudan notes & records .vol. 1 (1974) -pp. 46-60

-Mohammed shaheen tayed salih &wad hamid :an alteration of vision . a j h, vol 5 (1985) p. 267- 287.

-Mustafa saaid in season of migration to the north a j h , vol 4 (1984) 282-292.

-Mona tagiedine . tayed salihs season of migration to the north :an inter pretation arab studies quarterly , 2 winter 1980.

-Osman hassan ahmed eltayeb salih fi alsihafa al ajnabiyya (el tayeb salih in the foreing press al sihafa (september 1969.(

-Samira abdalla images of the four elements in :el tayeb salih.

-A paper presented in completion of honour dagree

university of khartoum fa culty of arts 1985.

-Salah hassan tayeb salih : patterns & ambiguitioes . sudan now december

محتويات الكتاب